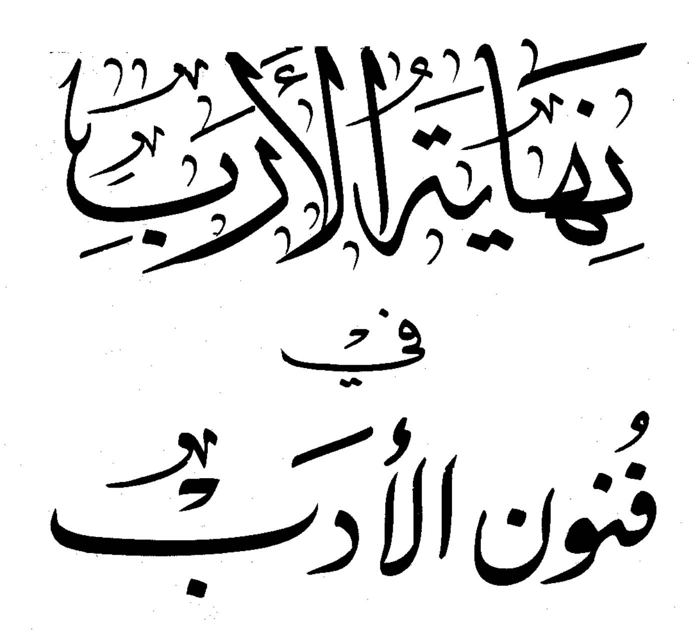


نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢٦ - ٢٧

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9 782745 138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر أخبار الدولة الديلمية الجيلية

هذه الدولة كانت ببلاد طَبرِسْتان، والريّ، وجرجان، وقزوين. وزَنجان[١] وأبهر[٢]، وقم، وأصفهان، والكَرج[٣]، وغير ذلك من البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وملوك هذه الدولة مسلمون، وكان الذي دعاهم إلى الإسلام الحسن بن علي الأطروش العلوي، وهو من أصحاب محمد بن زيد، فلما قتل محمد بن زيد سار الحسن إلى الديلم، وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة، ودعاهم إلى الإسلام، واقتصر منهم على العشر، وبنى في بلادهم المساجد، فأجابه منهم طائفة، وخرج بهم إلى طبرستان، وملكها، وكان منهم ليلى بن النعمان، وكان أحد قواده، وتولى جرجان، وقتل حمّويه في سنة ثمان وثلاثمائة، ومنهم سرجاب، وهو مقدم جيش الحسن، مات في سنة عشرة وثلاثمائة، ومنهم ماكان بن كالي، وكان من قواده أيضًا، واستخلفه على استراباذ[٤]، فاجتمع عليه الديلم، وقدموه عليهم، فاستولى على جرجان،

---

(١) زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه، ثم جيم، وآخره نون: بلد كبير من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والحديث... (معجم البلدان).

(٢) أبهر: بالفتح ثم السكون وفتح الهاء، وراء: اسم جبل بالحجاز.. وأبهر أيضًا: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل... وأبهر أيضًا: بليدة من نواحي أصبهان ينسب إليها إبراهيم بن الحجاج الأبهري سمع أبا داود وغيره... (معجم البلدان).

(٣) كرج: بفتح أوله وثانيه، وآخره جيم: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق؛ وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة... والكرج أيضًا: أكبر بلدة في ناحية روذراور بالقرب من همذان من نواحي الجبال بين همذان ونهاوند، بين الكرج وبين كل واحدة منهما سبعة فراسخ... (معجم البلدان).

(٤) أستراباذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة من فوق، وراء، وألف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: بلدة كبيرة مشهورة، أخرجت خلقًا من أهل العلم في كل فن وهي من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان... (معجم البلدان).

وأخذها من بغرا نائب السعيد الساماني، ولم يكن لهؤلاء الذين ذكرناهم كبير مملكة، وإنما كانوا يستولون على بلد من البلاد، ويقيمون بها مدة، ثم يخرجون عنها ويستولون على غيرها.

أول من تقدم من الدَّيْلم، وكثرت أتباعه، وعلا اسمه؛ واتسعت مملكته:

أسفار بن شيرويه الدّيلمي

ونحن نذكر حاله من ابتداء أمره، وما آل إليه، ومن ملك بعده من الديلم والجيل[١] إلى حين انقراض دولتهم إن شاء الله تعالى، فتقول:

كان أسفار هذا من أصحاب «ماكان» بن كالي الدّيلمي، وكان سيىء الخلق والعشرة، فكرهه «ماكان»، وأخرجه من عسكره، فالتحق ببكر بن محمد بن اليسع بنيسابور، وأقام في خدمته إلى أن قتل ابنُ الأطروش الحسنَ بن كالي أخا ماكان بجرجان، واستقل ابن الأطروش بالأمر، وجعل مقدم جيشه علي بن خرشيد، فكتب إلى «أسفار» يستقدمه، فاستأْذن بكرًا بن محمد، وسار إلى جرجان، واتفق مع علي بن خرشيد، وضبطا تلك الأعمال لابن الأطروش، فسار إليهم ماكان بن كالي، وقاتلهم، فهزموه، وأخرجوه عن طبرستان، وملكوها، وأقاموا بها، ثم اتفقت وفاة ابن الأطروش، وعلي بن خرشيد، فاستقل أسفار بالأمر، وانفرد به، فجاءه ماكان بن كالي، وهزمه، وأخرجه عن البلاد، فرجع إلى بكر بن محمد بن اليسع بجرجان، فأقام بها إلى أن توفي بكر، فتولاها أسفار من قبل السعيد نصر بن أحمد الساماني في سنة خمس عشرة وثلاثمائة، وأرسل أسفار إلى مرداويج بن زيار الجيلي يستدعيه إليه، فجاءه وجعله أسفار أمير جيشه، وأحسن إليه، وقصدا طبرستان واستولوا عليها. وكان ماكان بن كالي مع الحسن بن القاسم الداعي العلوي بالريّ، وقد استولى عليها، وأخرج عنها نواب السعيد، واستولى على قزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، فسار نحو طبرستان، والتقى هو وأسفار عند سارية[٢]، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم معظم أصحاب الحسن؛ قصدًا للهزيمة لكراهتهم له، فإنه كان يمنعهم من المظالم، وشرب الخمر، وارتكاب المحارم، فكرهوه، وكان أيضًا قد قتل جماعة منهم، فخذلوه في

---

(١) الجيل: هم أهل جيلان؛ وجيلان: بالكسر: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان.

(٢) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.. بها كان منزل العامل في أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك في آمل.. وبين سارية والبحر ثلاثة فراسخ، وبين سارية وآمل ثمانية عشر فرسخًا... (معجم البلدان).

هذه الحادثة، فقتل الداعي، واستولى أسفار على بلاد طبرستان، والريّ، وجرجان، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، والكرج، ودعا بها لصاحب خراسان نصر بن أحمد، واستعمل هارون سندان، وهو أحد رؤساء الجيل وخال مرداويج على آمل[١]، وكان هارون يحتاج أن يخطب فيها لأبي جعفر العلوي، وخاف أسفار ناحية أبي جعفر أن يجدد له فتنة وحربًا، فاستدعى هارون إليه، وأمره أن يتزوج من أعيان آمل، ويحضر عرسه أبو جعفر، وغيره من رؤساء العلويين، وأن يفعل ذلك في يوم ذكره له، ففعل، ثم سار أسفار من سارية مُجدًّا لموافاة العرس، فوصل آمل في يوم الموعد، وقد اجتمع العلويون عند هارون فهجم على الدار على حين غفلة، وقبض على أبي جعفر، وغيره من أعيان العلويين، وحملهم إلى بُخارى، فاعتقلوا بها. ولما فرغ أسفار من ذلك سار إلى الريّ وبها ماكان بن كالي، فأخذها منه، وسار ماكان إلى طبرستان، فأقام هناك. وأحب أسفار أن يستولي على «قلعة ألموت»، وهي قلعة على جبل عال شاهق في حدود الديلم، وكانت لسياه جشم، ومعناه: الأسود العين لأنه كان على إحدى عينيه نقطة سوداء، فراسله أسفار، ومنّاه، فقدم عليه، فسأله أن يجعل عياله في قلعة ألموت، وولاه قزوين، فأجابه إلى ذلك، ونقلهم إليها، ثم كان يرسل إليهم من يثق به من أصحابه، فلما حصل له بها مائة رجل استدعاه من قزوين[٢]، وقبض عليه وقتله، وعظمت جيوش أسفار، وطار اسمه، فتجبر وعصى على الأمير السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر، فسيّر الخليفة المقتدر هارون بن غريب إلى أسفار في عسكر، فالتقوا، واقتتلوا نحو قزوين، فانهزم هارون، وقتل من أصحابه خلق كثير بباب قزوين، وكان أهل قزوين قد ساعدوا هارون، فحقد عليهم أسفار، ثم سار الأمير نصر بن أحمد من بُخارى، وقصد حرب أسفار لخروجه عن طاعته وبلغ نيسابور، فجمع أسفار عسكره، فأشار عليه وزيره مطرف بن محمد بمراسلته، والدخول في طاعته، وبذل المال له، إن أجاب، وإلا فالحرب بعد ذلك، وكان في عسكره جماعة من الأتراك أصحاب صاحب خراسان، فخوفه الوزير منهم،

---

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل.. بين آمل وسارية ثمانية عشر فرسخًا، وبين آمل والرويان اثنا عشر فرسخًا، وبين آمل وسالوس، وهي من جهة الجيلان، عشرون فرسخًا... وآمل أيضًا: مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد إلى بخارا من مرو... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قزوين: بالفتح ثم السكون، وكسر الواو، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الريّ سبعة وعشرون فرسخًا وإلى أبهر اثنا عشر فرسخًا.. أول من استحدثها سابور ذو الأكتاف واستحدث أبهر أيضًا... (معجم البلدان).

فرجع إلى رأيه، وراسله، فقبل صاحب خراسان ذلك منه، وشرط عليه شروطًا منها: حمل الأموال، والطاعة، وغير ذلك، فشرع أسفار بعد تمام الصلح في بسط الأموال على الريّ وأعمالها، وجعل على كل رجل دينارًا إلا أهل البلد، والمحاربين، فحصّل من ذلك مالاً عظيمًا أرضى منه صاحب خراسان بالبعض ورجع عنه، وعظم أمر أسفار، وزاد تجبره، وقصد قزوين لما في نفسه من أهلها، فأوقع بهم، وأخذ أموالهم، وقتل كثيرًا منهم، وسلط الدّيلم عليهم، وسمع المؤذن يؤذن، فأمر بإلقائه من المنارة إلى الأرض، فاستغاث الناس من شره وظلمه. وخرج أهل قزوين إلى الصحراء: والرجال، والنساء، والولدان يتضرعون إلى الله تعالى، ويدعون عليه، ويسألون الله تعالى كشف ما بهم، فبلغه ذلك، فضحك وسبهم استهزاء بهم، فقابله الله تعالى في الغد من نهار الدعاء عليه بما سنذكره.

ذكر مقتل أسفار بن شيرويه

كان سبب قتله أن مرداويج كان أكبر قواده، وكان قد أرسله إلى سلار صاحب سمِيران[١] الطَّرْم يدعوه إلى طاعته، فلما وصل إليه مرداويج تشاكيا ما الناس فيه من الجهد والبلاء، فتعاقدا، وتحالفا على قصده، والتساعد على حربه، وكان أسفار قد وصل إلى قزوين، وهو ينتظر وصول مرداويج بكتابه، فكتب مرداويج إلى جماعة من القواد يثق بهم يعرفهم ما اتفق هو وسلار عليه، فأجابوه إلى ذلك، وكان الجند قد سئموا أسفار، وسوء سيرته، وظلمه، وجوره، وكان الوزير مطرف بن محمد، ممن أجاب مرداويج، ووافقه، فسار مرداويج نحو أسفار، فبلغه الخبر، وأحس بالشر وثار الجند به، فهرب في جماعة من خاصته، وذلك عقب حادثة أهل قزوين، ودعائهم عليه. فورد الريّ، وأراد أن يأخذ من مال من كان بها، فمنعه نائبه المقيم بها، ولم يعطه غير خمسة آلاف دينار، فتركه، وانصرف إلى خراسان وأقام بناحية بيهق[٢]. وأمّا مرداويج، فإنه وصل إلى قزوين، وسار منها إلى الريّ، وكتب إلى «ماكان بن كالي»، وهو بطبرستان يستدعيه ليتساعدا على أسفار، فسار «ماكان» إلى «أسفار»، فسار أسفار

---

(١) سميران: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وآخره نون، وبعد الميم ياء مثناة من تحت ثم راء مهملة: قلعة حصينة على نهر عظيم جار بين جبال في ولاية تارم، خربها صاحب ألموت... (معجم البلدان).

(٢) بيهق: بالفتح: ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية بين نيسابور وقومس وجوين، بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخًا... (معجم البلدان).

إلى بست[١]، وركب المفازة نحو الريّ ليقصد قلعة «ألموت» التي بها أهله وأمواله، فانقطع عنه بعض أصحابه، والتحق بمرداويج وأعلمه بخبره، فخرج مرداويج من ساعته في أثره وقدم بعض قواده بين يديه، فلحقه القائد، وقد نزل ليستريح، فسلم عليه بالإمرة، فقال له أسفار: لعلكم اتصل بكم خبري، وبعثت في طلبي قال: نعم، فضحك، ثم سأل القائد عن قواده الذين خذلوه، فأخبر أن مرداويج قتلهم، فتهلل وجهه، وقال كانت حياة هؤلاء غصة في حلقي، وقد طابت الآن نفسي، فامض لما أمرت به، وظن أنه أمر بقتله، فقال ما أمرت فيك بسوء، وحمله إلى مرداويج، فقتله، وانصرف إلى الريّ.

وقيل في قتله: إنه لما قصد ألموت نزل في دار هناك، واتفق أن مرداويج خرج إلى الصيد فرأى خيلاً يسيرة، فسيَّر من يكشف خبرها، فوجد رجل أسفار، فقبض عليه، وذبحه بيده، وقيل: بل دخل أسفار إلى رحا[٢]، وقد نال منه الجوع، فطلب من الطحّان ما يأكله، فقدم إليه خبزًا ولبنًا، فبينما هو يأكل وغلام له ليس معه غيره، إذ أقبل مرداويج إلى تلك الناحية في طلبه، فأشرف على الرحا فرأى أثر الخيل، فوصل إلى الرحا، وأخذه وقتله.

ذكر ملك مرداويج

وهو الثاني من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. كان ابتداء ملكه عند هرب أسفار، ولما قتله عاد إلى قزوين، وأحسن إلى أهلها، ووعدهم الجميل، وتمكن ملكه، وتنقل في البلاد، وملكها مدينة بعد أُخرى، وولاية بعد ولاية، فملك قزوين، والريّ، وهمذان، كِنْكَوِر[٣]، والدينور، وبروجرد[٤]، وقم، وقاجان، وأصفهان،

---

(١) بست: بالضم: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، ظنّها ياقوت الحموي من أعمال كامل.. وهي كبيرة، ويقال لناحيتها في زمن ياقوت كرم سير.

(٢) رحا: موضع بسجستان؛ ينسب إليه محمد بن أحمد بن إبراهيم الرحائي السجستاني، روى عن أبي بشر أحمد بن محمد المروزي... (معجم البلدان).

(٣) كنكور: بكسر الكافين، وسكون النون، وفتح الواو: بليدة بين همذان وقرميسين وفيها قصر عجيب يقال له قصر اللصوص... وكنكور أيضًا: قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر معدودة في قلاع ناحية الزوزان وهي لصاحب الموصل... (معجم البلدان).

(٤) بروجرد: بالفتح ثم الضم ثم الكسون، وكسر الجيم، وسكون الراء، ودال: بلدة بين همذان وبين الكرج، بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ.. وهي مدينة خصبة كثيرة الخيرات تحمل فواكهها إلى الكرج وغيرها... (معجم البلدان لياقوت).

وجَرباذْقان[١]، وغيرها، ثم أساء السيرة في أهل أصفهان خاصة، وأخذ الأموال، وهتك المحارم، وطغى وتجبر، وعمل سريرًا من ذهب يجلس عليه، وسررًا من فضة يجلس عليها أكابر القواد، وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفًا بالبعد منه، ولا يخاطبه أحد غير الحجاب الذين رتبهم لذلك، وخافه الناس خوفًا عظيمًا.

ذكر ملك طبرستان وجرجان

قد ذكرنا أن مرداويج كان قد كاتب ماكان، وطلبه منه المعاضدة على أسفار وموافقة ماكان له، فلما ملك مرداويج، وقوي أمره طمع في طبرستان، وجرجان، وكانتا مع ماكان، فجمع عساكره، وسار نحو طبرستان، فاستظهر على ماكان، واستولى على البلد، ورتب فيها أبا القاسم بن باحين، وهو إسفهسلار[٢] عسكره، وكن حازمًا شجاعًا جيد الرأي، ثم سار مرداويج نحو جرجان، وكان بها من قبل ما كان شيرزيل بن سلار، وياغلي بن ترلي، فهربا من مرداويج، فملكها، ورتب فيها سرجاب نائبًا عن أبي القاسم، فاجتمع لأبي القاسم جرجان، وطبرستان، وعاد مرداويج إلى أصفهان، وسار ماكان إلى الديلم، واستنجد بأبي الفضل الثائر بها، فأكرمه، وسار معه إلى طبرستان، فلقيهما نائب مرداويج، وتحاربوا، فانهزم ماكان والثائر، فعاد الثائر إلى الديلم، وقصد «ماكان» بنيسابور، ودخل في طاعة السعيد الساماني صاحب خراسان، واستنجد به، فأمدّه بأبي علي محمد بن المظفر، واستمد نائب جرجان مرداويج، فأمده بأكثر جيشه، فالتقوا، فانهزم أبو علي وماكان، وعاد إلى نيسابور، وعاد ماكان إلى الدامغان[٣] ليملكها، فمنعه نائب مرداويج بجرجان من ذلك، فعاد إلى خراسان. وهذه الوقائع كلها ساقها ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل في حوادث سنة ست عشرة وثلاثمائة، وما أظنها في هذه السنة خاصة، بل فيها وفيما بعدها، لكنه ـ والله أعلم ـ قصد أن يكون الخبر سياقة حتى لا ينقطع، وهذا كان دأبه في كثير من الوقائع، وهو حسن.

---

(١) جرباذقان: بالفتح: بلدة قريبة من همذان بينها وبين الكرج وأصبهان، كبيرة مشهورة... (معجم البلدان).

(٢) إسفهسلار: مركبة من كلمتين الأولى فارسية (اسفه) بمعنى المقدم، والأخرى تركية (سلار) بمعنى العسكر: مقدم العسكر.

(٣) الدامغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور، وهو قصبة قومس؛ قال مسعر بن مهلهل: الدامغان مدينة كثيرة الفواكه وفاكهتها نهاية، والرياح لا تنقطع بها ليلًا ولا نهارًا، وبها مقسم للماء كسرويّ عجيب يخرج ماؤه من مغارة في الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسمًا لمائة وعشرين رستاقًا لا يزيد قسم على صاحبه... (معجم البلدان).

ذكر الحرب بين مرداويج وبين هارون بن غريب

قال: ولما استتب لمرداويج الأمر أتاه الديلم من كل ناحية لبذله، وإحسانه إلى جنده، فعظمت جيوشه، وكثرت عساكره، وكثر الخرج عليه، فلم يكفه ما بيده، ففرق نوابه في النواحي المجاورة له، وبعث إلى همذان[١] ابن أخت له في جيش كثيف، وكان بها أبو عبد الله محمد بن خلف في عسكر للخليفة، فتحاربوا وأعان أهل همذان عسكر الخليفة، فظفروا بالديلم، وقتل ابن أخت مرداويج، فسار إلى همذان، فلما سمع أصحاب الخليفة بمسير مرداويج انهزموا، وفارقوا همذان، ونازلها مرداويج، فتحصن أهلها منه، فقاتلهم، وظفر بهم، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأحرق وسبى، ثم رفع السيف وأمر بنفيهم، فأنفذ المقتدر هارون بن غريب في عساكر كثيرة لمحاربته، فالتقوا بنواحي همذان، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم هارون، واستولى مرداويج على بلاد الجبل جميعها، وما وراء همذان، وسيّر قائدًا من قواده يعرف بابن عجلان القزويني إلى الدِّينَوَر، ففتحها بالسيف، وقتل كثيرًا من أهلها، وبلغت عساكره، إلى نواحي حلوان فغنمت، وقتلت، ونهبت، وسبت، وعادت إليه.

ذكر ملكه أصفهان

قال: ثم أنفذ مرداويج طائفة أخرى إلى أصفهان، فملكوها، واستولوا عليها، وبنوا له فيها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فسار مرداويج إليها، ونزلها، وهو في أربعين ألفًا، وقيل خمسين ألفًا، وأرسل جمعًا آخر إلى الأهواز، فاستولوا عليها وعلى خوزستان، وجبوا أموال تلك البلاد، والنواحي، فقسمها في أصحابه، وادخر منها ذخائر كثيرة، ثم أرسل إلى المقتدر رسولاً يقرر على نفسه مالاً على هذه البلاد، ونزل للمقتدر عن همذان، فأجابه إلى ذلك، وقرر عليه مائتي ألف دينار في كل سنة.

ذكر وصول وشمكير إلى أخيه مرداويج

قال: ولما استقرّ ملك مرداويج أرسل في طلب أخيه وشمكير، وهو ببلاد جيلان يستدعيه. قال الجعد: أرسلني إليه فجئته فإذا هو في جماعة يزرعون الأرز،

---

(١) همذان: بالتحريك، والذال معجمة، وآخره نون: كانت همذان أكبر مدينة بالجبال وكانت أربعة فراسخ في مثلها، طولها من الجبل إلى قرية يقال لها زينواباذ. . . (معجم ياقوت).

فلما رأوني قصدوني وهم عرايا حفاة عليهم سراويلات ملوّنة الخرق مرقعة، فسلمت على وشمكير، فأبلغته رسالة أخيه، وأعلمته ما هو فيه، وما حازه من الملك، فضرط بفيه في لحية أخيه، وقال: إنه لبس السواد، وخدم المسودة يعني الخلفاء، فما زلت أمنّيه وأطمعه حتى خرج معي، فلما بلغنا قزوين اجتهدت به حتى لبس السواد، ورأيت من جهله أشياء أستحيي أن أذكرها، ثم أعطته السعادة ما كان في الغيب، فجاء من أعرق الملوك بتدبير الممالك، وسياسة الرعايا، وكان وصوله إلى أخيه في سنة عشرين وثلاثمائة.

ذكر مقتل مرداويج

كان مقتله في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وسبب ذلك أنه كان كثير الإساءة إلى الأتراك، وكان يقول: إن روح سليمان بن داود حلت فيه، وإن الأتراك هم المردة والشياطين، فإن قهرهم، وإلا أفسدوا، فثقلت وطأته عليهم، فلما كان في ليلة الميلاد من هذه السنة، أمر بأن يجمع الحطب من الجبال والنواحي، وأن يجعل على جانبي الوادي المعروف بزندره، ويعمل مثله على الجبل المعروف «بكر ثم كُوه» المشرف على أصفهان من أسفله إلى أعلاه بحيث إذا اشتعلت النيران يصير الجبل كله نارًا، وعمل مثل ذلك بجميع الجبال والتلال التي هناك، وجمع النفط، ومن يلعب به، وجمع له أكثر من ألفي غراب وحدأة[1] ليجعل في أرجلها النفط، وترسل لتطير في الهواء، وأمر بعمل سماط عظيم كان فيه مائة فرس، ومائتا رأس من البقر مشوية صحاحًا، وثلاثة آلاف رأس من الغنم شواء، غير المطبوخ ومن الأوز والدجاج عشرة آلاف طائر، وما يناسب ذلك من الحلوى، وركب آخر النهار بغلمانه فطاف بالسماط، ونظر إليه، وإلى تلك الأحطاب، فاستحقر الجميع لسعة البرية، ولعن وغضب وعاد فدخل خركاه[2]، وقام، فلم يجسُر أحدٌ أن يكلِّمه، واجتمع الأُمراء والقواد وغيرهم، وكادت الفتنة تقوم لخوفهم منه، فأتاه وزيره العميد، وتلطف به، وعرَّفه ما الناسُ فيه، فخرج، وجلس على السِّماط، وأكل ثلاث لقم، ونهب الناس الباقي، ولم يجلس للشراب، وعاد إلى مكانه، وأقام ثلاثة أيام لا يظهر، فلما كان في اليوم الرابع أمر بإسراج الخيل ليعود إلى منزله، فاجتمع خلق كثير وشغبت الدواب مع الغلمان، وصهلت، ولعبت، فصار الغلمان يصيحون بها لتسكن، فاجتمع من ذلك أصوات

---

(١) الحدأة: طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.

(٢) الخركاه: الخيمة؛ أو القبة.

هائلة مختلفة منكرة، وكان مرداويج نائمًا، فاستيقظ، فسمع ذلك، وسأل عنه، فعرف صورة الحال، فازداد غضبًا، وقال ما كفى من إخراق الحرمة ما فعلوه من نهب السماط، وما أرجفوا به حتى انتهى أمر هؤلاء الطلاب إلى هذا، وسأل عن أصحاب الخيل، فقيل: إنها للأتراك، وقد نزلوا للخدمة، فأمر أن تحط السروج عن الدواب، وتوضع على ظهور أصحابها، ويأخذون بإرسال الدواب إلى الإصطبلات، ومن امتنع من ذلك ضربه الديلم، ففعلوا ذلك، فكانت صورة قبيحة أنفت منهم نفوسهم. ثم ركب مع خاصته، وهو يتوعد الأتراك حتى صار إلى داره بعد العشاء بعد أن ضرب جماعة من أكابر الأتراك، فاجتمعوا، وقالوا ما وجه صبرنا على هذا الشيطان، وتحالفوا على الفتك به، واتفق دخوله الحمام، وكان كورتكين يحرسه في حمامه وخلواته، فأمره في ذلك اليوم أن لا يتبعه، فتأخر مغضبًا، وكان هو الذي يجمع الحرس، فلم يأمر الحرس باتباعه. وكان له خادم أسود يتولى خدمته بالحمام، فاستمالوه، فمال إليهم، وهجم الأتراك على الحمام، فقام أستاذ داره[١]، وهو خادم، ليمنعهم، فضربه بعضهم بالسيف، فقطع يده، فصاح، فعلم مرداويج، فغلق باب الحمام، وتربسه[٢] بسرير كان يجلس عليه إذا غسل رأسه، فصعدوا السطح، وكسروا الجامات[٣]، ورموه بالنشاب، ثم كسروا باب الحمام، ودخلوا عليه، وقتلوه، وكان الذي جمع الناس على قتله توزون، وهو الذي صار أمير العساكر بالعراق، وياروق، ومحمد بن ينال الترجمان، وبجكم وهو الذي تولى إمرة العراق. قال: ولما قتلوه أعلموا أصحابهم، فنهبوا قصره، وهربوا. هذا ولم يعلم بهم الديلم، فلما علموا ركبوا في آثارهم، فلم يلحقوا منهم إلا نفرًا يسيرًا، فقتلوهم، وعادوا، واجتمع رؤساء الديلم والجيل، وتشاوروا على من يقوم مقامه، فاجتمعوا على طاعة أخيه وشمكير.

ذكر ملك وشمكير بن زيار

وهو الثالث من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. قال: ولما قتل مرداويج كان وشمكير بالريّ، فحملوا تابوت مرداويج، وساروا نحو الريّ، فخرج وشمكير، ومن عنده من أصحابه، وتلقوا التابوت مشاة حفاة على أربعة فراسخ، وكان يومًا مشهودًا. واجتمع على وشمكير عساكر أخيه. قال: وكان ركن الدولة بن بويه في جيش

---

(١) أستاذ داره: المراد بها الذي يتولى قبض مال السلطان وصرفه.

(٢) تربس الباب: أغلقه.

(٣) الجام: الجامة: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها. جمع جامات.

مرداويج رهينة عن أخيه عماد الدولة، فإنه كان قد بذل من نفسه الطاعة لمرداويج، ورهن عنده أخاه، فلما قتل مرداويج بذل للموكلين به مالاً، فأطلقوه، فهرب إلى أخيه عماد الدولة بفارس.

ذكر ما فعله الأتراك بعد قتل مرداويج

قال: ولما قتلوه تفرقوا على فرقتين، ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم، وهي أكثرها، فجبوا الأموال، وخراج الدّينور[1] وغيرها، وصاروا إلى النهروان، فكاتبوا الخليفة الراضي بالله في المسير إلى بغداد، فأذن لهم، فدخلوا، فظن الحُجَريّة[2] أن ذلك حيلة عليهم، فطلبوا رد الأتراك إلى بلد الجبل، فأمرهم ابن مقلة بذلك، وأطلق لهم مالاً، فلم يرضوا به، وغضبوا فكاتبهم ابن رائق، وهو بواسط، وله البصرة، فاستدعاهم فمضوا إليه، وقدم عليهم بجكم وأمره بمكاتبة الأتراك والديلم أصحاب مرداويج، فكاتبهم، فقدم منهم عدة، فأحسن إليهم، وأمره أن يكتب إلى الناس في كتبه بجكم الرائقي، وكان من أمر بجكم ما قدمناه في أخبار الدوْلة العباسية.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة أرسل وشمكير جيشًا كثيفًا من الريّ إلى أصفهان، وبها ركن الدولة بن بويه، فأزالوه عنها، وخطبوا لوشمكير، وسار وشمكير إلى قلعة «ألموت» واستولى عليها، ودامت أيام وشمكير إلى سنة سبع وخمسين.

ذكر وفاة وشمكير

كانت وفاته في المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وذلك أنه ركب للصيد، فعارضه خنزير قد رمي بحربة، وهي ثابتة فيه، فحمل الخنزير عليه، وهو غافل، فضرب الفرس الذي تحته فشبَّ به، فألقاه إلى الأرض، فخرج الدم من أنفه وأذنيه، فمات. وكانت مدة ملكه أربعًا وثلاثين سنة تقريبًا، ولما مات قام بالأمر بعده ابنه بهشيتون.

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل... (معجم البلدان).

(٢) الحجرية: قال ابن الأثير: يجوز أن تكون منسوبة إلى الحجْر قصبة اليمامة، أو إلى حجرة القوم وهي ناحيتهم... (اللسان مادة حجر).

ذكر ملك ظهير الدولة بهشيتون بن وشمكير

وهو الرابع من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. ملك ماكان في مملكة أبيه بعد وفاته، وذلك في المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، قال: ولما ملك صالح ركن الدولة بن بويه، فأمدَّه بالخيل، والمال، والرجال، وكان وشمكير قد قصد ركن الدولة، وأتته العساكر من قبل الأمير منصور بن نوح الساماني، وكتب إلى ركن الدولة يهدده ويسبه في كتابه، ويقول: والله إن ظفرت بك لأفعلن، ولأصنعن، فلم يجسر الكاتب أن يقرأه على ركن الدولة، فقرأه هو، وقال للكاتب اكتب إليه: أما تهددك، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضد ما كتبت، ولأحسنن إليك، ولأُكرمنك، فلما مات استقر الصلح بين ظهير الدولة، وركن الدولة، ودامت أيام بهشيتون إلى سنة ست وستين وثلاثمائة، فتوفي بجرجان[١]، وكانت مدة ملكه تسع سنين وشهورًا، ولما مات ملك بعده أخوه.

ذكر ملك شمس المعالي قابوس بن وشمكير

وهو الخامس من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. كان ملكه بعد وفاة أخيه بهشيتون في سنة ست وستين وثلاثمائة، وكان عند وفاته عند خاله بجبل شهريار، وخلف بهشيتون ابنًا صغيرًا بطبرستان مع جده لأُمه، فطمع جده أن يأْخذ الملك، فبادر إلى جرجان، فرأى بها جماعة من القواد قد مالوا إلى قابوس، فقبض عليهم، وبلغ قابوس الخبر، فسار إلى جرجان، فلما قاربها خرج الجيش إليه، واجتمعوا عليه، وأطاعوه، وملكوه، فهرب من كان مع ابن بهشيتون، وتركوه، فأخذه عمه قابوس وكفله، وجعله أسوة أولاده، واستولى على جرجان، وطبرستان، ودام ملكه إلى أن خلع، وقتل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خلع قابوس بن وشمكير وقتله
وولاية ابنه ملك المعالي منوجهر

وفي سنة ثلاث وأربعمائة خُلع شمس المعالي قابوس بن وشمكير، فكانت مدة ملكه سبعًا وثلاثين سنة، وكان سبب خلعه أنه ـ مع ما كان فيه من الفضائل الجمّة،

---

(١) جرجان: بالضم، وآخره نون: مدينة عظيمة مشهورة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه، وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة... (معجم البلدان).

وحسن السياسة ـ كان شديد المؤاخذة، قليل العفو، يقتل على الذنب اليسير، فضجر أصحابه منه، واستطالوا أيّامه، وأجمعوا على خلعه، والقبض عليه، وكان حينئذ غائبًا عن جُرجانَ ببعض قلاعه، فلم يشعر إلا وقد أحاط العسكر به، وانتهبوا أمواله ودوابَّه، وقصدوا استِنْزاله، فمانع عن نفسه، فرجعوا إلى جرجان، واستولوا عليها وعصوا بها، وبعثوا إلى ابنه منوجهر وهو بطَبرِستان يعرِّفونه الحال، ويستدعونه ليولوه أمرهم، فسار عَجلًا خوفًا من خروج الأمر عنه، فالتقوا، واتفقوا على طاعته إن هو خلع أباه، فأجابهم على كُرهٍ منه، وكان شمسُ المعالي قد توجّه إلى بسطام[1]، فقصدوه، فلما وصل منوجهر إلى أبيه اجتمع به، وخلا معه، وعرفه ما هو فيه، وعرض عليه أن يقاتل معه منْ خرج عليه، ولو كان فيه ذهاب نفسه، فرأى قابوس خلاف ذلك، وسهل عليه الأمر حيث صار إلى ابنه، وسلم له خاتم الملك، وانتقل إلى قلعته: جنَاشْك[2] ليتفرغ للعبادة، وسار منوجهر إلى جرجان، وضبط الملك، وأخذ في مداراة الذين خرجوا على أبيه، فدخلوا عليه في بعض الأيام وحسَّنوا له قتل والده، وخوفوه، وصمموا على إعدامه، وهو لا يجيبهم بكلمة، ثم فارقوه وجاؤوا إلى أبيه، وقد دخل الطهارة، وهو متخفف، فأخذوا ما كان عليه من الكسوة، وكان فصل الشتاء، فصار يستغيث ويقول: أعطوني، ولو جلَّ دابة حتى مات من شدة البرد، وجلس ولده منوجهر للعزاء.

وكان قابوس غزير الأدب، وافر العلم، له رسائل، وشعر حسن. وكان عالمًا بالنجوم.

قال: ولما ملك منوجهر لقبه الخليفة القادر بالله ملك المعالي، ثم راسل يمين الدولة محمود بن سبكتكين، ودخل في طاعته، وخطب له على سائر منابر بلاده، وتزوج ابنته، فقوي عضده به، وشرع منوجهر في التدبير على قَتَلَةِ أبيه، فأبادهم بالقتل والتَّشريد.

واستمرّ في الملك إلى سنة عشرين وأربعمائة، فتوفي فيها، فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة.

ولما مات ملك بعده ابنه.

---

(١) بسطام: بالكسر ثم السكون: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين.

(٢) جناشك: بالفتح، والألف والشين المعجمة يلتقي عندهما ساكنان، وآخره كاف: من قلاع جرجان واستراباز مشهورة معروفة بالحصانة والعظمة... (معجم البلدان).

ذكر ملك أنو شروان دارا ابن ملك المعالي منوجهر ابن قابوس شمس المعالي

وهو السابع من ملوك الدولة الديلمية الجيلية ملك بعد وفاة أبيه منوجهر في سنة عشرين وأربعمائة، وقام بتدبير دولته أبو كاليجار القُوهي، وتقدم على جيشه، وتزوج بأُمه، ثم قبض عليه أنو شروان بعد ذلك بمساعدة أمه، فلما قبض عليه طمع فيه السلطان طغرلبك السلجقي، فسار إلى جرجان في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ومعه مرداويج بن بسو، ونازلها، فلم يمانعه أهلها، وفتح له أبوابها، وقرر على أهلها مائة ألف دينار صلحًا، وسلّمها إلى مرداويج، وقرّر عليه في كل سنة خمسين ألف دينار عن جميع الأعمال، ثم اصطلح أنو شروان ومرداويج، وتزوج بأم أنو شروان، وضمن له أنو شروان في كل سنة ثلاثين ألف دينار، وبقي أنو شروان يتصرف بأمر مرداويج لا يخالفه في شيءٍ، وأقيمت الخطبة لطغرلبك.

وانقرضت الدولة الديلمية الجيلية، وكانت مدة هذه الدولة منذ ملك أسفار بن شيرويه. في سنة ست عشرة وثلاثمائة، وإلى أن استولى طغرلبك على جرجان في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، مائة سنة وثمان عشرة سنة تقريبًا، وعدة من ملك منهم سبعة ملوك، وهم: أسفار بن شيرويه، ثم مرداويج بن زيار، ثم وشمكير بن زيار، ثم ظهير الدولة بهشيتون بن وشمكير، ثم شمس المعالي قابوس بن وشمكير، ثم ملك المعالي منوجهر قابوس، ثم ابنه أنو شروان دارا. وعليه انقرضت دولتهم. والله أعلم بالصواب.

ذكر أخبار الدولة الغزنوية

كان ابتداء هذه الدولة بغزنة[١] في سنة ست وستين وثلاثمائة، ثم استولت على خراسان، والغور[٢]، والهند، وغير ذلك، وأول من قام منهم سبكتكين، ونحن نذكر أخباره، وابتداء أمره إلى أن ملك بعده من أولاده، وأولادهم، إلى حين انقراض دولتهم.

---

(١) غزنة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، ثم نون: هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدًا... (معجم البلدان).

(٢) الغور: بضم أوله، وسكون ثانيه، وآخره راء: جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة مشهورة، وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه يسكن ملوكهم فيها... (معجم البلدان).

ذكر أخبار ناصر الدولة سبكتكين وابتداء أمره وما كان منه إلى أن ملك

كان سبكتكين من غلمان أبي إسحاق بن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية، وكان مقدمًا عنده، وعليه مدار أمره، وقدم إلى بُخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أبي إسحاق، فعرفه أربابُ تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأي، وعاد معه إلى غزنة، ثم لم يلبث أبو إسحاق أن توفي، ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم، فأجمع أصحابه رأيهم على سبكتكين، فقدموه عليهم، وولُّوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم، وساس أمورهم، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال، وكان يدخر من إقطاعه ما يعمل منه طعامًا لهم في كل أسبوع مرتين. فعظم شأنه، وارتفع قدره، وحسن ذكره، وتعلقت الأطماع بالاستعانة به.

ذكر ولايته قصدار وبست

كان سبب ذلك أن طغان خان صاحب بست خرج عليه أمير يعرف ببابي تور، فملك مدينة بست منه، وأجلاه عنها بعد حرب شديدة، فاستغاث بسبكتكين، والتزم بمال يحمله إليه في كل سنة، وطاعة يبذلها، فسار معه، ونزل على بست، وقاتل الخارج على طغان قتالاً شديدًا، وهزمه، وتسلم طغان البلد، فلما استقر فيه طالبه سبكتكين بما استقر عليه، فأخذ يماطله، فأغلظ له في القول لكثرة مطله، فحمل طغان الجهل على أن ضرب سبكتكين وحجز العسكر بينهما، وقامت الحرب بينهما على ساق، فانهزم طغان، واستولى سبكتكين على بست، وسار طغان إلى قصدار[١] ـ وكان يتولاها أيضًا ـ فعصى بها، واستعصم، وظن أن ذلك يمنعه من سبكتكين، فسار إليه جريدة[٢]، فلم يشعر إلا والخيل معه، فأخذه من داره ثم منَّ عليه، وأطلقه، ورده إلى ولايته، وقرر عليه مالاً يحمله في كل سنة.

ذكر غزوة الهند، وما كان بينه وبينهم

قال: ولما فرغ سُبُكتكين من بُسْت وقُصْدار غزا الهند، فافتتح قلاعًا حصينة على شواهق الجبال، وعاد سالمًا ظافرًا، فلما رأى جيبال ملكُ الهند ما دهاه منه

---

(١) قصدار: بالضم ثم السكون، ودال بعدها ألف، وراء: ناحية مشهورة قرب غزنة، وهي من بلاد الهند.. وقصدار: قصبة ناحية يقال لها طوران وهي مدينة صغيرة لها رستاق ومدن... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

حشد، وجمع، واستكثر من الفِيَلَة، وسار حتى اتصل بولاية سُبُكتكين، فسار سبكتكين من غزنة بعساكره، وتبعه خلق كثير من المتطوعة، والتقوا واقتتلوا أيامًا كثيرة، وكانوا بالقرب من عقبة عورك، فلما طال الأمر على ملك الهند طلب الصلح، وقرر على نفسه مالاً يؤديه لسبكتكين وخمسين فيلاً وبلادًا يسلمها، فعجل المال والفيلة، وأعطى جماعة من أهله رهائن على البلاد، وسيَّر معه سبكتكين من يتسلَّمها. فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من أصحاب سبكتكين، وجعلهم عنده عوضًا عن رهائنه، فلما اتصل ذلك بسبكتكين جمع العساكر وسار نحوه، وأخرب كل ما مرَّ عليه من بلاد الهند، وقصد لمغان(١)، وهي أحصن بلادهم، فافتتحها عنوة، وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، وسار عنها يفتح البلاد، ويقتل أهلها، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة، فجمع جيبال ملك الهند العساكر، وسار في مائة ألف مقاتل، ولقيه سبكتكين، وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود، ففعلوا ذلك حتى ضجر الهند من دوام القتال، وحملوا حملة واحدة، واشتد القتال، فانجلت الحرب عن هزيمة الهنود، وأخذهم بالسيف، وأُسر منهم خلق كثير، وغُنم من أموالهم، وأثقالهم، ودوابهم ما لا يحصى كثرة، فذلَّ الهنود بعد هذه الوقعة، وأطاع سبكتكين الأفغانية والخَلج ودخلوا تحت أمره وطاعته، فعظمت هيبته، واتسعت مملكته.

ذكر ملك محمود بن سُبكتكين خراسان

قال: وفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة كانت ولاية محمود بن سبكتكين خراسان من قِبلِ الأمير نوح بن منصور الساماني عوضًا عن أبي علي بن سيمجور، ولقَّبه الأمير نوح سيف الدولة، ولقَّب سُبكتكين ناصر الدولة، وأقام محمود بنيسابور، ثم كانت بينه وبين أبي علي بن سيمجور وقعة في سنة خمس وثمانين، فانهزم محمود، ثم جمع عساكره وعساكر أبيه، فأخرجا ابن سيمجور عنها في بقية السنة، واستقر ملك محمود بخراسان على ما قدمناه في أخبار الدولة السامانية.

ذكر وفاة ناصر الدولة سُبكتكين وولاية ولده إسماعيل

كانت وفاته رحمه الله في شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وكان إذ ذاك ببلخ(٢)، وقد جعلها مقر ملكه، وابتنى بها دورًا ومساكن، فمرض وطال مرضه، فارتاح

---

(١) لمغان: لامغان: من قرى غزنة.. وقيل: لامغان كورة تشتمل على عدة قرى في جبال غزنة وربما سميت لمغان؛ وقد نسب إليها جماعة من فقهاء الحنفية ببغداد... (معجم البلدان).

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.. بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخًا، ويقال لجيحون: نهر بلخ، بينهما نحو عشرة فراسخ... (معجم البلدان).

إلى هواء غزنة، فسار عن بلخ، فمات في طريقه، ونقل إلى غزنة، فدفن بها. وكانت مدة ملكه نحوًا من عشرين سنة، وكان عادلاً خيِّرًا، كثير الجهاد، حسنَ الاعتقاد، فاضلاً عارفًا، له نَظْم ونثر وخطَب في بعض الجُمَع، وكان يقول بعد الدعاء للخليفة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

ولما حضرته الوفاة عهد إلى ولده إسماعيل بالملك، وكان أصغر من أخيه محمود، فبايعه الجند بعد وفاة أبيه، وحلفوا له، فأطلق لهم الأموال، ثم استصغروه، فاشتطُّوا في الطلب حتى فنيت الخزائن التي خلفها سُبكتكين. ثم استولى محمود على الملك فكانت مدة ملك إسماعيل سبعة أشهر.

ذكر سلطنة يمين الدولة محمود بن سُبكتكين

وهو الثالث من ملوكهم. وهو أول من تلقب بالسلطان، ولم يتلقب بها أحد قبله.

قال: ولم بلغه خبر وفاة والده كان بنيسابور، فجلس للعزاء، ثم أرسل إلى أخيه إسماعيل يعزِّيه، ويعرفه أن أباه إنما عهد إليه بالملك لبُعده عنه، ويذكر له ما يتعيَّن من تقديم الكبير، وطلب منه الوفاق، وإنفاذ ما يخصه من ميراث أبيه، فلم يفعل. وتردَّدت الرسائل بينهما، فلم تستقر قاعدة، فسار محمود عن نيسابور إلى هراة[1] عازمًا على قصد غزنة، واجتمع بعمه بغراجق، فساعده على إسماعيل، وسار إلى بُست، وبها أخوه نصر، فتبعه، وأعانه، وسار إلى غزنة، وبلغ الخبر إسماعيل وهو ببلخ، فسار عنها مُجدًا فسبق أخاه محمودًا إلى غزنة، وكان الأمراء الذين مع إسماعيل قد كاتبوا أخاه محمودًا يستدعونه، ووعدوه الانحياز إليه، فجدّ في السير، والتقى هو وإسماعيل بظاهر غزنة، واقتتلا قتالاً شديدًا، فانهزم إسماعيل، واعتصم بقلعة غزنة، فحصره أخوه محمود، واستنزله منها بأمان، فلما نزل إليه أكرمه، وأحسن إليه، وشاركه في ملكه، وعاد إلى بلخ، واستقامت له الممالك، وعظم شأنه، وأطاعته العساكر.

---

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان.. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان).

ذكر استيلاء يمين الدولة محمود على خراسان وانتزاعها من السامانية

كان سبب ذلك أن فائقًا وبكتوزون مدبري دولة الأمير منصور بن نوح قبضا عليه، وسملاه كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار السامانية، فسار السلطان محمود نحوهما، والتقوا بمرو[١] في جُمادى الأُولى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم السامانية، فلحق عبد الملك، وفائق ببُخارى، وقصد بكتوزون نيسابور، ثم قصد نواحي جُرجان، فأرسل محمود خلفه أرسلان الجاذب، فاتبعه حتى ألحقه بجرجان، وعاد، فاستخلفه محمود على طوس[٢]، وسار إلى هراة، فلما علم بكتوزون بمسير محمود عن نيسابور عاد إليها وملكها، فقصده محمود، فهرب منه إلى بُخارى بعد أن نهب مرو على طريقه، واستقر ملك محمود بخراسان، وزال ملك السامانية منها، وخطب بها للقادر بالله، وكان يخطب بها إلى هذا التاريخ للطائع بعد خلعه، وولى محمود قيادة جيوش خراسان أخاه نصرًا، وجعله بنيسابور، وسار هو إلى بلخ، وهي مستقر ملك أبيه، واتخذها دار مُلْك، واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته كآل قريغون أصحاب الجَوْزَجَان[٣]. وكالشار الساه صاحب غَرْشِسْتان[٤]، والشار: لقب لمن ملك غَرْشِسْتان ككسرى الفرس، وقيصر الروم. وفي سنة تسعين وثلاثمائة قتل بغراجق عم يمين الدولة؛ قتله طاهر بن خلف بن أحمد صاحب سجستان في حرب بينهما، فسار يمين الدولة نحو خلف بن أحمد أبو طاهر، فتحصن منه بحصن أصهنه، فحاصره، وضيّق عليه، فبذل الأموال، فأجابه إلى ما طلب، وأخذ رهائنه على ما تقرر من المال. والله أعلم بالصواب.

---

(١) مرو: مرو الروذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغير بالنسبة إلى مرو الأخرى.. ومرو الشاهجان: أشهر مدن خراسان وقصبتها... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية... (معجم البلدان).

(٣) جوزجان: هو اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار... (معجم البلدان).

(٤) غرشستان: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة مكسورة، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل، هراة في غربيها والغور في شرقيها... (معجم ياقوت).

ذكر غزوة الهند

وفي المحرم سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة أحب يمين الدولة أن يغزو الهند ويجعل ذلك كفارةً لقتاله مع المسلمين، فسار ونزل على مدينة بُرشَوَرَ، والتقى هو وجيبال ملك الهند، واقتتلوا إلى نصف النهار، فانهزم الهند، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر ملكهم جيبال وجماعة كثيرة من أهله وعشيرته، وغنم المسلمون أموالهم وجواهرهم، وأخذ من عنق جيبال قلادة من الجوهر قومت بمائتي ألف دينار، وأخذ أمثالها من أعناق مقدميه الأسرى، وغنم المسلمون خمسمائة ألف من الرقيق، وفتح كثيرًا من بلاد الهند، ثم أحب أن يطلق جيبالاً ليراه الهنود في شعار الذل، فأطلقه على مال قرره عليه، فأدى جيبال المال، ومن عادة الهنود أنه من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيرًا لم يُعقد له بعدها رئاسة، فلما رأى جيبال حاله بعد خلاصه حلق رأسه، وألقى نفسه في النار، فاحترق.

ثم سار محمود نحو ويهند[١]، فحاصرها، وأخذها عنوة، ثم بلغه أن طائفة من الهند اجتمعوا في شعاب تلك الجبال، فجهز إليهم من عساكره من قتلهم، فلم يسلم منهم إلا الشريد، وعاد إلى غزنة مؤيدًا منصورًا سالمًا ظافرًا.

ذكر ملكه سجستان

وفي سنة تسعين وثلاثمائة ملك يمين الدولة سجستان[٢]، وانتزعها من خلف ابن أحمد؛ وكان سبب ذلك أن يمين الدولة لما رحل عن خلف بعد مصالحته على المال كما قدمناه عَهِدَ خلفٌ لولده طاهر، وسلم إليه مملكته، وانقطع للاشتغال بالعلم، وإنما فعل ذلك ليظهر ليمين الدولة تخلِّيه عن الملك لينقطع طمعهُ عن بلاده، فعقَّه ولدُه، واستقلَّ بالملك، فأخذ أبوه يلاطفه، وادعى المرض، فزاره ابنه طاهر، فقبض عليه، وسجنه إلى أن مات في سجنه، فتغير العسكر لذلك، وكاتبوا يمين الدولة في تسليم سجستان إليه، فجهّز من تسلمها، وقصد خلفًا، وهو في حصن الطاق[٣]، وهذا الحصن له سبعة أسوار محكمة يحيط بها خندق عريض لا يعبر إليها

(١) ويهند: قصبة القندهار على غرب نهر السند. . . (أبي الريحان البيروني - تحقيق ماكلهند من مقولة ١٦٥).

(٢) سجستان: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة. . بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملة سبخة. . . (معجم البلدان)..

(٣) حصن الطاق: حصن بطبرستان في جبل كان خزانة لملك الفرس.

إلا من جسر منه، فرفع الجسر وأمر يمين الدولة بطمّ الخندق بالأخشاب والتراب، فطموا منه ما يعبرون عليه إلى السور، وتقدم الفيل الكبير إلى باب السور واقتلعه بنابيه، وملك سورًا بعد سور، فطلب خلَف الأمانَ، فأمنه وحضر إليه، فأكرمه، وملك الحصن، وخيّر خلفًا في المقام حيث شاء، فاختار أرض الجوزجان، فسيّره إليها مكرمًا، فأقام نحو أربع سنين، ثم بلغ يمين الدولة أنه كاتب إيلك خان ملك ما وراء النهر يحثه على قصد يمين الدولة، فنقله إلى جردين[١]، فكان بها إلى أن مات في شهر رجب سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فسلم محمود جميع ما خلفه إلى ولده أبي حفص، وكان خلف هذا من العلماء، وله كتاب صنفه في تفسير القرآن العظيم من أكبر كتب التفاسير. قال: ولما ملك يمين الدولة سجستان استخلف عليها أميرًا كبيرًا من أمرائه يسمّى قنجي الحاجب، ثم أقطعها لأخيها نصر بن سُبكتكين مضافة إلى نيسابور. والله أعلم.

ذكر غزوة بهاطية، وملكها

وفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطيه من أعمال الهند، وهي وراء المولتان[٢]، وصاحبها بجراء. وهي مدينة حصينة عالية السور يحيطها خندق عميق، فامتنع صاحبها، ثم ظهر، فقاتل ثلاثة أيام، وانهزم في اليوم الرابع، وقصد المدينة، فسبقه المسلمون إلى بابها، وملكوها، فهرب بخاصته إلى رؤوس الجبال، فجهز إليه يمين الدولة من يقاتله، فلما رأى الغلبة قتل نفسه بخنجر، وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أحوالها، وعاد عنها بعد أن ترك بها من يثق به، ومن يُعَلِّم من أسلم شرائع الإسلام، ولقي في عوده شدة كثيرة من كثرة الأمطار، وزيادة الأنهار، وغرق من عسكره خلق كثير.

ذكر غزوة المولتان

وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة بلغ يمين الدولة أن أبا الفتوح والي المولتان خَبُث اعتقاده، ونُسب إلى الإلحاد، وأنه دعا أهلَ ولايته إلى ذلك، فأجابوه، فرأى أن

(١) جردان: (كما في معجم البلدان لياقوت): الدال مهملة، وآخره نون: بلد قرب كابلستان بين غزنة وكابل، به يصيف أهل ألبان.

(٢) المولتان: بضم أوله وسكون ثانيه: بلد في بلاد الهند على سمت غزنة، قال الإصطخري: وأما المولتان فهي مدينة نصف المنصورة ويسمى فرج بيت الذهب وبها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها. . . (معجم البلدان).

يغزوه، فسار نحوه، فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة لا سيما سيحون[١] فأرسل إلى آنَنديال عظيم الهند يطلب إذنه في العبور ببلاده إلى المولتان، فلم يجب إلى ذلك، فابتدأ محمود به، وجاس خلال بلاده، وأكثر فيها النهب والقتل والإحراق، ففر آننديال بين يديه، وتبعه إلى أن وصل إلى قشمير[٢]، فلما سمع أبو الفتوح بمقدم يمين الدولة علم العجز عنه، فنقل أمواله إلى سرنديب[٣]، وأخلى المولتان، فوصل يمين الدولة إليها، وملكها عنوة، وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم.

ذكر غزوة كواكير

قال: ثم سار إلى قلعة كواكير، وكان صاحبها يعرف ببيدا، وكان بها ستمائة صنم فاقتحمها، وحرق الأصنام، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة «بكالنجار»، فسار خلفه إليها، وهي حصن عظيم يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل، وعشرون ألف دابة، وفيه من الأقوات ما يكفي الجميع مدة، فلما صار منه على سبعة فراسخ رأى من الغياض[٤] ما يمنعه عن سلوك الطريق، فأمر بقطعها، فقطعت، ورأى في الطريق واديًا عظيم العمق بعيد القعر، فأمر أن يطم بالجلود المملوءة بالتراب فطموه، ووصلوا القلعة، فحاصرها ثلاثة وأربعين يومًا، فراسله صاحبها في الصلح، فامتنع عليه، ثم بلغه عن خراسان اختلاف بسبب قصد إيلك خان، فصالحه على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنّ[٥] من الفضة، ولبس خلعة يمين الدولة بعد أن استعفى من شد المنطقة[٦]، فلم يعفه، وشدها، وقطع خنصره، وأنفذها ليمين الدولة، توثقة فيما يعتقدونه على عادة الهنود، وعاد يمين الدولة إلى خراسان.

---

(١) سيحون: بفتح أوله وسكون ثانيه، وحاء مهملة، وآخره نون: نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل، وهو في حدود بلاد الترك... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قشمير: بالكسر ثم السكون، وكسر الميم، وياء مثناة من تحت ساكنة، وراء: مدينة متوسطة لبلاد الهند، قال: إنها مجاورة لقوم من الترك فاختلط نسلهم بهم فهم أحسن خلق الله خلقة يضرب بنسائهم المثل لهنّ قامات تامة وصورة سويّة وشعور على غاية السباطة والطول والغلظ... (معجم البلدان).

(٣) سرنديب: بفتح أوله وثانيه، وسكون النون، ودال مهملة مكسورة، وياء مثناة من تحت، وباء موحدة: هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند... (معجم ياقوت).

(٤) الغياض: واحدتها الغيضة، وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف؛ أو هي الأجمة.

(٥) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن. (٦) المنطقة: ما يشد به الوسط.

ذكر عبور عسكر إيلك خان إلى خراسان

كان يمين الدولة لما ملك خراسان من السامانية، وملك إيلك خان ما وراء النهر منهم تراسلا، وتوافقا، وتزوج يمين الدولة ابنة إيلك خان وانعقدت بينهما مصاهرة ومصالحة، فلم تزل السعاة حتى أفسدوا ذات بينهما، وكتم إيلك خان ما في نفسه، فلما سار يمينُ الدولة إلى المولتان اغتنم إيلك خان غيبته عن البلاد، فسَيَّر سباشي تكين صاحب جيشه إلى خراسان، وذلك في سنة ست وتسعين وثلاثمائة في معظم جنده، وجهز أخاه جعفر تكين إلى بلخ في عدة من الأُمراء، وكان يمين الدولة قد جعل بهراة أميرًا من أُمرائه يقال له أرسلان: الجاذب، وأمره إذا ظهر عليه مخالف ينحاز إلى غزنة، فلما عبر سباشي تكين إلى خراسان سار أرسلان إلى غزنة، وملك سباشي هراة، وأرسل إلى نيسابور من استولى عليها، فوصلت الأخبار يمين الدولة وهو بالهند، فعاد لا يلوي على شيء، فلما قارب غزنة فرق الأموال في عساكره، وقواهم، واستنفر الأتراك الخَلَجية، فجاءه منهم خلق كثير، فسار بهم إلى نحو بلخ، وبها جعفر تكين أخو إيلك خان، فعبر إلى ترمذ[١] ونزل نحو «مرو» ليعبر النهر، فقاتله التركمان، فهزمهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة. ثم سار نحو أبِيوَرْد، فتبعه عسكر يمين الدولة، فوصل إلى جرجان، فأخرج عنها، ثم عاد إلى خراسان، فعاره يمين الدولة، فمنعه من قصده وأسر أخو سباشي تكين، وجماعة من قواده، ونجا هو في بعض أصحابه، فعبر النهر، وانهزم من كان ببلخ مع جعفر تكين، وتسلم يمين الدولة خراسان.

ذكر انهزام إيلك خان من يمين الدولة

قال: ولما أخرج يمين الدولة عساكر إيلك خان من خراسان راسل إيلك خان قدر خان بن بغراخان ملك الخُتَن[٢] لقرابة بينهما، واستعان به، فاستنفر الترك من أقاصي بلادها، وسار نحو خراسان، واجتمع هو وإيلك خان فعبروا النهر، واتصل خبرهم بيمين الدولة، وهو بطخارستان، فسبقهما إلى بلخ، واستعد للحرب، وجمع

---

(١) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون ما جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر. . . (معجم البلدان).

(٢) الختن: بضم أوله وفتح ثانيه، وآخره نون: بلد وولاية دون كاشغر ووراء يوزكند، وهي معدودة من بلاد تركستان، وهي في واد بين جبال في وسط بلاد الترك. . . (معجم البلدان).

الترك الغزية والخلج والهند والأفغانية والغزنوية، وخرج عن بلخ، فعسكر على فرسخين منها بمكان فسيح، وقدم إيلك خان، وقدر خان في عساكرهما، ونزلوا بإزائه، واقتتلوا يومهم ذلك إلى الليل، فلما كان الغد برز بعضهم لبعض، فاقتتلوا، فاعتزل يمين الدولة على نشز[1] مرتفع ينظر إلى الحرب، ونزل عن دابته، وعفَّر وجهه على الصعيد تواضعًا لله تعالى، وسأل النصر والظفر، ثم حمل بفيلته على قلب عسكر إيلك خان، فأزاله عن مكانه، ووقعت الهزيمة، وتبِعهم أصحاب يمين الدولة يقتلون، ويأْسرون، ويغنمون، إلى أن عبروا النهر. وأكثر الشراء القول في تهنئة يمين الدولة بهذا الفتح، وذلك في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

ذكر غزوه الهند وعوده

قال: ولما فرغ يمين الدولة من حرب الترك بلغه أن بعض أولاد ملوك الهند واسمه نَواسد شاه، وكان قد أسلم على يد يمين الدولة، واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم ارتد عن الإسلام، وعاد إلى الكفر، فسار إليه مجدًا، فحين بلغ الهندي قربه[2] فرَّ من بين يديه، واستعاد يمين الدولة البلاد، واستخلف عليها بعض أصحابه، وعاد إلى غزنة في السنة المذكورة.

ذكر غزوة بهيم نغز وما غنمه من الأموال وغيرها

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة استعد يمين الدولة لغزو الهند وسار في شهر ربيع الآخر من السنة، فانتهى إلى شاطىء نهر ويهند، فلاقاه هناك ابرهمن نال بن آنندپال في جيوش الهند، فاقتتلوا مليًا من النهار، وكادت الهند تظفر بالمسلمين، ثم كان الظفر للمسلمين، فانهزم الهند على أعقابهم، وأخذهم السيف، وتبع يمين الدولة الملك حتى بلغ بَهيم نغر، وهي على جبل عال كان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم، فينقلون إليها أنواع الذخائر قرنًا بعد قرن، وهم يرون ذلك تقربًا لآلهتهم وعبادة، فقاتلهم عليها، وحصرها، ووالى الحصار، فلما رأى الهنود كثرة جموعه، وشدة قتاله جبنوا، وطلبوا الأمان، وفتحوا باب الحصن، فملكه المسلمون، فصعد يمين الدولة إليه في خواص أصحابه وثقاته، فأخذ من الجواهر ما لا يحدّ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهب والفضة سبعمائة ألف

---

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٢) قربه: بالضم ثم الفتح، وباء موحدة: اسم واد، عن الجوهري... (معجم البلدان لياقوت).

وأربعمائة منّ. وكان في الحصن بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعًا وعرضه خمسة عشر ذراعًا، فأخذ جميع ما فيه إلى غير ذلك من الأمتعة، وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش الجواهر في صحن داره، وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك، فشاهدوا ما لم يسمعوا بمثله.

وفي سنة أربعمائة غزا يمين الدولة الهند وأحرقها، واستباحها، ونكس أصنامها، فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه إليه وخمسين فيلًا، وأن يكون له في خدمة يمين الدولة ألفا فارس لا يزالون، فقبض ذلك منه، وصالحه، وعاد إلى غزنة.

ذكر غزوة بلاد الغور واستيلائه عليها

وبلاد الغور تجاور غزنة، وهي جبال منيعة، ومضايق، وكان أهلها قد كثر فسادهم، وتعديهم يقطعون الطريق ويخيفون السبيل، فأنف يمين الدولة من ذلك، فسار إليهم في سنة إحدى وأربعمائة، وقاتلهم أشد قتال، ثم سار إلى عظيم الغورية المعروف بابن سُورَى وهو بمدينة آهنكران، فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم إلى أن انتصف النهار، فأمر يمين الدولة أن ينهزم المسلمون، فانهزموا وتبعهم ابن سُورَى حتى أبعدوا عن المدينة، ثم عطف المسلمون على الغورية، ووضعوا فيهم السيف، وملك المدينة، وأسر ابن سُورَى، فشرب سمًّا كان معه، فمات، وأظهر يمين الدولة شعائر الإسلام في بلاد الغور، وجعل عندهم من يعلمهم شعائر الإسلام وشرائعهم. ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار، فقطع مفازة[1] رمل، ولحق عساكره عطش عظيم حتى كادوا يهلكون بسببه، فأرسل الله تعالى عليهم مطرًا سقاهم، وسهل عليهم سلوك الرمل، فوصلوا إلى الكفار ومعهم ستمائة فيل، فقاتلهم أشد قتال كان الظفر فيه للمسلمين، وانهزم الكفار، وأخذ غنائمهم وعاد سالمًا.

ذكر ملكه قصدار

وفي سنة اثنتين وأربعمائة ملك يمين الدولة قُصدار. وسببُ ذلك أن ملكها كان قد صالحه على قطيعة[2] في ل سنة يؤديها إلى يمين الدولة، ثم قطعها اغترارًا بحصانة بلده، وكثرة المضايق في الطريق إليه، واحتمى بإيلك خان، وكان يمينُ الدولة إذا

---

(١) المفازة: الصحراء.

(٢) القطيعة: الجزء من الأرض يملكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحة.

قصد المسير إليه رجع عن ذلك إبقاءً لمودة إيلك خان، فلما فسد ما بينهما سار إليها في جُمادى الأولى من السنة، فسبق خبره، فلم يشعر صاحبها إلا وعسكر يمين الدولة قد أحاط به ليلاً، فطلب الأمان، فأجابه إليه، وأخذ منه ما كان قد اجتمع عنده من المال، وأقره على ولايته وعاد. وفي سنة ثلاث وأربعمائة كانت وفاة إيلك خان، وولاية أخيه طغان خان، وكان قد تجهز للعود إلى خراسان لقتال يمين الدولة. فلما مات، راسل طغان خان يمين الدولة، وتصالحا، واتفقا أن كلاً منهما يستقل بغزو من يليه من الكفار، فكان يمين الدولة يقاتل الهند، وطغان خان يقاتل الكفار.

ذكر فتح ناردين

وفي سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة إلى الهند، فسار شهرين حتى قارب مقصده، فسمع عظيم الهند به فجمع، وبرز إلى جبل صعب المرتقى، فاحتمى به، وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود، فاجتمع إليه كل من حمل السلاح، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل والتقوا، واقتتلوا، واشتد القتال، فهزمهم المسلمون، وأكثروا فيهم القتل، وغنموا ما معهم من مال وفيلة وسلاح. ولما عاد إلى غزنة أرسل إلى القادر بالله يطلب منه منشورًا وعهدًا بولاية خراسان وما بيده من الممالك، فكتب له ولقب نظام الدين.

ذكر غزوة تانيشر

قال: وذُكِر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر[1] فيلة من جنس فيلة الصليمان الموصوفة في الحرب، وأن صاحبها غال في الكفر، فعزم على غزوه، فسار في سنة خمس وأربعمائة، فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك، وقفارًا فسيحة الأطراف قليلة المياه، فقاسى شدة، ومشقة عظيمة، فلما قارب المقصد لقي نهرًا شديد الجرية صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدِلُّ بها، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر، ففعلوا ذلك، وشغل الهنود بالقتال عن حفظ النهر، فما كان إلا وقد عبر سائر العسكر، وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهزم الهنود، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والفيلة، وعاد إلى غزنة.

(١) تانيشر: بلد تقع فيما بين النهرين... (تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني).

ذكر قتل خوارزم شاه وملك يمين الدولة خوارزم

وفي سنة سبع وأربعمائة قُتِل خوارزم شاه أبو العباس مأمون بن مأمون. وسبب ذلك أنه كان قد ملك خوارزم[١] الجرجانية، وحضر عند يمين الدولة، وتزوج أُخته، ثم بعث إليه يمين الدولة أن يخطب له على منابر بلاده، فأجابه إلى ذلك، واستشار أُمراءه، فغضبوا من ذلك، وامتنعوا منه، وتهددوه بالقتل إن فعل، فعاد الرسول إلى يمين الدولة، وأخبره بما شاهده، ثم خافه الأُمراء فقتلوه غيلة، ولم يعلم قاتله، وأجلسوا أحد أولاده مكانه، وتعاهدوا على قتال يمين الدولة إن قصدهم، واتصل الخبر به، فجمع العساكر، وسار نحوهم والتقوا، واشتدت الحرب، فثبت الخوارزمية إلى نصف النهار ثم انهزموا، فأخذهم السيف، ولم يبق منهم إلا القليل، وجمع من أسر منهم وسيرهم إلى أطراف بلاده بالهند، وملك يمين الدولة خوارزم، واستناب بها حاجبه التونتاش.

ذكر غزوة قشمير وقنوج وغيرهما من الهند

وفي سنة سبع وأربعمائة أيضًا بعد فراغ يمين الدولة من خوارزم سار إلى غزنة، ثم منها إلى الهند عازمًا على غزو قشمير، واجتمع له من المتطوعة[٢] من بلاد ما وراء النهر وغيره نحو عشرين ألف مقاتل، وسار من غزنة إليها سيرًا دائمًا في ثلاثة أشهر، وعبر نهر سيحون، وجَيْلم، وهما نهران عميقان شديدا الجرية، ووطىء أرض الهند، وأتته رسل ملوكها بالطاعة، وبذل الأتاوة، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده، وسار بين يديه إلى مقصده، فبلغ ماء جون في العشرين من شهر رجب، وفتح ما حولها من الحصون المنيعة، حتى بلغ حصن هوْدبْ، وهو أحد ملوك الهند فنظر «هودب» من أعلى حصنه، فرأى من العساكر ما هاله، فعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فنزل في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص، فأقبل عليه يمين الدولة وأكرمه وسار عنه إلى قلعة كُجنْدْ، وهو من أعيان الهند، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة، فسيّر كُلْجند عساكره وفيلته إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم، وسلك طريقًا مختصرًا إلى الحصن، فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم

---

(١) خوارزم: هو ليس اسمًا للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى، فقد يقال لها الجرجانية... (معجم ياقوت).

(٢) المتطوعة: جمع المتطوع: الذي يتطوع للجهاد ونحوه.

قتالاً شديدًا، فانهزموا وأخذهم السيف من ورائهم، ولقوا نهرًا عميقًا، فاقتحموه، فغرق أكثرهم، فكان القتلى والغرقى قريبًا من خمسين ألفًا. وعمد كُلجند إلى زوجته، فقتلها ثم قتل نفسه، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه. ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو «مهرَّة» بالهند، وهو من أحصن الأبنية على نهر، ولهم فيه كثير من الأصنام من جملتها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجوهر زنتها ستمائة ألف وسبعون ألف وثلاثمائة مثقال، وبه من الأصنام لمصوغة من الفضة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة جميع ذلك، وأحرق الباقي، وسار نحو قَنَوَّج[1] وصاحبها جيبال، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر النهر المعروف بنهر الكَنْك[2]، وهو نهر شريف معظم عندهم - وتقدّم خبره في باب الأنهار - فأخذها يمين الدولة وسائر قلاعها وأعمالها وهي على النهر المذكور، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون أنها عملت من مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف سنة كذبًا منهم. ولما افتتحها أباحها عسكره. ثم سار إلى قلعة البراهمة، فقاتلهم فثبتوا، واستسلموا للقتل، فقتلوا، ولم ينج منهم إلا القليل. ثم سار نحو قلعة آسي[3] وصاحبها جندياك، فلما قاربها هرب صاحبها، فأخذها يمين الدولة بما فيها، ثم سار إلى قلعة شرْوه وصاحبها جَنْداري، فلما قاربه نقل ماله وفيلته إلى جبال هناك منيعة، فنازل يمين الدولة حصنه وافتتحه، وغنم ما فيه وسار في طلب جنداري جريدة، فلحقه في آخر شعبان فقاتله، وقتل رجاله، وأسر كثيرًا منهم، وغنم ما معه من مال وفيلة، ونجا جنداري في نفر يسير من أصحابه. ثم عاد يمين الدولة إلى غزنة، فبنى بها الجامع الذي لم يسمع بمثله، وأنفق ما غنم في هذه الغزوة على بنائه. والله أعلم بالصواب.

ذكر أخبار الملوك الخانية بما وراء النهر والأتراك

وفي سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين، وسبب ذلك أن طغان خان مرض مرضًا شديدًا، وطال به المرض، فطمعوا في البلاد، وساروا من الصين في عدد يزيد على ثلاثمائة ألف خركاه من أجناس الترك منهم الخِطا الذين ملكوا ما وراء النهر، فساروا إلى أن قربوا من بلا ساغون[4]، وبقي بينهم وبينها ثمانية أيام واستولوا

---

(١) قنوج: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وآخره جيم: موضع في بلاد الهند؛ عن الأزهري، وقيل: إنها أجمة. . . (معجم البلدان).

(٢) كنك: اسم واد في بلاد الهند.

(٣) قلعة آسي: قلعة بجندال يهور.

(٤) بلا ساغون: السين مهملة، والغين معجمة: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر.

على أطراف البلاد، فسأل طغان خان الله تعالى أن يعافيه لينتقم منهم، ويحمي البلاد، ثم يفعل به ما يشاء، فعافاه الله تعالى، فجمع العساكر واستنفر جميع بلاد الإسلام، فاجتمع له من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألف مقاتل، فلما بلغ الترك ذلك رجعوا، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر، فأدركهم وهم آمنون، فكبسهم، وقتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل وأسر نحو مائة ألف، وغنم من الدواب، والخركاهات، والأواني الذهبية والفضية، ومعمول الصين ما لا عهد بمثله، وعاد إلى بلا ساغون، فعاوده المرض، فمات رحمه الله تعالى. وكان عادلاً خيّرًا ديّنًا يحب العلم وأهلة، ويميل لأهل الدين، ويصلهم ويقربهم.

ولما مات ملك بعده أخوه أبو المظفر أرسلان خان، ولقبه شرف الدولة، فحالف عليه قدر خان يوسف بن بغراخان هارون بن سليمان، وكان ينوب عن طغان خان بسمرقند، وكاتب يمين الدولة يستنجده على أرسلان، فعقد يمين الدولة على نهر جيحون[1] جسرًا من السفن، وضبطه بالسلاسل وعبر عليه، ولم تكن تعرف الجسور قبل ذلك هناك، فلما عبر النهر اتفق قدر خان وأرسلان خان وتعاقدا على قصد بلاد يمين الدولة واقتسامها، فعاد يمين الدولة إلى بلاده، وسار قدر خان وأرسلان خان إلى بلخ والتقوا بيمين الدولة واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظَفَر فيه ليمين الدولة عليهما، فعادا وعبرا جيحون، وكان من غرق منهم أكثر ممن نجا.

ذكر أخبار قدر خان وأولاده

كان قدر خان يوسف بن بغرا خان هارون بن سليمان عادلاً حسن السيرة كثير الجهاد، فمن فتوحه «خَتَن»، وهي بلاد بين الصين وتركستان، كثيرة العلماء والفضلاء واستمر إلى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، فتوفي. وكان يديم الصلاة في الجماعة. ولما توفي ملك أولاده بعده، واقتسموا البلاد، فملك أبو شجاع أرسلان خان، ولقبه شرف الدولة، كَاشْغَر[2]، وخُتنَ، وبلاَ ساغُون. وخُطِب له على منابرها. قيل: ولم

---

(١) جيحون: قلا الإصطخري: فأما جيحون فإن عمود نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخّاب من حدود بذخشان وينضم إليه أنهار في حدود الختل ووخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم... (معجم ياقوت).

(٢) كاشغر: بالتقاء الساكنين، والشين معجمة والغين أيضًا، وراء: وهي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون... (معجم البلدان لياقوت).

يشرب الخمر قط. وكان ديِّنًا مكرِمًا للعلماء، وأهل الدين يقصدونه من كل جهة، ويصلُهم ويحسن إليهم.

وملك بغراخان بن قدر خان طراز[١] وأسبيجاب فقصد أخاه أرسلان خان وحاربه، وأسره وحبسه إلى أن مات. وملك بلاده، ثم عهد بغرا خان بن قدر خان بالملك لولدِه الأكبر واسمه حسين جغرتكين. وكان لبغرا خان امرأة له منها ولدٌ صغير، فغاظها ذلك فسمّت بغرا خان، فمات هو وعدَّة من أهله، وخنقت أخاه أرسلان خان بن قدر خان، وذلك في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وقتلت وجوه أصحابه، وملَّكت ابنَها واسمه إبراهيم، وسيّرته في جيش إلى مدينة برْسُخان[٢]، وصاحبها ينالتكين، فظفر به ينالتكين وقتله، وانهزم عسكره إلى أمه. واختلف أولاد بغرا خان، فقصدهم طفغاج خان.

ذكر ملك طفغاج خان وولده

هو أبو المظفر إبراهيم بن نصر بن إيلك، ويلقب عماد الدولة، كان بِيدِهِ سمرقند وفرغانة، وكان أبوه زاهدًا متعبدًا، وهو الذي ملك سمرقند، وورثها طفغاجُ هذا منه، وكان طفغاج متديّنًا لا يأخذ مالاً حتى يسْتعنًى العلماء، وورد عليه أبو شجاع العلَوي الواعظ. وكان من الزهّاد، فوعظه، وقال: إنك لا تصلح للملك، فأغلق طفغاج بابه، وعزم على ترك الملك، فاجتمع عليه أهل البلد، وقالوا: قد أخطأ الواعظ، والقيام بأمورنا متعيِّنٌ عليك، ففتح بابه، واستمر في الملك إلى سنة ستِّين وأربعمائة، ففلج، ثم مات. وكان في حياته قد جعل الملكَ في ولده شمس الملك نصر، فقصده أخوه طغان خان بن طفغاج، وحصره بسمرقند، فاجتمع أهلها إلى شمس الملك، وقالوا له: إن طغان خان قد خرب ضياعنا وأفسدها، ولو كان غيره ساعدناك عليه، ونحن لا ندخل بينكما، فوعدهم المناجزة[٣]، وخرج من البلد نصف الليل في خمسمائة غلام، فكبس أخاه، وهو غير متحفِّظ فهزمه، وكان هذا وأبوهما باق، ثم قصده هارون بن بغرا خان بن قدر خان، وطغرل قرا خان. وكان طفغاج خان قد استولى على ممالكهما، فقصدا سمرقند فلم يظفرا بشيء، فصالحا شمس

---

(١) طراز: بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك وهو قريب من الذي قبله (طراز، بكسر الطاء) وقد نسب إليه قوم من العلماء.

(٢) برسخان: قرية من قرى بخارى.

(٣) يقال: ناجزه الحرب ونحوها: نازله وقاتله.

الملك، وعادا فصارت الأعمال المتاخمة لنهر جيحون لشمس الملك، وأعمال الخافقة في أيديهما، والحد بينهما خُجَنْدة[١]. ثم مات شمس الملك، فملك بعده أخوه خضر خان، ثم مات، فملك بعده ابنه أحمد خان، وهو الذي قبض عليه السلطان ملكشاه السلجقي، ثم أعاده إلى ولايته، وأحمد هذا هو ابن أخي تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه، وكان أحمد خان قبيح الصورة والفعل كثير المصادرات، فنفَّر الرعية منه، وكاتبوا السلطان ملكشاه السلجقي، واستغاثوا به، وسألوه أن يقدم عليهم ليملك بلادهم، فعبر ما وراء النهر في سنة اثنين وثمانين وأربعمائة، وملك بُخارى[٢]، وما جاورها، ثم سار إلى سمرقند، فملكها، وهرب أحمد خان، واختفى في بيوت بعض العامة، فغُمِز عليه، وحُمِل إلى السلطان، وفي عنقه حبل، فأكرمه السلطان، وأرسله إلى أصفهان، واستولى ملكشاه على سمرقند وبُخارى، واستعمل عليها من قبله على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة السلجقية. ثم ملك محمود خان، وكان جدّه من ملوكهم، وكان أصمّ، فقصده طغان خان صاحب طراز، فقتله، واستولى على الملك. واستناب بسمرقند أبا المعالي محمد بن محمد بن زيد العلوي البغدادي، فأقام ثلاث سنين وعصى على طغان خان، فحاصره، وقتله، وقتل معه خلقًا كثيرًا، ثم خرج طغان خان إلى ترمذ[٣] يريد خراسان، فلقيه السلطان سنجر السلجقي، فظفر به وقتله، وصار له أعمال ما وراء النهر، فاستناب بها محمد خان بن كمشتكين بن إبراهيم بن طفغاج خان، فأخذها منه عمر خان، وملك سمرقند ثم هرب من جنده، وقصد خوارزم، فظفر به لسلطان سنجر، وولّى محمد خان سمرقند، وولّى محمد تكين بن طغان تكين بُخارى. هؤلاء ملوك سمرقند وما والاها.

وأما كاشغر وهي مدينة تركستان، فإنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدر خان، ثم صارت بعده لمحمود بغرا خان صاحب طراز والشاش[٤] خمسة عشر

---

(١) خجندة: بضم أوله، وفتح ثانيه، ونون ثم دال مهملة: هي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقًا، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جار، والجبل متصل بها. . . (معجم البلدان).

(٢) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من آمل الشط وبينها وبين جيحون يومان.

(٣) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض.

(٤) الشاش: بالشين المعجمة: بالريّ قرية يقال لها شاش. . . والشاش: بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. . . (معجم البلدان).

شهرًا، ثم مات، فولّى بعده طغرا خان بن يوسف واستولى على الملك، وملك بلاساغون، وكان ملكه ستة عشر سنة. ثم توفي، وملك ابنه طغرل تكين فأقام شهرين، ثم أتى هارون بغرا خان أخو يوسف طغرل خان بن طفغاج بغرا خان، وعبر كاشغر، وقبض على هارون، وأطاعه عسكره، وملك كاشغر وختن، وما يتصل بها إلى بلاساغون، وأقام في الملك عشرين سنة، وتوفي في سنة ست وتسعين وأربعمائة، فولّى بعده ابنه أحمد أرسلان خان، وراسل الخليفة المستظهر بالله يطلب منه الخلع والألقاب، فأرسل إليه ما طلب ولقبه نور الدولة، ثم صار ملك ما وراء النهر لملوك الخطا، وانقرضت الدولة الخانية، وإنما ذكرناها في هذا الموضع لاتحادها وقربها من الدولة الغزنوية، ولتكون أخبارهم متوالية.

نرجع إلى أخبار يمين الدولة محمود بن سُبكتكين.

ذكر غزوة الهند والأفغانية

وفي سنة تسع وأربعمائة جمع يمين الدولة من الجموع ما لم يجمع قبله مثله، وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنُّوج، وهرب صاحبها منها ويلقب براي قنوج، وراي لقب للملك ككسرى، وقيصر، فلما عاد إلى غزنة أرسل بيدا عظيم ملوك الهند وقسم مملكته كَجُوراهة[1] رسلًا إلى راي قنوج واسمه راجيبال يوبخه على هربه، وتسليم بلاده للمسلمين، وطال الكلام بينهما، فآل ذلك إلى الحرب بينهما، فقتِل راجيبال وأكثر جنوده، فازداد بيدا بذلك عظمة وعتوًا، وقصده بعض ملوك الهند الذين ملك يمين الدولة بلادهم، وخدموه، وصاروا في جُملة جنده، فوعدهم بإعادة ممالكهم إليهم، فاتصل ذلك بيمين الدولة، فتجهّز للغَزْو، وقصد بيدا، وسار من غَزْنة، وابتدأ بالأفغانية، وهم كُفَّار يسكنون الجبال ويفسِدون، ويقطعون الطريق، فخرّب بلادهم، وأكثر فيهم القتل والأسر، ثم استقلّ في السّير، وبلغ في الهند ما لم يبلغه غيره، وعبر نهر الكُنْك، فلما جاوزه وجد قافلةً تزيد على ألفِ جمل، فغنمها وسار، فأتاه خبرُ ملك من ملوك الهند، يقال له تروجنيبال، أنه قد سار من بين يديه يريد بيدا ليحتمي به، فلحِقَه في رابع عشر شوال، فاقتتلوا عامّة نهارهم، فانهزم تروجنيبال ومن معه، وكثر فيهم القتل والأسر، وغنم المسلمون أموالهم وأهليهم، وأخذوا منهم جواهرًا كثيرة، وما يزيد على مائتي فيل، وخرج ملكهم، وأرسل يطلب الأمان، فلم

---

(١) كجوراهة: قصبة مملكة ججاهوني، غربي كنك... (البيروني).

يؤمنه، ولم يقنع منه بغير الإسلام، فسار ثم قتله بعض الهنود، ولما بلغ ذلك ملوك الهند تابعوا رسلَهم إلى يمين الدولة يبذُلون الطاعة والإتاوة، وسار بعد الوقعة إلى باري[١] وهي من أحْصن البلاد، فرآها قد خلَت من سكانها، فأمر بهدمها، وعشرة قلاع معها، وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا، وسار يطلب «بيدا»، فلحقه، وقد نزل إلى جانب نهر، وأجرى الماء بين يديه، فصار وحلا، وترك عن يمينه وشماله طريقًا يبسًا يقاتل فيه إذا أراد القتال، وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وأربعين فيلاً، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال فأخرج إليهم «بيدا» مثلهم، ولم يزل كل عسكر يمُدُّ أصحابه حتى كثر الجمعان، واشتدت الحرب، ودام القتال حتى حجز بينهما الليل، فلما كان الغد بكر يمينُ الدولة للقتال، فرآهم قد فارقوا موضعهم، وانهزموا، وركب كل فرقة منهم طريقًا، ووجدوا خزائن الأموال والسلاح بحالها، فغنم المسلمون جميع ذلك، واقتفى آثار من انهزم، فأكثر فيهم القتل والأسر، ونجا «بيدا» وعاد يمينُ الدولة إلى غزنة.

ذكر فتح قلعة من بلاد الهند

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة أوْغَل يمينُ الدولة في بلاد الهند، فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة في رأس جبل منيع ليس يُصْعد إليه إلا من طريقٍ واحد، وفيها خمسمائة فيل، وغَلات كثيرة، ومياه، فحصرها يمين الدولة، وداوم الحصار، وضيَّق عليهم، وقتل منهم كثيرًا، فطلبوا الأمان، فأمَّنهم، وأقرّ مِلكها فيها على خراج يؤخذ منه، وأهدى له هدايا كثيرة، وقيل إن هذا الملك هو كابلي، وهو صاحبُ ألف فيل، وكان فيما أهداه فيلة حوامل ومراضع، وطائرٌ على هيئة القمري[٢] جلبابه أدكن[٣]، وعيناه ومنقاره حُمر، وجناحاه مخططان بسواد، ومن خاصيَّته أنه إذا حضَر على رأس الخوان، وكان في الطعام سمٌّ دمعت عيناه، وجرى منهما ماء، ويتحجر فإذا أخذ ذلك الحجر، وحُكَّ وطُلي به الجراحاتُ الواسعة ألحمها،وإن كان في البدن نصل تعسَّر إخراجه، قوبل به، فيجذبُه حتى يمكن إخراجُه، فقبل هديَّته، وأقرَّه على جِهته، وعاد إلى غَزْنة مؤيَّدًا منصورًا.

---

(١) باري: بكسر الراء: قرية من أعمال كلواذى من نواحي بغداد، (كما في معجم ياقوت). وباري: في شرق كنك. . . (كما في تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني).

(٢) القمري: ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت.

(٣) الأدكن: الذي اغبر لونه، أو الذي مال إلى السواد.

ذكر فتح سومنات

وفي سنة ست عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة عدة حصون ومدن من بلاد الهند، وأخذ الصنم المعروف بسُومنات(١)، وهو أعظم أصنام الهند، وكانوا يحجّون إليه كلَّ ليلة خسوف، فيجتمع عنده ما ينوف على ألف إنسان، وزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فينشئها فيما ينشأ، وأن المدَّ والجزر إنما هو عادة للبحر ويحملون إليه كلّ عِلق نفيس، ويعطون سدنتَه(٢) الأموال الجليلة، وفيه من نفيس الجواهر ما لا تُحصى قيمتُه، وبينه وبين نهر الكنك الذي تعظِّمه الهنود نحو مائتي فرسخ يتحملون من ماء هذا النهر إلى سُومنات ماء يغسل به في كل يوم، وعنده من البراهمة ألف رجل لعبادته، وتقديم الورّاد إليه، وثلاثمائة رجل تحلق رؤوس زواره ولحاهم، وخمسمائة رجل، وخمسمائة امرأة يغنّون، ويرقصون على باب الصنم، ولكلٍّ منهم في كل يوم شيء معلوم، وكان لسُومنات من الضِّياع الموقوفة عليه ما يزيد على عشرة آلاف ضَيْعة. قال: وكان يمين الدولة كلما فتح فتحًا من بلاد الهند، وكسر أصنامًا، تقول الهنود: «إنا هذه الأصنام قد سخط عليها سُومنات، ولو أنه راضٍ عنها لأهلك من تقصدها بسوء»، فلما بلغ ذلك يمينَ الدولة عزم على غزوه، وإهلاكه لعل الهنود إذا فقدوه، ورأوا دعاواهم باطلة دخلوا في دين الإسلام؛ فاستخار الله تعالى، وسار من غزنة في عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة، وسلك طريق المُلتان فوصلَها في منتصف شهر رمضان، وفي طريقه إلى الهند قِفارٌ لا تُسلك، لا ماء فيها ولا ميرة، فحمل ما يحتاج إليه هو وعسكره، وزاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل، تحمل الماء والميرة، وقصد أنهِلْوارة، فلما قطع المفازة رأى في طريقها حصونًا مشحونة بالرجال فيسَّر الله فتحها عليه، وامتار(٣) منها، وسار إلى أنهلوارة، فوصلها في مستهل ذي القعدة، فهرب عنها صاحبُها المدعو نهيم، وقصد حصنًا له يحتمي به، فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار إلى سُومَنَات، فلقي في طريقه عدة حصون بها كثير من الأوثان تشبه الحجّاب والنقباء لسومنات، فقاتل من بها، وفتحها وخرّبها وكسر أصنامها، وسار منها إلى مفازة قفر قليلة المياه، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لا يدينون لملك،

---

(١) سومنات: مركبة من كلمتين: سوم ومعناها القمر، ونات ومعناها الصاحب.
(٢) السادن: خادم بيت الصنم. جمع سدنة.
(٣) امتار: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

فهزمهم، وغنم مالهم، وامتار من عندهم، وسار حتى بلغ دبو الواره[١]، وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها ظنًا منهم أن سومنات يمنعهم، ويدفع عنهم، فاستولى عليها، وقتل رجالها، وغنم أموالها، وسار عنها، فوصل إلى سومنات في يوم الخميس منتصف ذي القعدة، فرأى حصنًا حصينًا على ساحل البحر تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار ينظرون المسلمين، فلما كان الغد، وهو يوم الجمعة زحف، وقاتل حتى قارب السور، فصعده المسلمون. هذا والهنود تتقدم إلى سومنات، وتعفِّر وجوهها في الأرض وتسأله النصر، واستمر القتال إلى الليل، ثم بكر المسلمون إليهم، وقاتلوهم، فأكثروا في الهنود، وأزاحوهم عن المدينة، فالتجؤوا إلى بيت صنمهم، فقاتلوا على بابه أشد قتال، فكان الفريق منهم بعد الفريق يفرون إلى الصنم، فيستغيثون به، ويبكون، ويتضرعون إليه، ويخرجون، فيقاتلون إلى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم وبقي منهم شرذمة دخلوا البحر في مركبين لهم، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضَهم، وغرق بعضُهم.

وأما البيت الذي فيه سومنات، فإنه مبنيّ على ست وخمسين سارية من الساج[٢] المصفح بالرصاص، وسومنات حجر طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدوَّرة ظاهرة، وذراعان في البناء، وليس هو بصورة مصوّرة، فكسره يمين الدولة، وأحرق بعضه، وأخذ بعضه معه إلى غزنة، فجعله عتبة لباب الجامع، وكان بيت الصنم مظلمًا، وإنما كان الضوء فيه من قناديل الجوهر، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مَنٍّ كلما مضت طائفة من البراهمة من عبادتهم حركوا الجرس، فتأتي طائفة أخرى، وعنده خزانة فيها عدة كثيرة من الأصنام الذهب والفضة وعليها الستور المرصعة بالجوهر. كل منها منسوب إلى عظيم من عظماء الهند، وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف دينار، فأخذ الجميع وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل، ثم ورد الخبر على يمين الدولة أن نهيم صاحب أنهلوارة قصد قلعة تسمّى كندهة، في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخًا، فسار يمين الدولة من سومنات، فلما حاذى القلعة رأى صيادين، فسألهم عن خوض البحر هناك، فقالوا إنه ممكن، ولكن إذا تحرك الهواء غرق من فيه، فاستعان بالله تعالى، وخاض هو ومن معه، فسلموا، فرأوا نهيم قد فارق القلعة، وأخلاها، فعاد عنها، وقصد المنصورة، وكان صاحبها قد

---

(١) في معجم البلدان لياقوت: دبوره: بكسر أوله وسكون ثانيه، وبعد الواو راء: من نواحي نيسابور.

(٢) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

ارتدَّ عن الإسلام، ففارقها واحتمى بغياض منيعة، فأحاط يمينُ الدّولة بتلك الغياض؛ فقتل أكثر من بها من الهند وغرق بعضهم ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار إلى بهاطية فأطاعه أهلها، فرحل إلى غزنة، فوصلها في عاشر صفر سنة سبع عشرة وأربعمائة، فكانت غيبته في هذه الغزوة ستة شهور.

ذكر ملكه الريّ وبلد الجبل

وفي سنة عشرين وأربعمائة سار يمين الدولة نحو الريّ، فانصرف منوجهر بن قابوس صاحب جرجان وطبرستان بين يديه، وحمل إليه أربعمائة ألف دينار، وكان مجد الدّولة بن فخر الدولة بن بُويه قد كاتب يمينَ الدولة يشكو إليه من جنده، وكان مُتشاغِلاً بالنساء، ومطالعة الكتب، ونسْخِها. وكانت أُمّه تدبّر المملكة، فلما ماتت طمع فيه الجند. قال: فلما وصلت كتبه إليه سيّر إليه جيشًا، وجعل المقدَّم علهيم حاجبه، وأمره بالقبض على مجد الدولة، فسار الحاجب بالعسكر، فلما وصل تلقاهم مجد الدولة، فقبض عليه الحاجب، وعلى ولده أبي دُلَف، فانتهى الخبر إلى يمين الدولة، فسار إلى الريّ، ودخلها في شهر ربيع الآخر، وأخذ من الأموال ألف ألف دينار، ومن الجواهر ما قيمته خمسُمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى قيمته، وأحضر مجد الدولة وسيَّره إلى خراسان. ثم ملك قزوين، وقلاعها، ومدينة ساوة(١)، وآوة(٢)، وياقت، وقبض على صاحبها، وسيره إلى خراسان. ولما ملك يمين الدولة الريّ، كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر أنه وجد لمجد الدولة من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأة ولدن له نيفًا وثلاثين ولدًا، وأنه لما سئل عن ذلك قال: «هذه عادة سلفي»، وصلب من أصحابه الباطنية خلقًا كثيرًا، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال، وأخذ ما سواها من الكتب، فكانت مائة حمل، وتحصَّن منوجهر بن قابوس بن وشمكير بجبال حصينة، فلم يشعر إلا وقد أطلّ يمين الدولة عليه، فهرب إلى غياض ملتفَّة حصينة، وبذل له خمسمائة ألف دينار، فأجابه يمينُ الدولة إلى ما

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الريّ وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخًا، وبقربها مدينة يقال لها آوة، فساوة سنية شافعية، وآوة أهلها شيعة إمامية... (معجم البلدان).

(٢) آوة: بفتحتين: قرية بين زنجان وهمذان؛ منها الشيخ الصالح الزاهد أبو عليّ الحسن بن أحمد بن يوسف الأوقي.

طلب. وقبض المال وسار عنه إلى نيسابور. ثم توفِّي منوجهر عقيب ذلك، ووُلّي بعده ابنه أنو شروان، فأقره محمود على ولايته، وقرَّر عليه خمسمائة ألف دينار أخرى، وخطب لمحمود في أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية. وخطب له بأصفهان، وعاد إلى خراسان، واستخلف بالريّ ابنه مسعود، فقصد أصفهان، وملكها من علاء الدولة. وعاد عنها واستخلف بها بعض أصحابه، فثار أهلها، فقتلوه، فعاد إليهم مسعود، فقتل منهم نحو خمسة آلاف قتيل. وسار إلى الريِّ فأقام بها. والله أعلم بالصواب.

ذكر ملك مسعود بن يمين الدولة محمود همذان

وفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة سيّر مسعود جيشًا إلى همذان، فملكها من نواب علاء الدولة بن بويه، وسار هو إلى أصفهان[1]، ففارقها علاء الدولة، فغنم مسعود ما كان له بها من دواب وسلاح وذخائر وغير ذلك، ثم عاد إلى بلاده.

ذكر غزوة للمسلمين بالهند

وفي هذه السنة غزا أحمد بن ينال تكين النائب عن محمود بن سُبكتكين ببلاد الهند مدينة برسى، وهي من أعظم مدن الهند، وكان معه نحو مائة ألف فارس وراجل، فشنّ الغارة على البلاد، ونهب وسبى، فلما وصل إلى المدينة، دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون يومًا كاملاً، ولم يفرغوا من سوق العطارين والجوهريين فحسب، وباقي أهل البلد لم يعلموا بذلك لأن طول البلد منزلة، وعرضه منزلة من منازل الهند، فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله، وبلغ من كثرة ما نهب المسلمون أنهم اقتسموا الذهب والفضة بالكيل، ولم يصل لهذه المدينة عسكر المسلمين قبله ولا بعده.

ذكر وفاة يمين الدولة محمود بن سُبكتكين وشيء من سيرته

كانت وفاته رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ومولده يوم عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة، فكان عمره إحدى وستين سنة وثلاثة أشهر

(١) أصفهان: هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان: اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاً جيا ثم صارت اليهودية... (معجم البلدان لياقوت).

تقريبًا، ومدة سلطنته ثلاثًا وثلاثين سنة وشهرين، وكان مرضه سوء مزاج وإسهال، وبقي كذلك نحو سنتين، وكان قوي النفس لم يضع جنبه في مرضه بل كان يستند إلى مخدته، وكان يجلس للناس طرفي النهار؛ ولم يزل كذلك حتى توفِّي قاعدًا، وكان عاقلاً ديِّنًا خيِّرًا عنده علم ومعرفة، وصُنِّف له كثير من الكتب في فنون العلوم، وقصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويصلهم، وكان عالي الهمة، قد ذكرنا من فتوحه وغزواته ما يستدل به على ذلك، ولم يكن فيه ما يعاب إلا طمعه في الأموال، فكان يتحيَّل على أخذها بكل طريق، وهو الذي جدّد المشهد بطوس[١] الذي فيه قبر علي بن موسى الرضا، والرشيد، وكان أبوه قد أخربه. قال: وكان يمين الدولة رُبْعة القامة، حسن الوجه، صغير العينين، أحمر الشعر.

ذكر سلطنة محمد بن محمود

وهو الرابع من ملوك الدولة الغزنوية. ملك بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة بوصية من أبيه. قال: وهو أصغر من أخيه مسعود، وكان عند وفاة أبيه ببلخ، فخطب له من أقاصي الهند إلى نيسابور، ولقِّب جلال الدولة، فأرسل إلى أعيان الدولة يستدعونه، ويحثونه على الوصول إليهم، ويخوفونه من أخيه مسعود، فسار إلى غزنة، فوصلها بعد وفاة أبيه بأربعين يومًا، واجتمعت العساكر على طاعته، ففرق فيهم الأموال.

ذكر خلع جلال الدولة محمد وملك أخيه مسعود بن محمود

كان سبب ذلك أن يمين الدولة لما توفي كان ابنه مسعود بأصفهان، فكتب إلى أخيه محمد يقول له: إنني راضٍ بما أوصى لي به أبي، وبما فتحته من بلاد طبرستان والجبال وأصفهان وغيرهما، وطلب منه الموافقة وأن يقدمه في الخطبة على نفسه، فأجابه بجواب غير مرضي، فسار مسعود إلى الريّ وأحسن إلى أهلها، ثم سار إلى نيسابور[٢] وفعل مثل ذلك. وأما محمد فإنه استخلف عساكره، وجعل عمه يوسف

(١) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية فتحت في أيام عثمان بن عفان... (معجم البلدان).

(٢) نيسابور: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ونبع العلماء لم يرَ ياقوت الحموي فيما طوف من البلدان مدينة كانت مثلها كما يقول في معجمه.

على مقدمة جيشه، وسار إلى مسعود. وكان بعض عسكر محمد يميل إلى مسعود لشجاعته، وبعضهم يخشى سطوته، فلما همّ محمد بالركوب من داره وقعت قلنسوته[١] من رأسه، فتطيّر الناس من ذلك، وسار إلى أن وصل إلى تكينا باد[٢] في مستهل شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين، وأقام بها إلى أن عيّد. فلما كان ليلة الثلاثاء ثالث شوال ثار به جنده، فأخذوه وحبسوه ونادوا بشعار مسعود، وكان الذي سعى في ذلك ورتّبه خشَاوند الحاجب باتفاق ومساعدة من عمه يوسف، وأرسلوا إلى مسعود فحضر، والتقته العساكر إلى هراة[٣]. وسلّموا إليه الأمر، فكان أول ما بدأ به أن قبض على الحاجب وقتله، ثم قبض بعد ذلك على عمه يوسف، ثم على جماعة من أعيان القواد في أوقات متفرقة. وكان اجتماع الملك له، واتفاق الكلمة عليه في ذي القعدة من السنة، ووصل إلى غزنة في ثاني جُمادى الآخرة سنة اثنين وعشرين وأربعمائة، وأتته بها رسل الملك من سائر الأقطار، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند، وسجستان وكرمان، ومكران، والريّ، وأصفهان، وبلد الجبل، وغير ذلك، وعظم سلطانه، وخيف جانبه.

ذكر مسيره إلى الهند وما فتحه بها

وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة بلغ السلطان مسعود أنَّ أحمد نيالتكين النائب بالهند خرج عن طاعته واستولى على البلاد، فسار إلى الهند، وعاد النائب إلى الطاعة، وفتح في سفرته هذه قلعة سرستي وهي من أحصن القلاع، وكان تعذَّر فتحَها على أبيه، ففتحها في سنة خمس وعشرين. ثم سار إلى قلعة مقسى، فوصل إليها في عاشر صفر، وحصرها ووالى الحصار، فخرجت عجوز ساحرة، فتكلمت باللسان الهندي طويلاً، وأخذت مكنسة فبلتها بالماء، ورشت به إلى جهة العسكر، فمرض مسعود واشتد به المرض، فرحل عن البلد فصح وعاد إلى غزنة.

ذكر مخالفة نيالتكين النائب بالهند ومقتله

وفي سنة ست وعشرين وأربعمائة خالف أحمد نيالتكين النائبُ بالهند على السلطان مسعود، ونزع يده من الطاعة، وأظهر العِصيان، فسيّر إليه مسعود جيشًا كثيفًا فقاتلهم، وانهزم منهم، وقصد بعض ملوك الهند «ببهاطيه»، ومعه جمع كثير من

(١) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.
(٢) تكينا باد: مدينة كانت بموضع قندهار الحالية بأفغانستان. . . (تاريخ البيهقي).
(٣) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. . . (معجم البلدان).

عساكره الذين سلِموا، وطلب منه سفنًا ليعبر بهم السند[١]، فأحضر إليه السفن، وأمرهم أن يلقوه في جزيرة في وسط النهر، فألقَوه بها وهو يظن أنها متّصلة بالبر، فأقام بها تسعة أيام إلى أن نفدت أزوادهم، وأكلوا دوابّهم، وعجزوا عن خوض الماء لعمقه، فعبر الهندي إليهم في السفن وقَتَل وأسر، فعندها قتل أحمدُ نفسه، واستوعب أصحابه القتل والأسر.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة. التقى الملك مسعود والسلجقية ببلاد خراسان، ووقع بينهم حروب كان الظفر فيها لمسعود، وفتح قلعة خراسان، وأخرج طغرلبك من بلاد خراسان إلى البرية، وكان آخر الحرب بينهم في سنة إحدى وثلاثين.

ذكر القبض على السلطان وقتله وشيء من سيرته

وفي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة في شهر ربيع الأول جهّز السلطان ولده مودودًا إلى خراسان في جيش كثيف، لردّ السلجوقية عنها، وسار مسعود بعد ذلك بسبعة أيام إلى بلاد الهند ليشتي بها على عادة والده، واستصحب معه أخاه محمدًا وكان قد سمله، فلما عبر سيحون، وعبر بعضُ الخزائن جمع أنوشتكين البلخي الخصي الغلمان الداريّة، ونهبوا ما تخلف من الخزائن، وأقاموا أخاه محمدًا، وقاتلوا مسعودًا، فانهزم وتصحّن في بعض الحصون، فحصره أخوه محمد، فقالت له أُمه: إن هذا المكان لا يعصمك، ولأن تخرج إليهم بعهد خير لك من أن يأْخذوك قهرًا، فخرج إليهم، فقال له أخوه: والله لا قاتلتك بفعلك، ولكن اختر لنفسك جهة تكون فيها بحريمك وأولادِك، فاختار قلعة كيدى، فأنفذه إليها، وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالاً ينفقه، فأعطاه خمسمائة درهم، فبكى وقال: بالأمس وحكمي على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن، واليوم لا أملك ألفَ درهم، فأعطاه الرسول ألف دينار فقبلها، ثم اتفق أحمد ابن السلطان محمد، وابن عمه يوسف، وابن علي خشاوند على قتل مسعود فدخلوا عليه، وقتلوه فأنكر محمد ذلك، وساءه، فكانت مدة سلطنةُ مسعود عشر سنين وخمسة شهور تقريبًا، وكان شجاعًا كريمًا ذا فضائل كثيرة، يحب العلماء ويحسن إليهم، ويتقرب إلى خواطرهم، وصنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلوم، وكان كثير الصدقة، تصدَّق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأكثر الإدْرَارات

---

(١) السند: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره دال مهملة: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان.. وقصبة السند: مدينة يقال لها المنصورة، ومن مدنها ديبل، وهي على ضفة بحر الهند والتيز... (معجم البلدان).

والصَّلات، وعمّر كثيرًا من المساجد في ممالكه، وكان عفيفًا عن أموال الناس، كان يحب الشعر ويجيز الشعراء، أعطى شاعرًا ألف دينار، وأجاز آخر عن كل بيت ألف درهم.

ذكر سلطنة جلال الدولة محمد بن محمود السلطنة الثانية وقتله

ملك ثانيًا عند انهزام أخيه مسعود في ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وكان أخوه قد سمله، ولما طلب للولاية امتنع من قبولها، فتهدده القواد بالقتل فأجاب، وفوّض الأمر إلى ولده أحمد، وكان فيه هَوَج[1]، فقتل عمه مسعودًا، وقيل: إن مسعودًا لما حبس دخل عليه عبد الرحمٰن وعبد الرحيم أولاد محمد، فأخذ عبد الرحمٰن القلنسوة من على رأس عمه مسعود، فأخذها عبد الرحيم من يده، وأنكر عليه، وقبلها ووضعها على رأس عمه مسعود، وكان ذلك سبب سلامته.

قال: وكتب السلطان محمد إلى مودود ابن أخيه مسعود يقول له: إن والدك قتل قصاصًا، قتله أولاد أحمد نيالتكين بغير رضاي، فأجابه مودود من خراسان يقول: أطال الله بقاء الأمير، ورزق ولده المعتوه عقلاً يعيش به، فقد ركب أمرًا عظيمًا، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي الذي لَقبه أمير المؤمنين سيِّد الملوك والسلاطين، وستعلمون في أي حتف تورّطتم وأيّ شر تأبّطتم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ثم كتب شعرًا: [من الطويل]

نُفَلِّقُ هامًا من كرامٍ أعزّة ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[2]

قال: وطمع الجند في محمد، ونقصت هيبة الملك، فمدوا أيديهم إلى أموال الرعايا ونهبوها، فخربت البلاد، فكان المملوك يباع في بعض المدن بدينار، والخمر تباع كل مَنٍّ بدينار. قال: وسار مودود بن مسعود من خراسان إلى غزنة، وعاد عمه

---

(١) الهوج: الحمق والطيش.

(٢) الهام: جمع هامة وهي الرأس.. والمراد: بدؤونا بالظلم على إعزازنا إياهم. وهذا البيت من شعر الحصين بن الحمام المري.. ويعد من أوفياء العرب، وكان سيد قومه، وكان يقال له «مانع الضيم».

محمد والتقيا، فانهزم محمد وعسكره وقبض عليه وعلى ولده أحمد، فقتلهما مودود في شعبان سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فكانت مدة سلطنة محمد الأولى سبعة أشهر، والثانية أربعة أشهر وأيامًا.

ذكر سلطنة مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين

وهو السادس من ملوك الدولة الغزنوية. كان ملكه بعد انهزام عمه جلال الدولة محمد. قال: ولما التقوا وانهزم محمد وعسكره، ثم قبض عليه وعلى أولاده وأنوشتكين البلخي الخصي وابن علي خشاوند، فقتلهم مودود، ولَمْ يترك منهم إلا عبد الرحيم ابن عمه بن محمد لإنكاره على أخيه، أخذ القلنسوة من رأس مسعود، وبنى مودود في موضع الوقعة قريةً ورباطًا وسمّاها «فتح أباد»، وقتل من كان له تسبب في القبض على أبيه، ودخل غزنة في الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، واستوزر أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد وزير أبيه، وأظهر العدل، وأحسن السيرة، وسلك سيرة جده محمود بن سبكتكين.

ذكر مخالفة محمود بن مسعود على أخيه مودود، ووفاة محمود

كان مسعود قد جهّز ابنه محمودًا إلى بلاد الهند في سنة ست وعشرين وأربعمائة، فبلغه خبر وفاة أبيه، وما آل الأمر إليه من سلطنة أخيه، وكان قد فتح لهاوور[١]، وملتان، فأخذ الأموال، وأظهر الخلاف على أخيه مودود، فاضطرب لذلك، وجهز جيشًا لمنعه، فعرض محمود العساكر، وأنفق فيهم الأموال ليأخذ البلاد من أخيه مودود وعيَّد عيد الأضحى، وأقام بعده ثلاثة أيام، وأصبح ميتًا بلهاوور، فما عرف ما كان سبب وفاته، فعند ذلك ثبت قدم مودود في الملك، وراسلته الملوك وخافته، وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ملك مودود عدة من حصون الهند، فراسله ملوكها وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر وفاة مودود
وملك ولده، ثم أخيه علي بن مسعود، ثم عبد الرشيد

وفي العشرين من شهر رجب الفرد، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة كانت وفاة مودود وعمره تسع وعشرون سنة، ومدة ملكه تسع سنين وأحد عشر شهرًا، وكانت

---

(١) لهاور (كما في معجم البلدان لياقوت): هي مدينة عظيمة مشهورة في بلاد الهند.

وفاته بغزنة، وعلَّته القُولَنج[١]، وملك بعده ولده، فبقي في الملك خمسة أيام، ثم عدل الناس عنه إلى عمّه علي بن مسعود، وكان مودود لما ملك قبض على عمِّه عبد الرشيد بن محمود، واعتقله بقلعة مندين بطريق بست، فلما توفي مودود كان وزيره قد قارب القلعة بعساكر جردها مودود معه لقتال السلجقية، فنزل عبد الرشيد من القلعة إلى العسكر، ودعاهم إلى طاعته، فأجابوه، وسار بهم إلى غزنة، فهرب عليّ بن مسعود، وملك عبد الرشيد، ولقب شمس الله سيف الدولة، وقيل جمال الدولة.

ذكر مقتل عبد الرشيد

كان مقتله في سنة أربع وأربعين وأربعمائة؛ وسبب ذلك: أن طغرل الحاجب كان مودود قد نَوّه بذكره، وقدّمه وزوّجه أُخته، فلما توفي مودود، وملك عبد الرشيد استمر به على ما كان عليه، وجعله حاجب حجّابه، فأشار طغرل على عبد الرشيد بقصد الغز، وإخراجهم من خراسان، فتوقف استبعادًا لذلك، فلم يزل به حتى جهز معه ألف فارس، فسار نحو سجستان[٢]، وبها أبو الفضل نائبًا عن بيغو، فحاصر قلعة طاق أربعين يومًا، فلم يتهيأ له أن يملكها، فسار نحو مدينة سجستان، فاتصل خبره ببيغو، فخرج في عساكره إليه، فلما رآه بيغو استقلَّ من معه، فسيَّر إليه طائفة من أصحابه، فلم يعرِّج طغرل عليهم، بل اقتحم هو ومن معه نهرًا هناك، وحمل على بيغو، وقاتله فهزمه، ثم عطف طغرل على تلك الطائفة التي كانت خرجت لقتاله، فهزمهم، وغنم ما معهم، وانهزم بيغو إلى هراة، ودخل طغرل الحاجب سجستان، وملكها، وكتب إلى عبد الرشيد يعلمه بذلك ويستمده ليسير إلى خراسان، فأمده بعدَّة كثيرة من العساكر، فاشتد أمره بهم، وحدث نفسه بالاستيلاء على غزنة، فأحسن إلى من معه، واستمالهم فمالوا إليه، فاستوثق منهم ورجع بهم إلى غزنة، فلما صار على خمسة فراسخ منها كتب إلى عبد الرشيد يعلمه أن العسكر خالفه، وطلبوا الزيادة في العطاء، وأنهم عادوا بقلوب متغيِّرة، فلما وقف على ذلك جمع أصحابه، واستشارهم، فحذَّروه من طغرل، وقالوا: إن الأمر قد أعجل عن الاستعداد، وليس

---

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

(٢) سجستان: بكسر أوله وثانيه، وسين أخرى مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة، بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملة سبخة... (معجم البلدان).

إلا الصّعود إلى القلعة، والتحصّن بها، فتحصن بقلعة غزنة، وعبر طغرل غزنة، واستولى عليها وجلس بدار الإمارة، وأرسل إلى من بالقلعة يتهددهم إن لم يسلموا إليه عبد الرشيد، فسلَّموه له، فقتله، واستولى على القلعة، وتزوّج ابنة السلطان مسعود كرهًا، وكان في أعمال الهند أمين يسمّى خزخير بعساكر كثيرة، فأرسل إليه طغرل، واستدعاه للموافقة والمساعدة على إخراج الغز من الأعمال، ووعده وبذل له الرغائب، فلم يرض خزخير فعله، وأنكر عليه وأغلظ له في الجواب، وكتب إلى زوجة طغرل ابنة السلطان مسعود، وإلى وجوه القوّاد يقبّح عليهم موافقتهم، وصبرهم على قتل ملكهم، فعبروا على طغرل، وقتلوه.

ذكر ملك فرخ زاد بن مسعود بن محمود بن سُبكتكين

وهو العاشر من ملوك الدولة الغزنوية. مَلَك بعد مقتل طغرل الحاجب المستولي على مُلك عبد الرشيد، وكان سببُ ملكه أنه لما قتل طغرل وصل خزخير بعد مقتله بخمسة أيام إلى غزنة، وأظهر الحزنَ على عبد الرشيد، واستشار الأمراء فيمن يلي الأمر، فأشاروا بولاية فرّخ زاد، وكان معتقلاً في بعض القلاع فأحضروه، وأجلس بدار الإمارة ودبر خزخير الأمر بين يديه، وقتل من أعان على قتل عبد الرشيد. قال: ولما بلغ داود السلجقي أخا طغرلبك صاحب خراسان قتل عبد الرشيد جميع عساكره، سار إلى غزنة، فخرج إليه خزخير، وقاتله فانهزم داود، وغنم ما كان معه، وفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة ثار مماليك فرخ زاد به، وقصدوا قتله وهو في الحمام، فمانع عن نفسه بسيف كان معه، فأدركه أصحابه وخلصوه وقتلوا أولئك الغلمان، واستمر ملكه إلى سنة إحدى وخمسين، وكان بعد هذه الوقعة يُكثِر من ذكر الموت ويحتقر الدنيا ويزدريها، فلما كان في هذ السنة أصابه قُولَنج، فمات.

ذكر ملك إبراهيم بن مسعود بن محمود

وهو الحادي عشر من ملوكهم، ملك بعد وفاة أخيه فرّخ زاد في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة فأحسن السيرة، واستعد لجهاد الهند، واستقر الصلح بينه وبين جعري بك داود السلجقي صاحب خراسان على أن يكون لكل واحد منهما ما بيده، وترك منازعة الآخر في ملكه.

ذكر غزو إبراهيم بلاد الهند وما فتحه منها

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا بلاد الهند، ففتح قلعة أجود، وهي على مائة وعشرين فرسخًا من لهاوور، وهي حصينة تحوي عشرة آلاف مقاتل، فحصرها

وداوم الزحف، فملكها في الحادي والعشرين من صفر، وفتح غيرها من الحصون في هذه السنة. فمن ذلك قلعة رومال، وموضع يقال له: «دره نوره»، وكان به أقوام من الخراسانية جعل أجدادهم فيه فراسياب التركي، ولم يعترضهم أحد من الملوك، فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا عليه، وقاتلوه، فظفر بهم وأكثر فيهم القتل، وتفرق من سلم منهم في البلاد، وسبى من النساء والصبيان مائة ألف، وفي هذه القلعة حوض قطره نصف فرسخ[١] لا يدرك قعره، يشرب منه أهل القلعة ودوابهم، ولا يظهر فيه نقص وفتح «دَرَة»[٢] وهي بين جبلين والسبيل إليها متعذر، فوصلها في جُمادى الأولى، وأقام بها ثلاثة أشهر، وافتتحها وعاد إلى غزنة.

ذكر وفاة إبراهيم وشيء من سيرته

كانت وفاته في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وكانت مدة ملكه تزيد على ثلاثين سنة، وكان عادلاً كريمًا مجاهدًا، وكان ذا رأي سديد، فمِن رأيه أن السلطان ملكشاه السلجقي قصد غزنة بعساكره وجنوده، فلما علم إبراهيم عجزه عنه كتب إلى جماعة من أمرائه يشكرهم، ويعدهم الجميل على تحسينهم لصاحبهم، قصد بلاده ليتم له ما اتفقوا عليه من قبضه، وأمر القاصد أن يتعرض إلى ملكشاه، فتعرض له، فأنكره ملكشاه، وقبض عليه وقرره بالضرب، فأعطاه الكتُبَ بعد امتناع، فعاد من طريقه، وكتم ذلك عن أمرائه خوفًا من الخلاف عليه. وكان يكتب بخطّه في كل سنة مصحفًا، ويبعثه إلى مكة مع الصدقات والصِّلات، ولما مات ملك بعده ابنه.

ذكر ملك علاء الدولة
أبي سعد جلال الدين مسعود بن إبراهيم

وهو الثاني عشر من ملوك الدولة الغزنوية. ملك غزنة وما معها بعد وفاة إبراهيم أبيه في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وهو زوج ابنة السلطان ملكشاه السلجقي، واستمر ملكه إلى سنة ثمان وخمسمائة فتوفي في شوال منها بغزنة، ولم أظفر بشيء من أخباره فأورده، ولما مات ملك بعده ولده.

---

(١) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول، يقدر بثلاثة أميال.

(٢) درة: بلد بين هراة وسجستان، وهي آخر عمل هراة، ومن هراة إلى أسفزار ثلاث مراحل، ومن أسفزار إلى درة مرحلتان، ومن درة إلى سجستان سبعة أيام... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ملك أرسلان شاه ابن علاء الدولة مسعود

وهو الثالث عشر من ملوك الدولة الغزنوية، وأمه سلجقية وهي أخت السلطان ألب أرسِلان ملك بعد وفاة أبيه في شوال سنة ثمان وخمسمائة ولما ملك قبض على إخوته وسجنهم، فهرب أخٌ له اسمه بهرام شاه إلى خراسان، فوصل إلى السلطان سنجر ابن ملك شاه، فأرسل إلى أرسلان شاه في معناه، فلم يجبه، فأعد السير وقصد غزنة، ومعه بهرام شاه والتقى هو وسنجر بن ملكشاه على فرسخ من غزنة بصحراء شهراباذ، وكان أرسلان شاه في ثلاثين ألفًا ومعه مائة وستون فيلاً، فكادت الهزيمة تكون على سنجر ثم كانت على أرسلان شاه، وتسلَّم السلطان سنجر قلعة البلد، وكان أرسلان شاه قد اعتقل أخاه طاهرًا بالقلعة الكبيرة التي بينها وبين غزنة تسعة فراسخ، وهي عظيمة لا يطمع فيها ولا طريق عليها، واعتقل بها أيضًا زوجة بهرام شاه، فلما انهزم أرسلان شاه استال أخوه بهرام شاه طاهرًا المتحفظ بها حتى سلّم القلعة للملك سنجر، وكان قد تقرر بين السلطان سنجر وبهرام شاه أن يجلس بهرام شاه على سرير جده محمود بن سُبكتكين وجده، وأن الخطبة بغزنة للخليفة، ثم للسلطان محمد بن ملكشاه، والملك سنجر، وبعدهم لبهرام شاه، فلما دخلوا غزنة كان سنجر راكبًا، وبهرام شاه راجلاً بين يديه حتى جاء إلى السرير، فصعد بهرام شاه إليه، وجلس ورجع سنجر، وكان يخطب له بالملك، ولبهرام شاه بالسلطان على عادة آبائه، وحصل لسنجر من الأموال ما لا يحد، وكان على حيطان دور ملوك غزنة ألواح الفضة، وسواقي المياه إلى البساتين من الفضة، فقلع أصحاب سنجر كثيرًا من ذلك، فمنعهم سنجر، وصلب جماعة منهم، وأقام بغزنة أربعين يومًا، وهو أول سلجقي خطب له بغزنة، وعاد إلى خراسان.

ذكر ملك بهرام شاه ابن مسعود بن إبراهيم

وهو الرابع عشر من ملوك الدولة الغزنوية. ملك غزنة عند انهزام أخيه أرسلان شاه لعشر بقين من شوال سنة عشر وخمسمائة، وأما أرسلان شاه فإنه لما انهزم قصد هند وخان، واجتمع معه أصحابه، فلما عاد الملك سنجر إلى خراسان توجه إلى غزنة، ففارقها بهرام شاه إلى بامِيان[1]، وأرسل إلى الملك سنجر يعلمه الحال، فأمده بجيش، وأقام أرسلان شاه بغزنة شهرًا، وسار في طلب بهرام شاه فبلغه وصول عسكر

---

(١) باميان: بكسر الجيم، وياء، وألف، ونون: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة؛ بها قلعة حصينة، والقصبة صغيرة، والمملكة واسعة؛ بينها وبين بلخ عشر مراحل... (معجم ياقوت).

سنجر، فانهزم بغير قتال، للخوف الذي وقع في قلوب أصحابه، ولحق بجبال أوغان، فسار بهرام شاه في طلبه بعسكر سنجر، وضايقوا البلاد التي هو فيها وأخربوها، وتهددوا أهلها، فسلموه إليهم، فخنقه أخوه بهرام شاه، ودفنه بغزنة بتربة أبيه، وكان قتله في جُمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وعمره سبعًا وعشرين سنة، استقر بهرام شاه في الملك، وكان بينه وبين الملوك الغورية من الوقائع ما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة بهرام شاه

كانت وفاته في شهر رجب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، فكانت ولايته ستًا وثلاثين سنة، وكان عادلاً حسن السيرة جميل الطريقة يحب العلماء ويكرمهم، ويبذل لهم الأموال الكثيرة، ولما مات ملك بعده ولده.

ذكر ملك نظام الدين خسرو شاه ابن بهرام شاه ابن مسعود

وهو الخمس عشر من ملوك الدولة الغزنوية، ملك غزنة بعد وفاة والده في شهر رجب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في رعيته محبًا للخير وأهله يقرب العلماء، ويحسن إليهم ويرجع إلى أقوالهم ويقتدي بآرائهم، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وكانت مدة ملكه سبع سنين وقيل إنه عاش إلى سنة تسع وتسعين. وأن الدولة انقرضت باعتقاله، لما مات ملك بعده ولده.

ذكر ملك ملكشاه بن خسرو شاه ابن مسعود ابن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبكتكين

وهو السادس عشر من ملوك الدولة الغزنوية، وعليه انقرضت دولتهم. ملك غزنة بعد وفاة والده في شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ولما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور إلى غزنة، وكان له مع ملكشاه ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الغورية. وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة قصد الأتراك الغزية بلاد غزنة ونهبوا وخربوا، وقصدوا مدينة غزنة، ففارقها ملكشاه إلى لهاوور وملكها الغزية، وكان القيّم بأمرهم زنكي بن علي بن خليفة الشيباني، ثم جمع ملكشاه العساكر، وعاد إلى غزنة، ودخلها في جُمادى الآخرة سنة تسع وخمسين،

وتمكن في دار ملكه إلى أن ظهر أمر الملوك الغورية، فانقرضت الدولة الغزنوية على يد الملوك الغورية.

وذكر ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل أن دولتهم انقرضت في أيام خسرو شاه ابن بهرام شاه والد ملكشاه، وأن خسرو شاه لما ملك الغورية غزنة سار إلى لهاوور، فحاصره شهاب الدين الغوري بها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وشدّد الحصار عليه، وبذل له الأمان على أن لا يطأ بساطه، وأن شهاب الدين يجعل لخسرو شاه مهما اختار من الإقطاع، ويزوجه ابنته، فاستحلفه على ذلك ومكنه من لهاوور، واجتمع به، فأكرمه وعظّمه، وبقي كذلك مدة شهرين، فورد رسول غياث الدين الغوري إلى أخيه شهاب الدين وهو يستدعي خسرو شاه وولده إليه، فأعلمه بذلك، فامتنع، فمنّاه شهاب الدين، وطيّب خاطره، ثم جهّزه هو وابنه إلى غياث الدين، فسارا على كره، فلما وصلا إليه رفعهما إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد بهما. وانقرضت الدولة الغزنوية.

وكان ابتداؤها في سنة ست وستين وثلاثمائة، وانقرضت في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فتكون مدتها مائتي سنة وثلاثة عشر سنة تقريبًا، وعدة ملوك هذه الدولة ستة عشر ملكًا، وهم ناصر الدولة سُبكتكين، ثم ولده يمين الدولة محمود بن سُبكتكين، ثم ولده محمد ولي مرَّتين، ثم أخوه مسعود بن محمود، ثم مودود بن مسعود بعد عمه محمد في السلطنة الثانية، ثم ولّي ولدٌ لمودود خمسة أيام. ثم علي بن مسعود، ولم تطل مدته أيضًا، ثم عبد الرشيد بن محمود بن سُبكتكين، ثم فرّخ زاد، ثم أخوه إبراهيم بن مسعود، ثم ابنه علاء الدولة أبو سعد جلال الدين بن مسعود، ثم ابنه أرسلان شاه، ثم أخوه بهرام شاه، ثم ابنه خسرو شاه، ثم ابنه ملكشاه، وعليه انقرضت دولتهم، وكانت هذه الدولة من أحسن الدول وأكثرها جهادًا وفتوحًا، وقد ذكرنا من أخبار ملوكها ما يُستدَلّ به على بعد هممهم، وتمكن سلطانهم.

ذكر أخبار الدولة الغورية

كان ابتداء هذه الدولة ببلاد الغُور[١] في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم أزالت ملوك الدولة الغزنوية آل سُبكتكين عن غزنة، وملكوا بعض بلاد الهند، وأول

---

(١) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة، وهي بلاد واسعة موحشة.

من نبغ منهم وظهر اسمه الحسين بن الحسين بن الحسن. وكان قد ملك قبله بلاد الغور محمد بن الحسين، وكن قد صاهر بهرام شاه صاحب غزنة، فعظم شأنه بمصاهرته وعلت همته، فجمع جموعًا كثيرة، وسار إلى غزنة ليملكها، وأظهر الخدمة والزيارة لبهرام شاه وهو يريد المكر فعلم به بهرام شاه، فقبض عليه وسجنه ثم قتله، فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الأخذ بثأره لتمكن الدولة الغزنوية، ثم ملك بعد محمد أخوه سام بن الحسين، فمات بالجُدري، وملك بعده أخوه سورى بن الحسين بلاد الغور، وقوي أمره، وتمكن في مملكته، فجمع العساكر، وسار إلى غزنة طالبًا لثأر أخيه محمد، فلما وصل إليها وملكها في جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند، وجمع جموعًا كثيرة، وعاد إلى غزنة، وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى قلوبهم مع بهرام شاه، فلما التقوا انضم عسكر غزنة إلى بهرام، وسلّموا إليه سورى وذلك في المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فصلبه بهرام شاه، وكان سورى هذا من الملوك الأجواد الكرام، حتى إنه كان يرمي الدراهم بالمقاليع ليتوصّل بذلك إلى راحة الفقراء، ثم ملك بعده أخوه الحسين بن الحسين هذا بلاد الغور ومدينتها فِيرِوزكُوه[١]، فسار في سنة خمس وأربعين إلى مدينة هراة وحصرها، وكان أهلها قد كاتبوه، وطلبوه ليسلموها له هربًا من ظلم الأتراك، فلما حاصرها امتنع أهلها عليه ثلاثة أيام، ثم سلموها له، فدخلها، وأظهر طاعة السلطان سنجر بن ملكشاه السلجقي.

ذكر الحرب بينه وبين السلطان سنجر

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة كانت الحرب بين علاء الدين الحسين صاحب الغور وبين السلطان سنجر السلجقي؛ وسبب ذلك أن علاء الدين هذا قوي أمره، وكثرت أتباعه، وتلَفت وتعرّض إلى أعمال غزنة، وسار إلى بلخ، فملكها، فسار إليه السلطان سنجر فثبت له، واقتتلوا، فانهزمت الغُوريّة، وأسر علاء الدين، وقتل من أصحابه خلق كثير، وأحضر بين يدي السلطان، فقال له: يا حسين لو ظفرتَ بي ما كنت تصنع؟ فأخرج له قيدًا من الفضة، فقال له: كنتُ أقيِّدك بهذا، وأحملك إلى مدينة فيروزكوه. فخلع السلطان عليه، ورده إلى فيروزكوه.

---

(١) فيروزكوه: هذا معناه الجبل الأزرق: وهي قلعة عظيمة حصينة في جبال غورشستان بين هراة وغزنة وهي دار مملكة من يتملك تلك النواحي... وفيروزكوه: قلعة في بلاد طبرستان قرب دنباوند مشرفة على بلدة يقال لها ويمة... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ملكه غزنة، وخروجه عنها، وقتل أخيه

قال: ولما أطلقه السلطان سنجر أقام بفيروزكوه مدة حتى اجتمع له أصحابه، وأصلح ما تشعّث من حال عسكره وقصد غزنة، وملكها يوم ذاك بهرام شاه، فلم يثبت له وفارقها إلى مدينة كرمان. وهي مدينة بين غزنة والهند، وليست كرمان المشهورة بل غيرها، وملك علاء الدين غزنة، وأحسن السيرة في أهلها، واستعمل عليهم أخاه سيف الدين، وأجلسه على تخت المملكة، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده، ثم عاد علاء الدين إلى بلد الغُور، وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خِلَعًا نفيسة، ويصِلَهم بصلاتٍ سنية، ففعل ذلك وأحسن إليهم، فلما جاء الشتاء ووقع الثلج، وعلم أهل غزنة أن الطريق قد انقطع بينهم، وبين الغُور كاتبوا بهرام شاه واستدعوه، فسار نحوهم في عسكره، فلما قارب البلد ثار أهلها على سيف الدين، فأخذوه بغير قتال، وانهزم من كان معه، فمنهم من نجا ومنهم من أخذ، ثم سوّدوا وجه سيف الدين، وأركبوه بقرة، وطافوا به البلد، ثم صلبوه، وهجوه بالأشعار، وغنى بها حتى النساء، ثم توفّي بهرام شاه، وملك بعده ابنه خسرو شاه، فتجهز علاء الدين إلى غزنة في سنة خمسين وخمسمائة، فسار خسرو شاه إلى لهاوور وملك علاء الدين البلد، ونهبها ثلاثة أيام، وأخذ الذين أسروا أخاه، وهم من العلويين، فألقاهم من شواهق الجبال، وأخرب المحلَّة التي صُلِب فيها أخوه، وأخذ النساء الذين تغنَّين بهجو أخيه، فأدخلهن حمامًا، ومنعهن الخروج حتى متن فيه، وأقم بغزنة حتى أصلحها، ثم عاد إلى فيروزكوه، ونقل معه من أهل غزنة خلقًا كثيرًا، وحملهم المخالي مملوءة ترابًا، فبنى قلعة فيروزكوه وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السجلقية.

ذكر خروج غياث الدين وشهاب الدين ابني أخي علاء الدين الحسين على عمهما وموافقته

قال: لما قوي أمر عمهما علاء الدين استعمل العمال والأمراء على البلاد، فكان ممن استعمل غياث الدين أبو الفتح محمد، وأخوه شهاب الدين أبو المظفَر محمد ابنا سام، على بلد من بلاد الغور، فأحسنا السيرة في أعمالها، واستمالا قلوب الناس، فانتشر ذكرهما، فسعى بهما إلى عمِّهما من حسدهما، وأوهمه أنهما يريدان الوثوب به، وقتلَه، والاستيلاءِ على مُلكه، فأرسل يستدعيهما فامتنعا، وكانا قد علما الخبر، فجهز إليهما عسكرًا مع قائد من قوّاده، فلما التقَوْا انهزم عسكر عمِّهما، وأسر القائد فأبقيا عليه، وأحسنا إليه، وأظهر العصيان على عمهما، وقطعا خطبه، فتوجه

إليهما وسارا إليه، والتَقوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم عسكر علاء الدين، وأخذ أسيرًا، فأجلساه على التخت، ووقفا في خدمته، ونادوا في عسكره بالأمان، فبكى عند ذلك، وقال: هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم أفعله، وأحضر القاضي، وزوج غياث الدين بنتًا له، وجعل ولي عهده بعده، وبقي كذلك إلى أن مات، وكان وفاته في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملك سيف الدين محمد بن علاء الدين الحسين بن الحسين

وهو الثاني من الملوك الغورية. ملك بعد وفاة أبيه، وأطاعه الناس، وراسل الملوك وهاداهم، واستمرَّ إلى أن قتل في شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وذلك أنه جمع عساكره وحشد فأكثر وسار من جبال الغور يريد الغُزَ، وهو ببلخ فاجتمعوا له وتقدّموا إليه، واتفق أنه خرج جريدة في جماعة من خاصته، فسمع به الغز فركبوا وأوقعوا به فقتل.

وكان ملكًا عادلاً حسن السيرة، فمن ذلك أنه لما ملك هراة أراد عسكره نهبها، فنزل على درب المدينة، وأحضر الأموال والثياب، وفرقها في عسكره، وقال: هذا خير لكم من نهب أموال الناس، فإن المَلِك يبقي على الكفر ولا يبقي على الظلم. رحمه الله تعالى.

ذكر ملك غياث الدين أبي الفتح محمد بن بسام ابن الحسين بن الحسن

وهو الثالث من الملوك الغورية. كان استقلاله بالمُلك بعد وفاة ابن عمه سيف الدين في شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخطب له في الغور، وغزنة، ثم ملك الغز غزنة منه، وبقيت بأيديهم خمسة عشر سنة يصبون على أهلها العذاب، ويتابعون الظلم، هذا وغياث الدين يحسن السيرة في رعيته، والناس يشكون إليه حالهم، وهو يدبر ملكه إلى أن قوي أمره، وكثرت أتباعه، واشتد بأسه.

ذكر ملك غياث الدين غزنة

قال: ولما قوي أمر غياث الدين، وتمكن في ملكه، وزاد طغيان الغز، وأذاهم للناس، جهز جيشًا كثيفًا مع أخيه شهاب الدين إلى غزنة، وفيه أصناف الغورية، والخراسانية، والخُلج، فساروا إليها، فلقيهم الغز واقتتلوا، فانهزمت الغورية أولاً، ثم

كانت الدائرة على الغز، فقتل أكثرهم، ودخل شهاب الدين غزنة، وتسلمها وأحسن السيرة في أهلها، وأفاض العدل، وسار منها إلى كِرمان، وسوران[١]، فملكها، ثم تعدى بعد ذلك إلى السند، وقصد العبور، إلى بلد[٢]، وملك لهاوور، وملكها يومئذ خسرو شاه ابن بهرام شاه، فسار فيمن معه إلى ماء السند، فمنعه من العبور فرجع عنه، وقصد خرشابور، فملكها، وما يليها من جبال الهند، وأعمال الأفغان ورجع..

ذكر ملك شهاب الدين لهاوور وانقراض الدولة الغزنوية

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة سار شهاب الدين إلى لهاوور في جمع عظيم، وحشد كبير، فحصرها، وتهدد أهلها إن منعوه، وبذل لخسرو شاه الأمان على أن يطأ بساطه، ويخطب لأخيه فامتنع، فلما طال الحصار خذله أهل البلد، فطلب الأمان، فأمنه شهاب الدين، وحلف له، ودخل الغورية البلد، وبقي كذلك شهرين، ثم جهز خسرو شاه هو وولده إلى أخيه غياث الدين كما ذكرناه في أخبار الدولة الغزنوية.

قال: ولما كثرت جموع غياث الدين، واتسعت مملكته كتب لأخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له، وأن يذكر بالسلطنة، ويلقبه بألقاب السلاطين، وكان لقبه أولاً شمس الدين، ثم تلقب غياث الدين، ولقب الآن غياث الدنيا والدين معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين، ولقب أخاه عز الدين. قال: ولما استقر أمر «لهاوور»، سار شهاب الدين إلى أخيه غياث الدين، واتفقا على المسير إلى خراسان، فقصد مدينة هراة، فملكها واستناب بها، وملك عدة من بلاد خراسان، ورجع غياث الدين إلى مدينة فيروزكوه وشهاب الدين إلى غزنة.

ذكر مسير شهاب الدين إلى الهند

قال: وسار شهاب الدين إلى الهند، وحاصر بلدًا من بلادها، وملكها، وكان قد حصرها طويلاً فلم يظفر منها بطائل، فراسل زوجة الملك الهندي في أن يتزوجها، وكانت غالبة على أمر الملك، فأعادت عليه الجواب أنها لا تصلح لذلك، وأن لها

---

(١) سوران: مدينة كبيرة عليها حصون منيعة بعضها خلف بعض.

(٢) بلد: بالتحريك: هي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل، بينهما سبعة فراسخ وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

ابنة جميلة تزوجه بها، فأجابها إلى ذلك، فسقت زوجها سمًا، فمات، وسلمت إليه البلد، فأخذ الصبيَّة فأسلمت، وتزوجها، وحملها إلى غزنة، ووكل بها من علّمها القرآن، وتشاغل عنها، فتوفيت والدتها، ثم توفيت بعد عشرة سنين، ولم يرها، فبنى لها مشهدًا، ودفنها فيه، فأهل غزنة يزورون قبرها، ثم عاد إلى بلاد الهند، وملك كثيرًا منها.

ذكر ظفر الهنود بالمسلمين

قال: ولما اشتدّت نكاية[1] شهاب الدين في بلاد الهند تجمع ملوكهم من كل جهة، وتحالفوا على التعاضد، والتناصر على حربه، وجاؤوا من كل فج عميق، وركبوا الصعب والذلول[2]، وكان الحاكم على جميع الملوك امرأة من ملوكهم، فلما سمع شهاب الدين باتفاقهم وتعاضدهم؛ تقدم إليهم في عسكر عظيم، والتقوا، واقتتلوا، فانهزم المسلمون، وقتل منهم خلق كثير، وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده، وضربة على رأسه سقط منها إلى الأرض، وحجز الليل بين الفريقين، ثم حمل شهاب الدين إلى مدينة أخيه على رؤوس الرجال، فعمد إلى أمراء الغورية الذين انهزموا أن ملأ لهم مخالي خيلهم شعيرًا، وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم، فأكلوه.

ذكر ظفر المسلمين بالهنود

قال: واتصل الخبر بغياث الدين أخي شهاب الدين، فأمدّ المسلمين بالعساكر، فرجع شهاب الدين إلى الهنود، وجمع الهنود جموعًا عظيمة، وجددوا أسلحتهم، ووفروا جموعهم، وساروا بمَلِكَتهم في عددٍ كثير، فراسلها شهابُ الدين، وخدعها أن يتزوّجها، فلم تجبه إلى ذلك، وقالت: إما الحرب، وإما أن تسلِّم بلاد الهند، وتقتصر على ملك غزنة، فأجابها إلى العوْد إلى غزنة، وأن يرسل إلى أخيه في ذلك، وإنما فعل ذلك مكرًا، وكان بين العسكرين نهر، وقد حفظَ الهنود مخائِضَه، وأقاموا ينتظرون جواب غياث الدين، فجاء رجل من الهنود إلى شهاب الدين، وأعلمه بمخاضته، فاستوثق منه، وجهَّز جيشًا فعبروا المخاضة والهنود على غِرَّة، فلبسوهم،

---

(١) النكاية: القهر والغلبة.

(٢) يقال: ركبوا كل صعب وذلول في أمرهم: أي اتخذوا كل سبيل. والذلول من الدواب: السهل الانقياد.

وكان مقدَّم الجيش الحسين بن حرميل الغوري، وهو الذي صار بعد ذلك صاحب هراة، فوضع السيف في الهنود، فاشتَغلوا به، وأغفلوا المخائض، فعبر شهابُ الدين وبقيّة العسكر، ونادوا بشِعار الإسلام، وأكثروا في الهنود القتل، فما سلم منهم إلا القليل، وقتلت مِلِكتهم، وتمكن شهاب الدين بعد ذلك من بلاد الهند، ودانت له ملوكها، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة «دهلي»، وهي كرسي الممالك التي فتحها من بلاد الهند، وأرسل عسكرًا مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبلهم، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق، ولعل ذلك كان في سنة ثلاث وثمانين. وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة كانت الحربُ بين غِياث الدين، وسلطان شاه أخي خوارزم شاه. وذلك أن سلطان شاه تعرض إلى بعض بلاد غياث الدين، وجمع عساكره، والتقوا، فانهزم سلطان شاه، واستعاد غياث الدين بلاده، وعاد إلى غزنة.

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارسي الهندي

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة كانت الحرب بين شهاب الدين، وبين ملك بنارسي؛ وسبب ذلك أن قطب الدين أيبك لما أقطعه شهاب الدين مدينة دِهلي أوغل في بلاد الهند، وقتل وسبى وعاد، فبلغ ذلك ملك بنارسي، وهو أكبر ملوك الهند، وولايته من حدود الصين إلى بلاد ملاو طولاً، ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضًا، فجمع جيوشه، وسار يطلب بلاد الإسلام، ومعه سبعمائة فيل، وقيل إن عسكره بلغ ألف ألف رجل، وسار شهاب الدين نحوه، فالتقى العسكران على جون، وهو نهر كبير يقارب دجلة، فاقتتلوا، فانتصر المسلمون على الهنود، وكثر القتل فيهم والأسر، وقتل ملكهم، وغنم المسلمون منهم تسعين فيلاً من جملتها فيل أبيض، وباقي الفيلة قتل بعضها، وانهزم بعضها، ودخل شهاب الدين بلاد بنارسي وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل، وعاد إلى غزنة. وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. سار شهاب الدين إلى الهند، وملك قلعة بهنكر، وهي قلعة عظيمة منيعة ملكها بالأمان، ثم سار منها إلى قلعة كواكير، وبينهما مسيرة خمسة أيام، فأقام عليها شهرًا، وصالحه أهلها على مال، فصالحهم على وسق[1] فيل ذهبًا، فقبض المال، ورحل عنها.

(١) الوسق: حمل البعير.

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة ملك شهاب الدين سام بن محمد بن مسعود مدينة بلخ، وسام هو ابن أُخت غياث الدين، وله بامِيان، وكان صاحب بلخ زاير يحمل الخراج إلى ملك الخطا بما وراء النهر، فتوفي في هذه السنة، فسار شهاب الدين سام إلى بلخ، وملكها، وخطب فيها لخاله غياث الدين، وفيها انهزم الخطا من الغورية.

ذكر ملك شهاب الدين وأخيه غياث الدين ما كان لخوارزم شاه بخراسان

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة ملكا ذلك. وسبب ذلك أن محمد بن حرميل نائب الغورية بالطالقان كان قد استولى على مرو الروذ، فكاتبه جقر التركي نائب خوارزم شاه بمرو أن يكون في جملة عسكر غياث الدين، ويفارق خدمة الخوارزمية، فلما وصل الخبر إلى غياث الدين علم أنه ما قصد الانتماء إليه إلا لضعف صاحبه، فطمع في البلاد، وجهز شهاب الدين من غزنة، وسار لذلك، فوصله كتاب جقر يستحثه على السير إليه، يسلم إليه مرو، فسار إليها، فقاتله أهلها مع العسكر الخوارزمي، ثم سألوا الأمان، فكفّ عنهم، وتسلّم البلد، ووعده جقر الجميل، ثم حضر غياث الدين إلى مرو، وسلمها إلى هندو خان بن ملكشاه بن خوارزم شاه، وكان قد هرب من عمه إليه كما نذكره في أخبار الخوارزمية، ثم سار غياث الدين إلى مدينة سَرَخْس[1]، فأخذها صلحًا، وسلمها للأمير زنكي بن مسعود، وهو من أولاد عمه، وأقطعه معها «نسا»[2]، و«أبيورد»[3]، ثم سار إلى طوس فامتنع عليه أميرها، وأغلق الأبواب دونه ثلاثة أيام، فغلت الأسعار، وبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار، فضجَّ أهلُ البلد، فطلب الأمان، فأمّنه، فخرج إليه فأكرمه، وخلع عليه، وسيره إلى هراة،

---

(١) سرخس: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق بينها وبين كل واحدة منهما ست مراحل... (معجم البلدان).

(٢) نسا: بفتح أوله، مقصور: وهي مدينة بخراسان، بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، وبين أبيورد يوم... (معجم البلدان).

(٣) أبيورد: بفتح أوله وكسر ثانيه، وياء ساكنة، وفتح الواو، وسكون الراء، ودال مهملة: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وبئة، رديئة الماء، يكثر فيها خروج العرق... (معجم ياقوت).

وملك البلد، ثم أرسل إلى علي شاه أخي خوارزم شاه، وهو ينوب عن أخيه بنيسابور يأمره بمفارقة البلد، ويحذره من المقام بها، فامتنع عليه، وحصَّنَ البلد، وخرب ما بظاهره من العمارة، فسار شهاب الدين إليها، فقدمها في أول شهر رجب من السنة، وقدم العسكر للحصار، فملك البلد عنوة، ونهبه عسكرُه ساعةً من نهار، فبلغ الخبر غياث الدين، فنادى من نَهب أو آذى فدمه حلال، فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره، وتحصن الخوارزميّون بالجامع، فأخرجهم أهل البلد، فنهب الغورية مالهم، وأُحضِر علي شاه ابن خوارزم شاه إلى غياث الدين راجلًا، فأنكر ذلك على محضرِه، وعظُم الأمر فيه، وحضرت داية كانت لعلي شاه، وقالت لغياث الدين: هكذا تفعل بأولاد الملوك، فقال: لا، بل هكذا، وأخذه بيده، وأقعده معه على السرير، وطيّب نفسه، وسيّر جماعة من الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار، وولى غياث الدين ابن عمه ضياء الدين محمد بن علي حرب خراسان، وضم إليه وجوه الغورية، ورحل إلى هراة، وسلم علي شاه لأخيه شهاب الدين، وأحسن إلى أهل نيسابور، وفرق فيهم مالاً كثيرًا.

قال: ثم سار شهاب الدين إلى ناحية قُهِستان[1]، فأخرب قرية للإسماعيلية، وقتل من بها من الرجال، ونهب الأموال، وسبى الذراري، ثم سار إلى كتابان، وهي من مدن الإسماعيلية، فحصرها، فطلب أهلها الأمان ليخرجوا منها، فأمنهم وأخرجهم، وملك المدينة، وسلمها إلى بعض الغورية، فأقام بها شعائر الإسلام، فكتب صاحب قهستان إلى غياث الدين يقول له: إن بيننا عهدًا، فما الذي أوجب محاصرة بلادي؟ فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالرحيل عنها، وقال له: ما لك ولرعيتي، فامتنع من الرحيل، فقال له الرسول: فإذًا أفعل ما أمرني به غياث الدين، وجبذ الرسول سيفه، وقطع أطناب سرادق شهاب الدين، فارتحل كارهًا، وتوجه إلى الهند، ولم يقم بغزنة غضبًا على أخيه.

ذكر ملك شهاب الدين أنهلوارة من الهند

قال: ولما سار شهاب الدين من بلاد الإسماعيلية إلى الهند، أرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى أنهِلْوارة، فوصلها في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، فقاتل عسكر الهند بها، فهزمهم، وملكها عنوة، وهرب ملكها، وجمع وحشد فعلم

(١) قوهستان (كما في معجم البلدان لياقوت): مدينة بكرمان قرب جيرفت بينها وبين جبال البلص والقفص وفيها نخل كثير.

شِهاب الدين أنه لا يستمر له ملكها إلا بمقامه بها لأنها من أعظم البلاد، فصالح على مال في العاجل والآجل، وسلمها لصاحبها ولما توجَّه شهاب الدين إلى الهند عاد خُوارزم شاه إلى البلاد، واسترجعها من أيدي غِياث الدين، وهرب هندو خان منه؛ وذلك في بقية سنة سبع وتسعين وخمسمائة وسنة ثمان وتسعين.

ذكر وفاة غياث الدين وشيء من سيرته

كانت وفاته في جُمادى الأُولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فأُخْفِيت وفاته، وكان أخوه شهاب الدين بطوس، وقد عزم على قصد خوارزم، فأتاه الخبر بوفاة أخيه، فعاد إلى هراة، وجلس للعزاء في شهر رجب، وخلف غياث الدين من الولد ابنه محمودًا، وكان غياث الدين مظفَرًا منصورًا في حروبه لم تنهزم له راية، وكان قليل المباشرة للحروب، وإنما كان له ذكر ومكائد، وكان جوادًا، كريمًا، حسن الاعتقاد، كثير الصدقات، والأوقاف، بنى المساجد، والمدارس بخراسان للشافعية، وبنى الخانكاهات، وأسقط المكوس[1]، وكان عفيفًا من أموال الناس، ومن مات في بلاده ولا وارث له تصدّق بما يخلِّفه، ومن مات من التجار وله أهل بغير بلاده، سلَّم ما له لرفقته من التجار، فإن تعذر ذلك سلّمه للقاضي إلى أن يصِل مستحقَّه، وكان إذا وصل إلى بلد عمَّ أهله بإحسانه، سيما الفقهاء وأهل الفضل، فإنه يخلع عليهم، ويصلُهم، ويفرض لهم الأُعطِيات في كل سنة من خزائنه، وكان يراعي من يقصده من العلويين، ويجزل صِلاتهم وكان حسن الخط، ذا فضل وبلاغة، وكان ينسخ المصاحف بخطه، ويوقفها في المدارس التي أنشأها، ولم يظهر منه تعصب لمذهب على مذهب، وكان يميل إلى الشافعية ـ لأنه متمذهب بمذهب الشافعي ـ من غير أن يطمعهم في غيرهم، ولا يعطيهم ما ليس لهم. رحمه الله تعالى.

ذكر استقلال شهاب الدين بالملك وما فعله مع ورثة أخيه

استقل شهاب الدين الغوري بالملْك بعد وفاة أخيه غياث الدين في شهر رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وولّى ابن أخيه محمودًا مدينة بُسْت، ولقبه بلقب أبيه، وجعله عن المُلْك بمعزل، ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه، ولا على غيره من أهله، فمن جملة ما فعله أن غياث الدين كان له زوجة مغنية، فلما مات أخذها

---

(١) المكوس: واحدتها: المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار. والماكس: الذي يقدر الضريبة ويجبيها.

شهاب الدين، وضربها ضربًا مبرّحًا، وضرب ولدها ربيب غياث الدين، وزوج أختها، وأخذ أموالهم، وسيّرهم إلى بلاد الهند على أقبح صورة، وكانت قد بنت مدرسة، ودفنت فيها أباها وأخاها، فهدمها شهاب الدين، ونبش قبور الأموات، ورمى عظامهم، وفعل ما يناسب هذه الأفعال الشنيعة، وتوجه إلى الهند.

ذكر حصره خوارزم، وانهزامه من الخطا

وفي شهر رمضان سنة ستمائة عاد شهاب الدين من بلاد الهند، وقصد خُراسان. وسبب ذلك أنه بلغه أن خوارزم شاه حصر مدينة هراة، فعاد من الهند حنقًا عليه، وقصد خوارزم، فأرسل إليه خوارزم شاه يقول له: إما أن ترجع، وإلا حاصرت هراة، ومنها إلى غزنة، وكان خوارزم شاه بمرو، فأجابه شهاب الدين: لعلك تنهزم على عادتك أول مرّة، وخوارزمُ تجمعنا.

فسار خوارزم شاه من مرو إلى خوارزم، فسبق شهاب الدين إليها، وحرَّق العلوفات التي في الطريق، وقطع الطرق بإجراء المياه، فتعذّر على شهاب الدين سلوكها، فأقام أربعين يومًا حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم، فخرج إليه خوارزم شاه، والتقى العسكران بسوقرا، ومعناه: الماء الأسود، واقتتلوا، فأسر جماعة من الخوارزمية، وأمر شهاب الدين بقتلهم، وكان خوارزم شاه أرسل إلى ملك الخِطا يستنجد، فسار من بلاده بما وراء النهر لقصد شهاب الدين، فعاد عن خوارزم، ولقي أوائل عسكر الخطا في صحراء أيدي حوى في أول صفر سنة إحدى وستمائة، فقتل منهم وأسر، ثم دهمه الخِطا في اليوم الثاني، فانهزم عسكره منهم، وبقي شهاب الدين في نفر يسير، وقتل بيده أربعة من فيلته كانت قد عيت، وأخذ الخطا فيلين، ودخل شهاب الدين إلى أيدي حوى، فحصره الخطا بها، ثم صالحوه على فيل ثالث يعطيه لهم، ففعل، وخلص، وشاع الخبر في جميع بلاده أنه عَدِمَ، ثم وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد قتل أكثر عسكره، ونهبت خزائنه، فأخرج إليه الحسن بن حرميل صاحب الطالقان خيامًا، وجمع ما يحتاج إليه، وسار إلى غزنة، واستصحب معه الحسن بن حرميل لأنه بلغه أنه قصد الانضمام إلى خوارزم شاه، فجعله شهاب الدين أمير حاجب، قال: ولما وصل الخبر بقتله إلى غزنة، جمع تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، وهو أول مملوك اشتراه أصحابه، وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها، فمنعه مستحفظها، فعاد إلى داره، فلما وصل شهاب الدين إلى غزنة أمر بقتل الدز، فشفع فيه مماليك شهاب الدين، فأطلقه، وسار مملوك له اسمه أيبك كان قد سلم من المعركة، فلحق ببلاد الهند، ودخل المولتان، وقتل نائب السلطنة بها، وملك البلد،

وأخذ الأموال السلطانية، وأساء السيرة في الرعية، وأشاع قتل شهاب الدين، فلما اتصل خبره بشهاب الدين سار إلى الهند، وأرسل إليه عسكرًا، فأخذوه، وقتل شرّ قِتلة، وذلك في جُمادى الآخرة سنة إحدى وستمائة، وأمر شهاب الدين أن ينادى في جميع بلاده بغزو الخِطا.

ذكر قتل شهاب الدين بني كركر

كان سبب ذلك أنه لما شاع قتل شهاب الدين خرجوا في البلاد، وأفسدوا، وقطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، فراسلهم قطب الدين أيبك، فامتنعوا عليه، فسار شهاب الدين من غزنة، ووصل إليهم في يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستمائة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا من أول النهار إلى العصر، فبينما هو كذلك، إذ أقبل أيبك نائبه بالهند، فانهزم الكركرية[١]، ومن انضم إليهم، وقتلوا بكل مكان، وقصد من بقي منهم أجمةً هناك، وأضرموا نارًا، وكان أحدهم يقول لصاحبه: لا تَنْزِل للمسلمين يقتلوك، ثم يلقي نفسه في النار، فيلقي صاحبُه نفسه بعده، فعمّهم البلاء، وغنِم المسلمون أموالَهم وأهلِهم، وهرب ابن كركر بعد قتل إخوته وأهله، وكان معهم صاحبُ قلعة الجوديّ[٢]، ثم سار شهاب الدين نحو لهاوور، فأقام بها إلى سادس عشر شهر رجب من السنة، وعاد إلى غزنة.

ذكر مقتل شهاب الدين وشيء من سيرته

كان مقتله في أول ليلة من شعبان سنة اثنتين وستمائة، وذلك أنه لما عاد من لهاوور نزل بمنزلة يقال لها: دميل. بعد صلاة العشاء، وكان بعض الكركرية لزموا عسكره، وقد عزموا عل قتله لما فعله بهم من القتل والأسر، فلما كان في هذه الليلة تفرّق عنه أصحابه، وبقِي وحده في خِركاه، فثار أولئك النفر، فقتل أحدهم بعض الحرس بباب السرادق[٣]، فثار أصحابه ليبصروا ما به، فَخَلَتْ مواقِفُهم، وكثر

---

(١) قد تكون نسبة إلى كركر: بالفتح ثم السكون: مدينة بأران قرب بيلقان.. وكركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد.. وكركر أيضًا: ناحية من بغداد، منها القفص. وكركر أيضًا: حصن بين سميساط وحصن زياد، وهو قلعة وقد خربت... (معجم البلدان).

(٢) الجوديّ: ياؤه مشددة: هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل.

(٣) السرادق: الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما؛ أو هو كل شيء أحاط بشيء من حائط أو مضرب.

الزحام، فاغتنم الكركريَّة غفلتَهم عن التحفُّظ، فدخلوا على شهاب الدين، فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة، فمات، ودخل أصحابه عليه، فوجدوه قتيلاً على مصْلاه، وهو ساجد، فقتلوا أولئك النَفَر الكركريَّة، وقيل إن الذي قتله الإسماعيلية لخوفهم من خروجه إلى خراسان.

وكان رحمه الله شجاعًا مقدامًا، كثير الغزو إلى بلاد الهند، عادلاً في رعيّته، حسنَ السيرة فيهما، حاكمًا بينهم بإحكام الشرع الشريف. حكي عنه أنه لقي صبيًا من العلويين عمره خمس سنين، فدعا له الصبي، وقال: لي خمسة أيام ما أكلتُ شيئًا، فعاد من الركوب لوقته والصبيُّ معه، فنزل في داره، وأطعمه من أطيب الطعام بحضرته، وأعطاه مالاً، وسلَّمه إلى أبيه، وفرق في العلويين مالاً عظيمًا، وكان شافعي المذهب رحمه الله تعالى.

ذكر ما اتفق بعد وفاة شهاب الدين

قال: ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك ابن خواجا، فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك، وجعلوا شهاب الدين في مِحفَة[1]، وساروا به، فرتَّب الوزيرُ الأمور، وسكَّن الناس، وجعل الشمسيَّة على المِحفَّة، وحفَّها بالحشم، وكان شهاب الدين قد جمع أموالاً عظيمة من بلاد الهند في سَفرته، فكانت الخِزانة التي معه ألفي حمل ومائتي حمل، وأعاد الوزير من كان معه من العسكر الهندي إلى خدمة قطب الدين، فإن شهاب الدين كان قد جمع العساكر لقصد الخِطَا، وفرق فيهم أموالاً كثيرة، وسار الوزير ومعه العسكر الغَزْنَوي، وكان الوزير والأتراك يميلون إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين، والأمراء الغُوريّة تميل إلى بهاء الدين سام صاحب بامِيان[2]، فأرسلت كل طائفة إلى من تميل إليه يعرفونه قتل شهاب الدين، ثم سار الوزير والعسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان المدينة التي بين لَهاوُور وغزنة، وكان بها تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، فلما عاين المحفَّة ترجّل، وقبَّل الأرض على عادته، وتقدّم وكشف عن شهاب الدين، فلما رآه قتيلاً خرَّق ثيابه، وصاح، وبكى، وأبكى الناس، وكان من أكبر المماليك الشهابية، فطمع في ملك غزنة، فسأل الوزير عن الأموال والسلاح والدواب، فأخبره بما خرج من ذلك وما بقي، فأنكر عليه، وأساء جوابه، وقال: إن الغُورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب بامِيان ليملِّكوه

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له.

(٢) باميان: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة، بها قلعة حصينة.

غزنة، وقد كتب إليّ غياث الدين، وهو مولاي وابن مولاي، يأمرني ألاّ أترك أحدًا يقرب من غزنة، وقد جعلني نائبه فيها، وفي سائر الوِلاية المجاوِرة لها لاشتغاله بخُراسان، وقد أمرني أيضًا أن أتسلّم الخِزانة منك، فلم يقدر الوزير على الامتناع لميل الأتراك إلى الدز، فتسلمها، وسار بالمحفة إلى غزنة، فدفن شهاب الدين بمدرسته، وكان وصولهم إليها لثمان بقين من شعبان سنة اثنتين وستمائة.

ذكر مسير بهاء الدين سام صاحب باميان إلى غزنة ووفاته

وبهاء الدين سام هذا هو ابن أخت غياث الدين، وشهاب الدين، وكانا قد ملكاه بامِيان، فأحسن السيرة، وأحبّه الأمراء الغُورية، وكاتبوه للحضور إلى غزنة، فأعدا علهيم الجواب يأمرهم بحفظ البلد، وأنه واصل إليهم، وسار عن باميان مرحلتين، فوجد في رأسه صداعًا اشتدَّ عليه، فنزل وقد أيقن بالموت، وأحضر ولديه: علاء الدين وجلالَ الدين، وعهد بالملك إلى علاء الدين، وأوصاهما بالأمراء الغورية، ومات.

ذكر ملك علاء الدين بن سام مدينة غزنة، وأخذها منه

قال: ولما توفي بهاء الدين سام، وعهد إلى ابنه علاء الدين، سار إلى غزنة، ومعه أخوه جلال الدين، فتلقاهما الأمراءُ الغُورية، وخرج الأتراك معهم على كره، ونزلا دار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة اثنتين وستمائة، فأراد الأتراك منعهم، فنهاهم الوزير عن ذلك لقلّتهم، واشتغال غياث الدين بابن حرميل صاحب هراة، فاستقر علاء الدين، وجلال الدين بدار السلطنة بالقلعة، فراسلهما الأتراك أن يخرجا من الدار، وإلا قاتلوهما، ففرقا فيهم أموالاً كثيرة واستحلفاهم، فحلفوا، واستبوا غياث الدين محمود، فأنفذا خلعًا إلى تاج الدين الدز، ووعداه الجميل والحكم في دولتهما، فوصله الرسول، وقد سار عن كرمان لقصد غزنة، فردَّه أقبح رد، وقال: قل لهما يخرجان من غزنة، ويكتفيان بباميان، فإني لا أقدم أحدًا على ولد سيدي غياث الدين، ولم يقصد الدز بذلك حفظ البيت وإنما أراد التمهيد لنفسه، فعاد الرسول، وأبلغهما مقالته، ووصل الدز إلى غزنة، فخرج إليه الغورية، والتقوا في خامس شهر رمضان، فانحاز إليه الأتراك، وخدموه، فهزموا الغورية، ودخل العسكر المدينة، ونهبوا دور الأمراء الغورية، والباميانية، وحصر الدز القلعة، فخرج جلال الدين منها إلى باميان في نحو عشرين فارسًا ليجمع العساكر، وأوصى أخاه علاء الدين بحفظ الحصن، فشدد عليه الدز الحصار، وضيّق عليه، فأجاب إلى مفارقة الحصن، وحلف الدز أنه لا يؤذيه، وسار علاء الدين من غزنة، فلما رآه الأتراك نهبوا

ما كان معه، وألقوه عن فرسه، وأخذوا ثيابه، وتركوه عريانًا بسراويل، فبلغ الدز الخبر، فأنكر عليهم، وأرسل إليه بثياب ودواب ومال، واعتذر إليه، فأخذ ما لبسه، ورد الباقي، ولما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد، وركب حمارًا، فأخرجوا له المراكب الملوكية والملابس، فلم يلبس ولم يركب، وقال: أريد أن يراني الناس على هذه الحال، وما صنع بي أهل غزنة، حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبت أهلها لا يلومني أحد، ودخل دار الإمارة، وشرع في جمع العساكر.

ذكر ملك تاج الدين الدز غزنة

قال: ولما توجّه علاء الدين من غزنة، أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر بالخطبة له ولا لغيره، إنما: يخطب للخليفة، ويترحم على شهاب الدين فحسب، فلما كان في سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والقراء والمقدمين، وأحضر رسول الخليفة، وهو مجد الدين أبو علي بن أبي الربيع مدرس النِظَامية، وكان قد حضر برسالة من دار الخلافة إلى شهاب الدين، فوجده قد قتل، وركب الدز والناس في خدمته، وعليه ثياب الحزن، وجلس في دار السلطنة في غير المجلس الذي كان يجلس فيه مولاه شهاب الدين، فتغير الناس عليه، وتنكروا له، فإنهم إنما كانوا يطيعونه لإظهاره طاعة غياث الدين محمود، فلما استقل بالأمر خالفوه، ففرق فيهم الأموال والإقطاعات، واستعان على ذلك بالخزانة التي أخذها عند مقتل شهاب الدين، وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد الملوك الغورية، وغيرهم من الأكابر، فأنفوا من خدمته، واستأذنوه على اللحاق بغياث الدين، فأذن لهم، فلحق بعضهم به، وبعضهم بأصحاب باميان، وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره على ما فعل ويطالبه بالخطبة له، ونقش السكة باسمه، فلم يفعل، وغالط في الجواب، وطلب منه أن يخاطب بالملك، وأن يعتقه من الرق، وأن يزوج ابن غياث الدين، بابنة الدز، فلم يجبه إلى ذلك، قال: ولما ملك الدز غزنة أحضر مؤيد الملك الوزير، وألزمه الوزارة، فوزر على كره منه.

ذكر حال غياث الدين محمود بن غياث الدين بعد مقتل عمه شهاب الدين

قال: لما قتل شهاب الدين كان غياث الدين هذا «ببُست» في إقطاعه، فبلغه الخبر، وكان شهاب الدين قد ولّى الملكَ علاء الدين محمد بن أبي علي بلادَ الغُور، وغيرها مما يجاورها، فلما بلغه قتل شهاب الدين، سار إلى مدينة: «فيروزكوه»؛ خوفًا أن يسبقه غياث الدين إليها، فملكها، وكان حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية إلا أن

الناس كرهوا منه أنّه كان كرامِيًّا، وكانوا يميلون إلى غياث الدين، فأنف الأمراء من خدمة علاء الدين مع وجود ابن سلطانهم، وكان علاء الدين هذا قد أحضر الناس، وحلفهم أنهم يساعدونه على قتل خوارزم شاه، وبهاء الدين صاحب بامِيان، ولم يذكر غياث الدين احتقارًا له، فحلفوا له ولولده من بعده، هذا وغياث الدين بمدينة بُسْت لم يتحرك انتظارًا لما يكون من صاحب بامِيان لأنّهما كانا قد تعاهدا في أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين، وغزنة والهند لبهاء الدين صاحب بامِيان، بعد موت شهاب الدين، فلما بلغه ما اتفق من وفاة بهاء الدين وإخراج أولاده من غزنة جلس على التخت، وخطب لنفسه، وتلقب بألقاب والده، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي، وهو بفَيْروزكوه يستدعيه، ويستعطفه ليصدر عن رأيه، ويسلم مملكته إليه، وكتب إلى الحسن بن حرميل وإلى هراة مثل ذلك، فأما علاء الدين فأغلظ له في القول وتهدّد الأمراء الذين مع غياث الدين، فسار غياث الدين إلى «فيروزكوه»، فأرسل علاء الدين عسكرًا مع ابنه، وفرق فيهم أموالاً جمة ليمنعوا غياث الدين، فلقوه بالقرب من فيروزكوه، فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلَجي المغْفرُ عن رأسه، وقال: «الحمد لله إذ الأتراك الذين لم يعرفوا أباهم لم يضيعوا حق التربية»، وردّوا ابنَ ملك بامِيان، وأنتم مشايخ الغُورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان وربّاكم، كفرتم إحسانه، وجئتم لقتال ولده أهذا فعل الأحرار، فقال محمد المرغني، وهو مقدم العسكر: لا والله وترجل عن فرسه، وألقى سلاحه، وقصد غياث الدين، وقبّل الأرض بين يديه، وبكى بصوت عال، وفعل سائر الغورية مثل فعله، فانهزم خواصّ علاء الدين مع ولده، فلما بلغه الخبر خرج عن فَيْروزكوه هاربًا نحو الغور، وهو يقول: أجاور بمكة، فأنفذ غياث الدين خَلْفَه من العسكر من أدركه، فأُخذ وحُبس، وملك غياث الدين فيروزكوه، وفرح به أهل البلد، وقبض على جماعة من الكرّاميّة[1] أصحاب علاء الدين، فقتل بعضهم، وسكن دار أبيه، وأعاد رسومه، وسلك سبيل العدل والإحسان، ثم لم تكن له همة إلا في أمر الحسن بن حرميل، وملاطفته، فتكررت المكاتبات منه إليه، وابن حرميل يغالطه في الجواب، ويطاوله، وكان ابن حرميل قد كتب إلى خوارزم شاه بالانحياز إليه، وبذل الطاعة، وأنه يسلم إليه هراة، فكان من أمره ما نذكره في أخبار الدولة الخوارزمية من انضمام ابن حرميل إلى خوارزم شاه، وملكه ما كان للغورية بخراسان، والله أعلم بالصواب.

---

(١) الكرامِيّة: أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام، ويعد من الصفاتية لأنه كان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه. ومحمد بن كرام كان من سجستان ثم خرج إلى نيسابور في أيام محمد بن طاهر بن عبد الله. . . (الملل والنحل للشهرستاني ١:١٠٨).

ذكر عود علاء الدين وجلال الدين ابني بهاء الدين سام صاحب باميان إلى غزنة

قال: ولما فارق علاء الدين غزنة على الصِّفة التي ذكرناها، والتحق بباميان، شرع في الاستعداد وجمع العساكر لقصد غزنة، وأما الدَز، فإنه استولى على غزنة، وأحسن إلى الناس، وبسط العدل والإنصاف، ولم يخطب لنفسه ولا لغيره، وكان يعد الناس، ويقول: إن رسولي عند مولاي غياث الدين، فإذا عاد خطبت له، فتمسك الناس بقوله، وإنما كان يفعل ذلك مكرًا وخديعة بهم وبغياث الدين لأنه كان يضعف عن مقاومة صاحب بامِيان، وكانوا كذلك إلى خامس ذي القعدة سنة اثنتين وستمائة، فبينما الناس على ذلك إذ ورد عليهم الخبر أن صاحب باميان قد جمع الجيوش، وأقبل بها، وعزم على نهب غزنة، فجهز الدز جيشًا كثيفًا من عسكره، وسيّرهم إلى طريق صاحب بامِيان ليمنعوه من الوصول إلى غزنة، فلم يكن لهم قِبلٌ به، فلما التقوا قتل من الأتراك جماعة، وانهزم من سلم، وتبعهم علاء الدين يقتل ويأسر، فخرج الدز من غزنة هاربًا إلى كرمان، فنزل علاء الدين غزنة، واتبع الدز إلى كرمان، فملكها، وأمَّن أهلها، وعزم على العود إلى غزنة، ونهبها، فراسله رسول الخليفة، وشفع في أهلها، فشفَّعه فيهم بعد مراجعات، ثم وصل علاء الدين، وجلال الدين إلى غزنة، ومعهما ما بقي من الخزانة التي كان الدز قد أخذها من الوزير مؤيد الملك، فكانت تسعمائة حِمل، وفيها من الثياب المنسوجة بالذهب اثنا عشر ألف ثوب، وقصد علاء الدين أن يستوْزِر مؤيّد الملك، فسمع جلال الدين بذلك فأحضره، وخلع عليه، واستوزره، فغضب علاء الدين من ذلك، وقبض على مؤيد الملك، وقيده وحبسه، فتغيرت نيّات الناس، واختلف علاء الدين، وجلال الدين، واقتسما ما كان في الخزانة وجرى بينهما مُشَاحَّة[1] في القسمة لا تجري بين التجار، فعلم الناس أنه لا يتم لهما أمر، ولا يستقيم لهما دولة، وعاد جلال الدين ببعض العسكر إلى باميان، واستقر علاء الدين بغزنة، فأساء وزيره عماد الملك السيرة في الأجناد والرعية ونهب أموال الأتراك حتى باع أُمهات الأولاد.

ذكر عود تاج الدين الدز إلى غزنة

قال: ولما انفرد علاء الدين بغزنة، وأقام بها جمع الدز جمعًا كثيرًا من الأتراك، وعاد إلى كرمان، وبها عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له المؤيد، وكان المؤيد قد

(١) المشاحّة في القسمة: أي أن يشح بعضهم على بعض والمبادرة إلى أخذ ما هو له حذر فوته.

اشتغل باللهو واللعب، فلم يشعر إلا وعسكر الدز قد هجم على البلد، وقتل من فيه من العسكر عن آخرهم في المعركة صبرًا، وقتل المؤيد، فوصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذي الحجة من السنة، فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر، فتغيمت السماء وأمطرت حتى خرب بعض غزنة، ووقع بَرَدٌ كبار مثل بيض الدجاج، فضجّ الناس إلى علاء الدين، فأنزله آخر النهار، فانكشفت الظلمة، وكتب علاء الدين إلى أخيه جلال الدين يعلمه بالخبر، ويستنجده، ووصل الدز آخر ذي القعدة إلى غزنة، وحاصر القلعة، وكان بينه وبين علاء الدين قتال شديد، وجاء جلال الدين بأربعة آلاف من عسكر بامِيان، فلقيه الدز بقرية بَلْق[1] واقتتلوا، فانهزم عسكر جلال الدين، وأخذ هو أسيرًا، وأسر من البامانية ألف أسير، وعاد الدز إلى غزنة، فبعث إلى علاء الدين في تسليم القلعة أو قتل الأسرى، فامتنع من التسليم فقتل منهم أربعمائة بإزاء القلعة، فراسله عند ذلك في طلب الأمان، فأمنه، فلما خرج قبض عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما وقبض على وزيره عماد الملك، وكتب إلى غياث الدين بالفتح، وأرسل إليه الأعلام، وبعض الأسرى وذلك في صفر سنة ٦٠٣.

ذكر ما اتفق لغياث الدين محمود مع تاج الدين الدز وأيبك

قال: ولما عاد الدز إلى غزنة كتب إليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له، فأجابه جواب مدافع، وكان جوابه أشد مما تقدم، فأعاد عليه الجواب يقول: إما أن تخطب لنا، وإما أن تعرفنا ما في نفسك، فلما وصل إليه الرسول خطب لنفسه بغزنة بعد الترحم على شهاب الدين، فساء الناس ذلك منه، وتنكروا له، ولم يروه أهلاً أن يخدموه، ولما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول: بماذا تشتط على هذه الخزانة، نحن جمعناها بأسيافنا، وهذا الملك قد أخذته، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة، وأقطعتهم الإقطاعات، ووعدتني بأمور لم تفِ لي بشيء منها، فإن أنت عتقتني خطبت لك، وحضرت إلى عندك، فأجابه غياث الدين إلى العتق بعد الامتناع، وأشهد عليه بعتقه، وبعتق قطب الدين أيبك النائب ببلاد الهند، وأرسل إلى كل منهما ألف قباء، وألف قلنسوة، ومناطق الذهب، وسيوفًا كثيرة، وجِتْرَيْن، ومائة رأس من الخيل، فقبل الدز الخلع، وردّ الجتر، وقال: نحن عبيدك، والجتر له

---

(١) بلق: بالفتح ثم السكون وقاف: ناحية بغزنة من أرض زابلستان.

أصحاب، وسار رسول أيبك، وكان «بفَرشابور»[١]، وقد حفظ المملكة، وضبط البلاد، فلما قرب الرسول منه تلقاه، وترجل وقبل حافر الفرس، ولبس الخلعة، وقال: أما الجتر فلا يصلح للمماليك، وأما العتق فمقبول، وسوف أجازيه بعبودية الأبد. قال: وأرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا، وأنه يسير إليه العساكر إلى غزنة، فإذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثًا، ثلث له، وثلث لغياث الدين، وثلث للعسكر، فأجابه غياث الدين إلى ذلك، ولم يبقَ إلا الصلح، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب مازَنْدران، فسار عن هراة إلى مرو، وسمع الدز بالصلح، فجزع لذلك جزعًا عظيمًا، ظهر أثره عليه، وأرسل إلى غياث الدين يقول له: ما حملك على هذا فأجابه: حملني عليه عصيانك وخلافك، فسار الدز إلى تكينا باد فأخذها، وإلى بست وتلك الأعمال، وقطع خطبة غياث الدين عنها، وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين، وقطع خطبة خوارزم شاه، وأرسل إلى ابن حرميل صاحب هراة بمثل ذلك، وتهددهما بقصد بلادهما. ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره، وسيّر معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز لإعادته إلى ملك باميان، وكان قد ملكها عباس عم جلال الدين، وعلاء الدين لما أسرهما الدز، فاسترجعها من عمه.

قال: وبلغ قطب الدين أيبك ما فعله الدز، فكتب إليه يفتح ذلك عليه، وينكر فعله، ويقول: إن لم تخطب له بغزنة، وتعود إلى طاعته، وإلا قصدت بلادك، ثم بعث أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف، وأشار عليه بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلبه الآن، وأنه عند الفراغ من أمر غزنة يسهل أمر خوارزم شاه وغيرِه، قال: وخالف أَيدكز على الدز، فأقام بكابل[٢]، وكتب إلى أيبك يعرفه مخالفته له، وانتصاره لغياث الدين فصوّب رأيه، وأشار عليه بقصد غزنة في غيبة الدز، فإن حصلت له القلعة يقيم بها إلى أن يأتيه، وإن تعذرت عليه ينحاز إلى غياث الدين، أو يعود إلى كابل، فوصل أيدكز إلى غزنة في أول شهر رجب سنة ثلاث وستمائة، فمنعوه القلعة، فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع، فتوسط القاضي بينهم أن يسلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية، وأخذ له من التجار شيئًا آخر، وخطب أيدكز بغزنة لغياث الدين محمود، وقطع خطبة الدز، ففرح الناس لذلك، واتصل الخبر بالدز،

---

(١) فرشابور: مدينة وولاية واسعة من أعمال لهاور بينها وبين غزنة.

(٢) كابل: بضم الباء الموحدة، ولام: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... وبكابل عود ونارجيل وزعفران وإهليلج لأنها متاخمة للهند... (معجم البلدان).

ووصل إليه رسول أيبك، فخطب لغياث الدين في تكيناباد، وأسقط اسمه من الخطبة، ورحل إلى غزنة، فلما قاربها فارقها أيدكز إلى بلد الغور، وأقام في نمران[١]، وكتب إلى غياث الدين محمود، يخبره بحاله، وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة والتجار بغزنة، فأرسل إليه خلعًا سنية، وأعتقه، وخاطبه بملك الأمراء، وردّ عليه مال الخزانة، وقال له: أما مال الخزانة، فقد أعدناه إليك، وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلناها إلى أربابها لئلا تقبح دولتنا بالظلم، وقد عوضتك عنها ضعفيها، وأرسل أموال الناس إلى القاضي بغزنة، وأمره بردها على أربابها، ففعل ذلك، وكثر الدعاء له، وصار الدز بين الطاعة والخلاف لغياث الدين.

ذكر مقتل غياث الدين محمود، وانقراض الدولة الغورية

كان مقتله في سنة خمس وستمائة. وسبب ذلك أن خوارزم شاه سلم هراة إلى خاله أمين ملك، وأمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام، ويقبض عليه، وعلى علي شاه ابن خوارزم شاه، ويأخذ فيروزكوه، فسار أمين ملك إلى فيروزكوه، واتصل الخبر بغياث الدين، فبذل الطاعة، وطلب الأمان، فأمنه، فلما نزل إليه من فيروزكوه قبض عليه، وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه، فسألهما أن يحملهما إلى خوارزم شاه ليرى فيهما رأيه، فأرسل أمين ملك إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر، فأمره بقتلهما، فقتلا في يوم واحد، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه. وانقرضت الدولة الغورية بقتل غياث الدين هذا، وكانت من أحسن الدول، وأكثرها جهادًا، وكان غياث الدين هذا عادلاً كريمًا حليمًا، من أحسن الملوك سيرة، وأكرمهم أخلاقًا، وهو آخر ملوك الدولة الغورية، وكان ابتداء هذه الدولة من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وانقراضها في سنة خمس وستمائة، فتكون مدتها ثلاثًا وستين سنة تقريبًا، وربما ظهرت قبل هذا التاريخ، وإنما انتشرت واشتهرت وتمكنت في سنة ثلاث وأربعين. فلذلك جعلنا ابتداءها فيها. وعدة من ملك منهم عشرة ملوك، وهم محمد بن الحسين وهو ابن الحسن ملك ببلاد الغور قبل سنة ثلاث وأربعين، ولم أظفر بابتداء ملكه، فاذكره في سنته، ثم ملك بعده أخوه سامُ بن الحسين، ثم ملك بعده أخوه سُورى بن الحسين، ثم ملك بعده أخوه الحسين، وهو أول من علا ذكره، وطار اسمه، وتمكّنت دولته، ثم ملك بعده ابنهُ سيف الدين محمد بن الحسين، ثم

(١) لم نعثر عليها فيما وصل إلينا من مظان، ولعلها نميزان: إحدى قرى هراة.

ملك بعده غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام بن الحسين، ثم ملك بعده شهاب الدين محمد بن سام، ثم اضطرب أمر الدولة الغورية بعده، فملك علاء الدين، وجلال الدين ابنا بهاء الدين سام صاحب باميان، ولم تطل مدّتهما. وإنما ذكرناهما في عدد الملوك الغورية؛ لأنهما استوليا على غَزْنة، وخطب لهما بها، وملك غياث الدين محمد، وكانت دولته في غاية الاضطراب كما ذكرنا.

ذكر أخبار تاج الدين الدز، وما كان من أمره بعد مقتل غياث الدين

استقلّ تاج الدين الدز بملك غَزْنة بعد مقتل غياث الدين محمود، وأحسن السيرة في الرعية، ودام ملكه بها إلى أن ملكها السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن رتكش في سنة ثنتي عشرة وستمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الخوارزمية، ولما ملكها خوارزم شاه هرب تاج الدين الدز من غزنة، وسار إلى مدينة «لهاوور»، واستولى عليها من صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من المماليك الشهابية بعد حرب كانت بينهما انتصر فيها الدز، ثم سار من مدينة لهاوور إلى الهند ليملك ما بيد المسلمين منها، فلقيه شهاب الدين الترمش مملوك قطب الدين أيبك، وكان قد ملك بعد وفاة مولاه، فاقتتلا قتالاً شديدًا، أجلت الحرب عن قتل تاج الدين الدز، وكان محمود السيرة في ولايته، كثير العدل والإحسان إلى رعيته، لا سيما التجار الغرباء، ومن محاسن أعماله ومكارم أخلاقه وحلمه أن كان له أولاد، ولهم مؤدِّب يعلمهم القرآن، فضرب أحدهم، فمات، فأحضره الدز، وقال له: يا مسكين ما حملك على ما فعلت، فقال: والله ما أردت إلا تأديبه، فمات. فقال له: صدقت، وأعطاه نفقة، وقال له: تغيّبْ، فإن أمّه لا تقدر على الصبر، وربما أهلكتك، ولا أقدر أمنعك، وهذا نهاية الحلم، ولم يشتهر الأحنف بن قيس[1] بالحلم بأكثر من هذا، وكان القاتل ابن أخيه، وهذا أجنبي رحمه الله تعالى.

---

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث... التميمي المعروف بالأحنف، وقيل اسمه صخر، وهو الذي يضرب به المثل في الحلم. كان من سادات التابعين رضي الله عنهم، أدرك عهد النبي ﷺ ولم يصحبه وشهد بعض الفتوحات منها قاسان والتيمرة... (وفيات الأعيان ٢:٤٩٩).

الباب العاشر

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار ملوك العراق، وما والاه وملوك الموصل والديار الجزيرية، والبكرية والبلاد الشامية، والحلبية، والدولة الحمدانية، والديلمية البويهية، والسلجوقية، والأتابكية

ذكر أخبار الدولة الحمدانية

وهذه الدولة كانت بالموصل، وديار ربيعة، وديار بكر، والثغور، وحلب، وجدّ ملكوها الذين ينسبون إليه هو مكابد المحل حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد بن رافع بن مسعود التغلبي العدوي، وإنما سمّي الأمير حمدان مكابد المحْل لأن الموصل أجدبت في بعض السنين حتى عدم القوت بها، فمات الناس أجمع سنتين إلى أن أُغيثوا، ففيه يقول الشاعر: [من الكامل]

ما زلتَ في قَيْظِ المعيشَةِ جاهدًا حتَّى دُعيتَ مُكابِدَ المَحْلِ[١]

وكان لحمدان أبناء كثيرون. منهم الأمير أبو الهيجاء عبد الله، والمملكة في أولاده.

ذكر ابتداء إمارة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بالموصل

كان ابتداء إمارته في سنة اثنتين وتسعين ومائتين. وذلك أن الخليفة المكتفي بالله استعمله على الموصل وأعمالها في هذه السنة، فسار إليها وقدمها في أول المحرم، فأقام بها يومًا واحدًا، وخرج من الغد بمن قدم معه وبمن فيها، فأتاه الصريخ[٢] من نِينَوى[٣] أن الأكراد الهذانية، ومقدمهم محمد بن بلال قد أغار على البلد، فسار من

(١) المحل: انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ.

(٢) الصريخ: الاستغاثة.

(٣) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو؛ هي قرية يونس بن متى، عليه السلام؛ بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه. . . (معجم البلدان).

وقته، وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، فلحق الأكراد بالعروبة على الخازِر[١]، فقاتلوه فقُتلَ رجلٌ من وجوه أصحابه اسمه سيما الحمداني، فعاد عنهم، وكتب إلى الخليفة يستمده، فأتته العساكر بعد شهور، فسار في شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين إليهم، وكانوا قد اجتمعوا في خمسة آلاف بيت، فلما عاين الأكرادُ الجيشَ قصدوا جبل السَّلْق[٢]، وامتنعوا به وهو جبلٌ عالٍ مشرفٌ على الزاب، وجاء مقدمهم إلى أن قرب من أبي الهيجاء، وراسله في الحضور عنده، وأن يرهن أولاده عنده، ويتركون القتال، فأجابه أبو الهيجاء إلى ذلك، ورجع محمد بن بلال ليأتي بالرهائن، فحثَّ أصحابه على المسير نحو أذربيجان، فبلغ ابن حمدان خبره، فأراه النجدة التي وصلت إليه من قِبل الخليفة على المسير معه، فتثبطوا عنه، فسار عبد الله بأصحابه يقفوا أثر الأكراد، فلحقهم وقد تعلقوا بالجبل المعروف بالقنديل، فقتل منهم جماعة، وانصرف عنهم، ولحق الأكراد بأذربيجان، ورجع عبد الله إلى الموصل، ثم خرج إلى الأكراد، وحاصرهم بجبل السَّلَق أشد حصار، فنجا محمد بن بلال بأهله وأولاده ومن لحق بهم، واستولى عبد الله على بيوتهم وسوادهم وأموالهم وأهليهم، فطلبوا الأمان فأمنهم، وأبقى عليهم وردهم إلى بلدهم، ورد عليهم أموالهم، وقتل منهم قاتل صاحبه سيما، وأمنت البلاد معه، وأحسن السيرة في أهلها، ثم حضر إليه محمد بن بلال بأمان، وأقام بالموصل، وتتابع الأكراد الحميدية وأهل جبل داسن[٣] إليه بالأمان، فأمنت البلاد، واستقامت، ولم تزل كذلك إلى سنة إحدى وثلاثمائة.

ذكر مخالفة عبد الله بن حمدان، ورجوعه إلى الطاعة

وفي سنة إحدى وثلاثمائة خالف الأمير أبو الهيجاء عبد الله على الخليفة المقتدر بالله، فثار به أهله، ونهبوا داره، فكتب إلى بني تغلب[٤]، فأتوه فدخل الموصل،

---

(١) الخازر: نهر بين إربل والموصل، ثم بين الزاب الأعلى والموصل. . . (مراصد الاطلاع لابن عبد الحق البغدادي).

(٢) السّلق: جبل عال مشرف على الزاب من أعمال الموصل متصل بأعمال شهرزور يعرف بسلق بني الحسن بن الصباح بن عباد الهمداني. . . (معجم البلدان).

(٣) داسن: بالنون: اسم جبل عظيم في شمالي الموصل من جانب دجلة الشرقي، فيه خلق كثير في طوائف الأكراد يقال لهم الداسنية. . . (معجم ياقوت).

(٤) بنو تغلب: بفتح التاء وكسر اللام: حيّ من وائل، من ربيعة، من العدنانية، ومن بني تغلب هؤلاء: عمر بن كلثوم الشاعر. . وبنو تغلب أيضًا: بطن من قضاعة، من القحطانية. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وأوقع بأهلها وقتل منهم فأرسل إليه الخليفة مؤنسًا المظفر في جيش، فقصده أبو الهيجاء واستأمن له، وأظهر الطاعة، وقال: إنه ما فارقها، وسار معه إلى بغداد، فخلع المقتدر عليه، وولّى مكانه نحرير الصغير ولاه مؤنس المظفر.

ذكر القبض على بني حمدان، وإطلاقهم

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة قبض الخليفةُ المقتدر بالله على أبي الهيجاء بن حمدان، وجميع إخوته وحبسهم، وكان سببُ ذلك أنّ أخاه الحسينَ بن حمدان خرج عن الطاعة، وكان بالجزيرة[١]، فسيّر إليه الخليفةُ جيشًا، وكان بينهم حروب كان آخرها أن الحسين أسر وأحضر إلى بغداد، فقبض المقتدر على جميع إخوته وأهله، وحبسهم واستمروا في الحبس بدار الخليفة إلى سنة خمس وثلاثمائة فأطلقوا. وفي سنة ثمان وثلاثمائة خلع المقتدر بالله على أبي الهيجاء بن حمدان، وقَلّده طريق خراسان، والدِّينور، وخلع على أخويه أبي العلاء وأبي السرايا.

وفي سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة أسر القرامطة أبا الهيجاء بن حمدان، ثم أطلقوه، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار القرامطة. وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة ضمن أبو الهيجاء أعمالَ الخراج والضياع بالموصل وقردْي[٢] وبازَبْدي[٣]، وما مع ذلك مضافًا إلى ما بيده من ولاية طريق خراسان، وغيرها، وكان هو مقيمًا ببغداد وابنه ناصر الدولة يخلُفُه بالموصل، وأقام على ذلك إلى أن قُتِل في يوم الاثنين سابع عشر المحرّم سنة سبع عشرة وثلاثمائة عند خلع المقتدر بالله وبيعة القاهر على ما شرحناه مبينًا في خلافة المقتدر بالله.

وكان القاهر بالله لما بويع بالخلافة في النصف من المحرم اختص بأبي الهيجاء حمدان، فلما ثار الجند بعد يومين من بيعته كان أبو الهيجاء عنده، فبادر بالقيام ليخرج، فتعلق القاهر بأذْياله، واستجار به، فحملته الحمية العربية على الثبات، ودخل الأجناد على القاهر وهو وأبو الهيجاء يتخللان[٤] القاعات حتى حُصرا بقاعة، فدخل عليهم الجند من بابها، فجرد أبو الهيجاء سيفه، وأوقف القاهر وراءه، وصار يحمل

---

(١) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات. . . (معجم البلدان).

(٢) قردي: موضع في شرقي دجلة تقابل الجزيرة.

(٣) بازبدي: كورة من ناحية جزيرة ابن عمر غربي دجلة.

(٤) تخلل فلان بعد الأكل: أخرج ما بين أسنانه من بقية الطعام.

على الأجناد، فيردهم إلى الدهاليز، ثم يعود ويعودون، فصعد بعض الجند إلى أعلى القاعة، ورموه بالنشّاب إلى أن مات. هذا أحدُ ما قيل في صفة قتله. وكان شجاعًا فاتكًا كريمًا محبوبًا إلى الخلفاء الأمراء، وخلف من الأولاد: أبا محمد الحسن، وأبا الحسين علي، وأبا العطاف خير، وأبا زهير. والمملكة من هؤلاء في الحسن وعلي وعقبهما، واستبد ابنه الحسن بالأمر على ما نذكره بعد ذكرنا لأخبار عمه الحسين بن حمدان.

ذكر أخبار الحسين بن حمدان بن حمدون، وهو أخو أبي الهيجاء

كان الحسين هذا من أُمراء بني حمدان المشهورين ولّي قمّ[1] وأعمالها، والموصل، والجزيرة، وغير ذلك من الأعمال الجليلة، وكان شجاعًا سفّاكًا، ذا همّة عالية، اجتمع عنده نيّف وعشرون طوقًا من خِلع الخلفاء كلّ طوق منها لقتلِه خارجيًا، ولم يزل عند الخلفاء يُعدّ للمهمات إلى أن خالف على المقتدر بالله في سنة ثلاث وثلاثمائة. وكان إذ ذاك بالجزيرة، وجمع نحوًا من عشرة آلاف، فبعث المقتدر لحربه رائقًا الحجري في جيش كثيف، فانهزم الحسين، وقصد ابنَ أبي الساج بأذربيجان، ومرَّ على أرزن[2] فخرج إليه واليها ليردَّه، فهزمه الحسين. وكان مؤنس المظفَّر بالقرب من أرزن، فبعث إليه من أدركه، وقبض عليه، وأدخل إلى بغداد، وهو مشهور على جمل في زي شنيع وابنه كذلك، وقبض عند ذلك على سائر إخوته، وهم أبو الهيجاء، وأبو العلاء سعيد، وأبو السرايا، وأبو الوليد، وحمدون، واعتُقِلوا في دار الخلافة، ولم يُتْرَكْ منهم إلا داود، وأقام الحسين في الحبس إلى أن عزَم الخليفةُ على إخراجه في سنة خمس وثلاثمائة وتوليته مقدمة الجيش لمحاربة يوسف بن أبي الساج، فلم يفعل، وامتنع، وقال: الساعة لما احتجتم لي، فغضب الخليفة لذلك، وأمر قاهرًا الخادم أن

---

(١) قم: بالضم وتشديد الميم: مدينة تذكر مع قاشان...، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها... ومنها إلى الريّ مفازة سبخة فيها رباطات ومناظر ومسالح... (معجم البلدان).

(٢) أرزن: هي مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية... وأرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضًا... وأرزن أيضًا: موضع بأرض فارس قرب شيزار، قال ابن الفقيه: بين نصيبين وأرزن ذات اليمين للمغرب سبعة وثلاثون فرسخًا... (معجم البلدان).

يقتله، فقتله في الحبس، ورمى رأسه إليه ورميت جثَّتهُ في دجلة، وأطلق عند ذلك سائر بني حمدان، وما منهم، إلا من له ذكر وتقدم، وإنما خصصْنا عبد الله والحسين بالذكر دون غيرهما من إخوتهما لاشتهارهما في الدولة العبّاسية، وتقدمهما، ولأنهما وليا جلائل الأعمال، وتقدما على الجيوش في الحروب. وقد تقدم من أخبارهما في الدولة العباسية ما يستدل به على تقدمهما وشجاعتهما، وذكرنا أيضًا في أخبار الخوارج بالموصل كيف كان ظفر الحسين بهارون الخارجي الذي كانت فتنته قد عمت، فلنذكر الطبقة الثانية منهم، وهم أولاد عبد الله بن حمدون.

ذكر أخبار ناصر الدولة

هو أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون. لما قتل والده كان يخلُفه بالموصل وأعمالها، فتقدم في خدمة الدولة العباسية، وتنقل في الولايات إلى أن تولّى الموصلَ في أيام الراضي بالله، وتغلب عليها في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة لما ضعفت الدولة العباسية، فندب ابن مقلة الوزير إليه عمه أبا العلاء سعيد بن حمدان، وولاه الموصل، وأمره بالقبض على ناصر الدولة، فلما قرب من الموصل، خرج ناصر الدولة لتلقيه، فخالفه سعيد، ودخل البلد ونزل داره، وقبض على خزائنه، فبلغه الخبر فرجع عجلاً، ودخل الدار، وقبض على عمه، وأمر بعض الغلمان بعصر مذاكيره، فعصرت حتى مات، وذلك في شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فاتصل الخبر بابن مقلة، فتجهز في العساكر الخليفية، وسار من بغداد إلى الموصل لخمس خلون من شعبان، وكان ناصر الدولة لدهائه ومكره لا يصافف[1] من يقصده، فلما بلغه خبر مسير ابن مقلة، رفع أمواله وخزائنه وحرمه إلى قلعة الموصل، وجعل فيها من خواص غلمانه من يدفع عنها، ثم خرج من الموصل في عسكره، وأخرج معه كل تاجر في البلد، ولم يترك بالموصل علوفة ولا قوتًا إلا رفعه إلى القلعة، فوصل الوزير ابن مقلة إلى الموصل، وهي بهذه الصفة، فأقام بحال سيئة، وبعث بالعساكر مع علي بن خلف بن طيَّاب في طلب ناصر الدولة، فسار خلفه ودخل ناصر الدولة إلى أرمينية، فعاد ابن طياب ولم يتبعه، وطال المقام على ابن مقلة، ونفدت الأقوات، فقلد الموصل لعلي بن خلف، وقلد جزيرة ابن عمر لماكرد

---

(١) يصافف: أي يقاتل عدوه صفوفًا.

الدّيْلمي، وقلد عبد الله بن أبي العلاء المقتول والده نَصيبِين[1] وعاد إلى بغداد، وانتهى الخبر إلى ناصر الدولة، فخرج من أرمينية، وقد أطاعه سائر ملوكها وجبى خراجها، وقصد الجزيرة وبها ماكرد، فكاتب ماكرد من كان مع ناصر الدولة من الأمراء، ووعدهم عن الوزير ابن مقلة، فاستأمنوا إليه، وفارقوا ناصر الدولة، فانفصل عن الجزيرة كالمنهزم وراسل علي بن أبي جعفر الديلمي وهو مع علي بن خلف بالموصل، ووعده الجميل والإحسان إليه، فأفسد من مع ابن طياب، ووصل ناصر الدولة إلى الموصل ودخلها، فاستأمنوا إليه، وخرج ابن طياب هاربًا في ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ثم جهز ناصر الدولة الجيوش مع علي بن أبي جعفر إلى الجزيرة لقتال ماكرد، وإخراجه منها، فلما قرب منها، فارقها ماكرد وسار إلى نصيبين، واستنجد بأبي ثابت العلاء بن المعمر، فجمع له العرب وأنجده، فكتب عليٌّ لناصر الدولة بالخبر بأخيه سيف الدولة علي بن عبد الله، وأمر علي بطاعته، ثم سار ناصر الدولة بنفسه تابعًا لأخيه وقاتل ماكرد وأبا ثابت، فقُتِلَ أبو ثابت، وهرب ماكرد إلى الرقة، وانهزمت بنو حبيب[2] بعد مقتل أبي ثابت إلى بلاد الروم وتنصروا إلى الآن، واستقامت مملكة الموصل، وديار ربيعة، ومضر لناصر الدولة، وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة خرج الخليفة الراضي بالله، ومعه بجكم طالبًا الموصل، فأخرج ناصر الدولة جيشه مع ابن عمه الحارث بن سعيد، فلما التقى الجيشان، وقع في جيش ناصر الدولة أنه استأمن، فانهزموا إلى ناصر الدولة، فدخل الموصل في ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من المحرم، وصلّى الجمعة، ثم خرج من الموصل، ودخلها بجكم يوم السبت، وسار ناصر الدولة إلى الخالدية ثم رحل منها يريد برْقعيد[3]، وبقي بها جماعة من أهله، ووافى بجكم

(١) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام. . . (معجم البلدان).

(٢) بنو حبيب: بطن من عبد شمس، من قريش من العدنانية؛ وبنو حبيب: بطن من بني عوف، من الأوس، من القحطانية. . وبنو حبيب: بطن من كنانة عذرة، من القحطانية. . وبنو حبيب أيضًا: بطن من خزاعة، من مزيقياء، من القحطانية. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٣) برقعيد: بالفتح وكسر العين وياء ساكنة، ودال: بليدة في طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين مقابل باشزى. . . وقال السرخسي: برقعيد بلدة كبيرة من أعمال الموصل من كورة البقعاء، وبها آبار كثيرة عذبة. . . (معجم البلدان لياقوت).

الخالدية، فأوقع بهم وخرج أبو وائل وتمادى الأمر على ذلك، ثم وقع الصلح على مال بذله الحسن، وعاد ناصر الدولة إلى الموصل لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر منها، واستمر إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة، والله أعلم بالصواب.

ذكر ولاية ناصر الدولة إمرة الأمراء بالعراق

كان سبب ذلك أن أبا الحسن بن البريدي لما ملك بغداد، وهرب المتقي لله إلى الموصل، ومعه أمير الأمراء أبو بكر بن رائق، واستنجد بناصر الدولة، فقتل ناصر الدولة ابن رائق في شهر رجب سنة ثلاثين وثلاثمائة كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة العباسية، فرد المتقي لله تدبير الدولة إلى ناصر الدولة وساروا جميعًا إلى بغداد ومع ناصر الدولة أخوه سيف الدولة، فانهزم البريديون من بين يديه، وتولّى ناصر الدولة إمرة الأمراء، ونعته المتقي بهذا النعت، ونعت أخاه: سيف الدولة، وخلع عليهما. وذلك في شوال سنة ثلاثين وثلاثمائة، وزوج المتقي لله ولده أبا منصور بابنة ناصر الدولة، وضرب ناصر الدولة السكة[١] عيادًا لم يضرب قبله مثله إلا السندي، وزاد على نقش السكة محمد رسول الله ﷺ وهو أول من فعل ذلك، وأقام ببغداد ثلاثة عشر شهرًا، ثم اجتمعت الأتراك، وقدَّموا عليهم توزون، وهو بواسط، وسيف الدولة في عسكره معهم، وبلغ ناصر الدولة قيام الأتراك، فسار إلى الموصل صحبة المتقي، وأمر أخاه سيف الدولة بمناصبة الأتراك، فكبسه توزون ليلًا، فانهزم إلى الموصل، ثم راسل توزون المتقي في الصلح فأجاب، ورجع فكان من أمره والقبض عليه وسمله ما قدمناه.

وأقام ناصر الدولة بالموصل لا يتعرض لبغداد إلى أن ملكها معز الدولة ابن بويه الديْلميّ، فتحرك إليها في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وحاصر معز الدولة ابن بويه حتى كاد يأخذه، ثم رجع عنها في صورة منهزم وامتنع من حمل المال، فتجهز معز الدولة إلى الموصل لقتاله، فرف أمواله إلى القلعة، ولم يترك في البلد قوتًا ولا علوفة البَتَّة وبقي في خيل جريده. فلما قرب معز الدولة إلى الموصل فارقها ناصر الدولة، وسار فكان تارة بنصيبين وتارة بآمد[٢]، وتارة ببلد، ونزل معز الدولة قصر ناصر الدولة، وأقام بالموصل، فنفدت الأزواد فبعث بغالاً تُقِلُّه مع سراياه إلى القرى لتحصل الأقوات والعلوفات، ففرّقَ عند ذلك ناصر الدولة بنيه، وهم

---

(١) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٢) آمد: بكسر الميم: هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا... وهو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشز دجلة... (معجم ياقوت).

ثمانية كل منهم تزيد مماليكه وغلمانه على خمسمائة رجل، فكانوا لا يجدون سرية إلا هزموها، ولا قافلة إلا نهبوها، فإذا خرج معز الدولة في طلبهم تكشفوا بين يديه، ويخلفه ناصر الدولة إلى الموصل، فيأخذ ما يجد بها من الأموال، ويرفعه إلى القلعة، وإن وجد أحدًا من قواده سجنه بها، فكان هذا دأبه إلى أن استقر الصلح بينه وبين معز الدولة في سنة خمس وثلاثين. وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة في شهر رجب ملك معز الدولة ابن بويه الموصل، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين، فتبعه معز الدولة، ففارقها، وبعث أولاده إلى الموصل لقتال من فيها، فرجع إليهم معز الدولة، فانكشفوا بين يديه، فسار إلى بلد، واجتمع ناصر الدولة بأولاده، وسار إلى الموصل، فأسروا من أصحاب معز الدولة الذين تركهم بها نيفًا وسبعين قائدًا: فقيَّدهم ناصر الدولة، وحملهم إلى القلعة، ومعهم ستمائة من الجند، ووجد مائة وثلاثين بدرةً لمعزِّ الدولة، فأخذها، وخرج من الموصل ومضى إلى حلب، وأقام عند أخيه سيف الدولة، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن تم الصلح بين معزِّ الدولة ابن بويه وسيف الدولة، وأبي تغلب بن ناصر الدولة على إطلاق الأسرى وردِّ ثمانين بدرة، فأجاب إلى ذلك ناصر الدولة، ورجع معز الدولة إلى بغداد، وعاد ناصر الدولة إلى الموصل، ولم يزل بها مالكًا لها من غير منازع إلى أن قبض عليه ولده.

ذكر القبض على ناصر الدولة ووفاته

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة في ليلة الثلاثاء لست بقين من جُمادى الأُولى، قبض عدة الدولة أبو تغلب فضل الله على والده ناصر الدولة، وهو نائم بعد أن شاخ وكبر، فحمله على فراشه إلى قلعة الموصل، واعتقله بها، فكان بها إلى أن مات، وكانت وفاته في يوم الجمعة وقت العصر لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فكانت مدة تغلُّبه نحوًا من ثلاث وثلاثين سنة، سوى ولاية الموصل قبل ذلك.

وكان له من الأولاد عشرة وهم: عدة الدولة الغضنفر أبو تغلب فضل الله، وكان قد ولاّه الجزيرة، وأبو المظفر حمدان ولاه نَصِيبين، وأبو الفوارس محمّد ولاه الموصل، وأبو القاسم هبة الله ولاه بلد، وأبو طاهر إبراهيم ولاه سنجار[1]، وأبو المرجّى جابر، وأبو البركات لطف الله، وأبو المطاع ذو القرنين، وأبو عبد الله الحسين.

---

(١) سنجار: بكسر أوله، وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. . . (معجم البلدان).

كُتَّابُه: دنجا بن إسحاق، كان كاتب المطيع لله، أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمٰن الشيرازي، وأبو الحسن الباهلي، وبهلون بن هاشم، وأبو القاسم بن مكرم.

ذكر أخبار سيف الدولة

هو أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون. كان في ابتداء أمره في خدمة أخيه ناصر الدولة إلى أن دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، فانفرد سيف الدولة بديار بكر، والسبب في ذلك أن علي بن أبي جعفر الديلمي لما استأمن إلى ناصر الدولة كما ذكرناه، وخرج على عليِّ بن خلف بن طياب سأله أن يولِّيه الجزيرة عند إخراج ماكرد منها، فاعتذر عنها، وكان أحمد بن نصر القنسَوري بديار بكر في عِدّة قليلة، فجهز ناصر الدولة مع علي بن أبي جعفر جيشًا، وأمره أن يسير إلى ديار بكر، فانصرف أحمد بن نصر عنها، ودخلها عليّ بن أبي جعفر، وسكن أرزن، وأقام الدعوة لناصر الدولة، وهو في خلال ذلك يحصِّن البلد، ويستكثر من الرجال والأجناد، فنمّي الخبرُ إلى ناصر الدولة، فلم يأمن شرَّه، وأمره بالقدوم عليه، فأبى ذلك، وأظهر العصيان، فندب ناصرُ الدولة عند ذلك أخاه سيف الدولة لحربه، وقال له: إن فتحتَ ديار بكر، وقبضتَ على عليّ الديلمي، ملَّكتُكَ بلادها وقلاعها من غير أن تَحمِلَ عنها شيئًا لخليفة، ولا لغيره، فسار سيفُ الدولة في ألف فارس، فتحصَّن منه في قلعة «أرزن» وهي المعروفة بحصن العيون، فنزل سيف الدولة تحتها على النهر المعروف بسربط[١]، وحصر عليًا بها، فبعث الديلميُّ حاجبه بدر الجستاني إلى ابن يرنيق ملك أرمينية، وإلى سائر بطارقتها يستنجد بهم على سيف الدولة، فاتَّصل خبر الحاجب بسيف الدولة، فرصده عند عوده، فقبض عليه، فسأله الديلمي الأمان على أن يمضي إلى بغداد، أو يبقى في خدمته، فأجابه إلى ذلك، وحلف له، ونزل إليه وسلَّم القلعة، فوفّى له سيف الدولة، وأقام عليّ في خدمته إلى أن استأمن إلى ابن رائق، وملك سيف الدولة بعد ذلك جميع بلاد أرمينية وما جاور بلاد بكر، ثم ملك حلب وانتزعها من يد الأخشيدية، ثم قُلِّد بعد ذلك الثغور الجزيرية، وهي طرسوس، وعين زَرْبة[٢]، والمصيصة[٣]، وما جاورهم من

(١) سربط: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة، والطاء: موضع في بلد أرمينية له نهر يعرف به ويصب في دجلة مأخذه من ظهر أبيات أرزن.

(٢) عين زربة: من الثغور قرب المصيصة.

(٣) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. . . (معجم البلدان).

الثغور، من غير أداء مال عن شيء مما بيده من الأعمال؛ لأنه كفى المسلمين أمر الروم نحوًا من أربعين وقعة له وعليه. وكان بعيد الهمة شجاعًا يلقى الأمور بنفسه.

وكان شاعره أبو الطيب المتنبي يمدحه في كل غزاة، ويذكر وقائعه، فكان الدمستق يقول: «بُلينا بشاعر كذَّاب، وأميرٍ خفيفِ الركاب».

وكان لسيف الدولة خمسمائة غلام أقران لهم بأس شديد، إذا حمل بهم في جيش حزقه[١]. وكان سنه عند ولايته خمس عشرة سنة، فظهرت شجاعته. وكان أديبًا فاضلاً وله شعر ذكره الثعالبي[٢] في يتيمة الدهر، ومن جملة غزواته أنه خرج غازيًا في ذي القعدة سنة ست وعشرين وثلاثمائة، فانتهى إلى حصن «دادم»[٣] وسار إلى حصن زياد[٤]، فشارف فتحه، وأقام عليه تسعة أيام، فوافاه الدمستق في مائتي ألف، فانكفأ راجعًا يريد شمشاط[٥]، وخيول الروم تسايره، فلما كان يوم النحر وصل إلى موضع بين حِصْني زياد، ودادم وسلام، فوقف، وأقبلت عساكر الروم، فناجزهم القتال، فهزم الله الروم، وأسر سيف الدولة منهم سبعين بطريقًا، ولم يزل القتل والأسر فيهم إلى الليل، وأخذ سرير الدمستق وكرسيه. ولسيف الدولة مع الروم وقائع كثيرة مشهورة ذكرها كثير من المؤرخين تركناها لاشتهارها.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة. ملك سيف الدولة مدينة حلب، وانتزعها من يد أحمد بن سعيد الكِلابيّ صاحبِ الإخشيد، واتفق خروج العدوّ إلى تلك النواحي، فسار إليهم، وأوقع بهم وقعة عظيمة، فاعتصموا منه بجبل منيع، فصعد إليهم، فكان منهم من ألقى نفسه من الجبل فمات، وغنم منهم غنيمة عظيمة.

ولما بلغ الإخشيد ذلك أنفذ عسكره مع كافور، فهزمهم سيف الدولة، ودخل حمص وأعمالها، فملكها وسار إلى دمشق، ودخلها، فكاتبه الإخشيد، وبذل له الموادعة بعد أن بذل له أن يحمل إليه من المال نظير ما كان يحمل لابن رائِق، فلم

---

(١) حزقه: ضيّق عليه.

(٢) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري... له من التواليف «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها.. وله أيضًا كتاب «فقه اللغة» و«سحر البلاغة وكسر إبداعه» وغيرها من المصنفات... (وفيات الأعيان ٣:١٧٨).

(٣) دادم: من ثغور الروم؛ غزاها سيف الدولة.

(٤) حصن زياد: بأرض أرمينية يعرف اليوم بخرتبرت، وهو بين آمد وملطية، وهو إلى ملطية أخرب... (معجم البلدان).

(٥) شمشاط: بكسر أوله وسكون ثانيه، وشين مثل الأولى، وآخره طاء مهملة: مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت، وهي الآن محسوبة من أعمال خرتبرت... (معجم البلدان لياقوت).

يجب إلى ذلك، وقال: جوابك إذا دخلت مصر إن شاء الله. ثم جرت بينهما أُمور، واتَّفقا على أن يكون لسيف الدولة حمصُ، وحلبُ، وما بينهما، وأفرج عن دمشق، وتزوج بابنة أخي الإخشيد: ثم مات الإخشيد عند رجوعه على ما نذكره في أخباره، وذلك في المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، فمضى سيف الدولة إلى دمشق، واستأمن إليه جماعة منهم: «يانس المونسي»، وأقام بها. ثم سار لحرب كافور الإخشيدي، فنزل اللَّجُون[١] والإخشيدية بقربه، والتقوا، فانهزم جيش سيف الدولة، ورجع هو إلى دمشق، فأخذ والدته وخاصَّته وأمواله، وسار إلى حلب، ثم وقع الصّلح بينهم في سنة ست وثلاثين على ما وقع بينه وبين الأخشيد أولاً.

وفي فتح سيف الدولة دمشق يقول الخالديان[٢]: [من المتقارب]

يا سيف دولة آل النبيِّ	حويتَ العلا دولةً وابتداء
ليهنكَ أنَّك داني الندا	ومجدُك فوق النجوم اعتلاء
وأنَّك لما ملكتَ الملوك	تكبَّرت أن تلبس الكبرياء
ولما حويتَ العراق انكفيت	إلى عرصاتِ الشام انكفاء[٣]
وجُزتَ دمشق فطهرتها	وأبدلتَها بالظلام الضياء
وما مصرُ عنك بممنوعةٍ	إذا ما استعنتَ عليها القضاء

وفي سنة ست وثلاثين ظفر سيف الدولة القَرْمطي الملقب بالهادي، واستنقذ أبا وائل.

وفي سنة إحدى وأربعين بنى سيف الدولة مرعش[٤]، فسار إليه الدمستق، فأوقع به سيف الدولة. وفي سنة اثنتين وأربعين فتح حصن العريمة[٥]، وأخرب مدينة ملَطْية[٦]،

---

(١) اللجون: بفتح أوله وضم ثانيه وتشديده، وسكون الواو، وآخره نون: هو بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً... (معجم البلدان).

(٢) الخالديان: هما أبو بكر (محمد بن هاشم) وأبو عثمان (سعيد بن هاشم).

(٣) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

(٤) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني... (معجم البلدان).

(٥) العريمة: موضع بين أجأ وسلمى، وهو رمل وبه ماء يعرف بالعيسية، وقيل: العريمة: رملة لبني سعد، وقيل: لبني فزارة، وقيل: بلد.

(٦) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام، وهي للمسلمين... (معجم البلدان).

وكان الدمستق قد أخرب الحَدَث في سنة سبع وثلاثين، فسار إليه سيف الدولة، ونزل به في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين، فحطّ الأساس، وحفر أوله بيده، وحفر الناس وأقام إلى أن بناه ووضع بيده آخر شرّافة[١] منه لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب من السنة. وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. ورد على سيف الدولة من سائر الثغور طرسوس، وأذنة، والمصيصة رسل نوابه، ومعهم رسول ملك الروم في طلب الهدنة، فهادنهم، ولم يزل سيف الدولة في ملكه يومًا له ويومًا عليه إلى أن كبرت سنه. وضعف في آخر عمره واضطرب أمر دولته.

ذكر اختلال دولته واستيلاء الدمستق على حلب وما أخذه من أموال سيف الدولة

قال: ولما كبر سيف الدولة وضعفت قدرته لمرض لحقه في آخر عمره فلج منه نصفه، وتفرقت عنه البوادي وتقاعد عنه المسلمون، وفسد ما بينه وبين ابن الزيات أمير الثغور من قبَله، واشتغل عنه أخوه ناصر الدولة بحرب معز الدولة، فلم ينجده، فقويت الروم، واستولى الدمستق على الثغور، ثم قصد حلب في حشد عظيم من الروم والأرمن، فلم يشعر به سيف الدولة إلا وقد أطلَّ على البلد، فقاتله سيف الدولة، وحمل بنفسه وغلمانه وابن أخيه هبة الله بن ناصر الدولة حتى كاد أن يؤخذ، فانهزم، ومَلَكَ الرومُ دارَ بظاهر حلَب وكان ذرعُها ستة آلاف ذراع، وأخذ منها ما لا يحصى من الأموال، فكان من جملة ما أخذ مائةُ بَدرةٍ ذهبًا، ومائتا بدرة من الورق، وثلاثمائة حمل من البزّ الفاخر، وخمسون حملاً من الديباج، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة، ومن الخيل ثمانمائة فرس، ومن البغال خمسمائة، ومن السلاح، والمناطق، والتجافيف[٢]، والسيوف مائة حمل، ومن الجمال ألفا جمل، ونقل سقوف الدار معه.

وكان نزوله على حلب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وفتح البلد في يوم الثلاثاء، وأقام فيه إلى يوم الثلاثاء الكائن بعده، وتحصن أهل حلب في القلعة بما أمكنهم من الأموال، واستولى

---

(١) الشّرافة: زوائد توضع في أطراف الشيء تحلية له.

(٢) التجافيف: جمع التجفاف: هو ما يلبسه المحارب كالدرع. أو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب.

الدمستق على البلد بما فيها، ثم فارقها، ورجع سيف الدولة إليها، وقد ذهب أكثر أمواله، فبعثت له أخته هدية من ميّافارقين[١] كان من جملتها مائة ألف دينار.

ذكر وفاة سيف الدولة

كانت وفاته رحمه الله في الضحى من نهار الجمعة لخمس بقين من صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وكان مولده في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثمائة، فكان عمره اثنين وخمسين سنة وشهرين وثمانية أيام. وكانت مدة ملكه نحوًا من ثلاثين سنة. وكان شجاعًا كريمًا معجبًا بآرائه محبًا في الفخار والبذخ مظفرًا في حروبه جائرًا على رعيته، اشتد بكاء الناس منه وعليه، وكان له من الأولاد خمسة. وهم: أبو الهيجاء عبد الله، توفي في حياة أبيه في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. وأبو البركات وهو أكبرهم، توفي في حياة أبيه في جُمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. وأبو المعالي شريف، وهو الذي ملك بعد أبيه. وأبو المكارم مات في حياته. وست الناس ابنته.

كتابه: أبو الحسن علي بن الحسين المغربي والد الوزير. وأبو محمد بن الفياض. وأبو إسحاق محمد أحمد القراريطي، وأبو الفرج محمد بن علي السرّمرّائيّ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن فهد الموصلّي وغيرهم.

حجابه: نجا غلامه، وقرعوية، وبقي.

فهذه الطبقة الثانية من آل حمدان. فلنذكر الطبقة الثالثة منهم.

ذكر أخبار عدة الدولة الغضنفر

وهو أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة أبي محمد الحسن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون.

ملك الوصل، وما كان بيد أبيه عند قبضه على والده ناصر الدولة في ليلة الثلاثاء لستٍّ بقين من جُمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وأطاعه سائر إخوته إلا أبو المظفر حمدان، وهو الذي يليه في العمر. وكان ناصر الدولة قد قلده الرحبة، ولما مات عمه سيف الدولة سار إلى الرقة ونصيبين، فملكها، وسوَّغه والده ارتفاع جميع تلك البلاد. فكتب أبو المظفر إلى أخيه أبي تغلب يأمره بإطلاق والدهما

---

(١) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر.

ناصر الدولة، وتوعَّده إن لم يفعل، فغضب لذلك، وفسد الحال بينهما، وجرت بينهما أُمور يطول شرحها، فجهز أبو تغلب جيشًا لقتال أخيه، وجعل عليه أخاه أبا البركات، فكان له معه حروب ووقائع، آخرها أن أبا المظفر حمدان ظفر بأخيه أبي البركات، وضربه على رأسه، فسقط إلى الأرض، فأخذه أسيرًا واستباح سواده، وانقسم عسكره بين مستأمن إلى حمدان، وأسير، وقتيل، ثم انكفأ حمدان إلى قَرْقيسياء ليعالج أخاه من ضربته، فمات أبو البركات بعد أيام فأنفذه حمدان في تابوت إلى الموصل، واستحكمت عند ذلك العداوة بين بني حمدان، وبين أخيهم أبي تغلب. واختلف باقي الإخوة، وكانوا متفرقين في أعمالهم فاحتال أبو تغلب على أخيه محمد، وكان واليًا على نصيبين حتى قبض عليه، وذلك في شعبان سنة ستين وثلاثمائة واعتقله في قلعة أرْدُمشْت[1]، فلم يزل بها حتى هرب أبو تغلب، وملكها عضد الدولة ابن بويه، فأطلقه وأكرمه، ورد عليه ضياعه ومنها قلعة: الشعباني، وقلعة أهرون، وغيرهما من القلاع. وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة سلّم أخو حمدان لأُمه لأبي تغلب الغضنفر قلعةَ ماردين[2]، فأخذ منها جميع أمواله وحرمه، وكان المحاصر له بجيش أبي تغلب أبو اليقظان عمار بن أبي السرايا نصر بن حمدان. في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة في آخر يوم من شهر رمضان أوقع أبو القاسم هبة الله بن ناصر الدولة بالدمستق ملك الروم الوقعة المشهورة، وكان الدمستق في نحو خمسين ألفًا فأسر أبو القاسم، وقتل أكثر الجيش وكانت الوقعة على بلد. قال: ثم أخذ أبو تغلب في استفساد إخوته واحدًا بعد واحد حتى صاروا بأجمعهم إليه إلا أبو طاهر إبراهيم، فإنه استأمن إلى بختيار، ومضى إلى بغداد. وسار أبو تغلب بجماعة إخوته إلى قرقيسياء، فنزل بها، وبعث أخاه، أبا القاسم هبة الله إلى الرحبة في جيش ليوقع بأخيه حمدان، فخرج حمدان هاربًا، واتبعه ابنه أبو السرايا وسلك طريق البرية، وكاد هبة الله أن يأخذه. وقيل: إنه قدر عليه وتركه، وسار حمدان إلى بغداد، فدخلها في ذي الحجة سنة ستين وثلاثمائة، واجتمع بأخيه إبراهيم، وأقاما عند بختيار مدة، ثم كوتب إبراهيم من الموصل بالعودة إلى طاعة أخيه فهرب، فأُغضب ذلك عز الدولة بختيار وسار إلى الموصل في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين، فدخلها، ورحل أبو تغلب إلى

---

(١) قلعة قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة.

(٢) ماردين: بكسر الراء والدال: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات. . . (معجم البلدان).

سنجار. ثم تقرر الصلح بينهما على أن يفرج أبو تغلب لأخيه حمدان عن ضياعه التي كان قبض عليها، فأجاب إلى ذلك، وأفرج له عنها، واستقر ملك الغضنفر بالموصل إلى أن ملك عضد الدولة ابن بويه بغداد، وأخرج ابن عمه عز الدولة بختيار إلى الشام وشرط عليه ألا يتعرض إلى بلاد عدة الدولة الغضنفر، فأجاب إلى ذلك، وسار وصحبته حمدان بن ناصر الدولة فلما وصل مبكرًا أفسد حمدان نيته، وحرضه على طلب بلاد أخيه أبي تغلب، فعزم على ذلك، وسار فنزل تكريت[1]، فوصل إليه علي بن عمر الكاتب بهدية من أبي تغلب، وصحبه في الطريق، فلما خلا به أفسد بينه وبين حمدان وعرفه أن مصالحة أبي تغلب بإفساد حمدان هي الرأي الصريح، وذكر أنه سلم حمدان إلى أبي تغلب عاضده على إخراج عضد الدولة من العراق وأعاد مملكته إليه، ولم يزل يغريه إلى أن بعث لأبي تغلب، وأخذ عليه العهود بذلك، وقبض عند ذلك على حمدان، وسار لأبي تغلب، وأُخته جميلة، فحبساه، ثم قتلاه صبرًا، وهرب ولده أبو السرايا إلى عضد الدولة ببغداد.

ذكر فساد حال عدة الدولة، وزوال ملك بني ناصر الدولة وما كان من أمر عدة الدولة إلى أن قتل

قال: ولما قتل أخاه جمع الجموع لنصرة عز الدولة بختيار وجمع بختيار أيضًا، وسارا إلى بغداد وخرج عضد الدولة، فنزل الحصن غربي سامرا، ونزلا تجاهه، وباركوا القتال في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من السنة، وبعث الجيوش في طلب أبي تغلب عدة الدولة، ومحمد ابن عمه معز الدولة، فتنقل أبو تغلب في البلاد من مدينة إلى أخرى، والجيوش تطلبه إلى أن سار إلى حصن زياد، كاتب ملك الروم قلاروس المنعوت بورد يستنجده، وكان ورد قد خرج عليه ملك آخر، وانفضت عنه جموع الروم، فبعث إلى أبي تغلب يسأله اللحاق به ليلقى الخارج عليه، فإنْ نُصِرَ عليه عاد معه لنصرته، فبعث إليه أبو تغلب قطعة من جيشه، ثم عاد فنزل بآمد وأقام بها قريبًا من شهرين، فاستولى عضد الدولة على ميافارقين والجزيرة، وسائر بلاد عدة الدولة، ففارق آمد عند ذلك، وسار إلى دمشق، وملك عضد الدولة آمد والرحبة، وسائر بلاد بني حمدان إلا ما كان في يد سعد الدولة ابن

(١) تكريت: بفتح التاء والعامة يكسرونها: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخًا، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. . . (معجم البلدان).

سيف الدولة، فإنه لم يتعرض إليه كحلب، وديار مضر، وربيعة، وما والاها من الحصون والبلاد لخدمة خدمه بها سعد الدولة، ثم ملك عضد الدولة بعد ذلك قلاع أبي تغلب التي فيها أمواله وذخائره وهي من جانب دجلة الشرقي على طريق الجزيرة.

قال: ولما وصل أبو تغلب إلى دمشق وجد قسام العيّار متغلبًا عليها، فنزل بظاهرها، وكتب إلى العزيز خليفة مصر يسأله أن يولِّيه الشام، فخاف العزيز عاقبته، وكاتبه بأن يفعل ذلك، ويأخذها من قسّام، وكاتب قسّام ألاَّ يسلِّم إليه البلد، فطال الأمر على أبي تغلب، وضجر من تردد الرسائل، واجتمع معه بنو عقيل، فسار وقصد الرملة، وذلك في المحرم سنة تسع وستين وثلاثمائة، فهرب دغفل بن الجراح منه، ثم حشد، وجمع، وقصد الرملة، والتقى مع أبي تغلب على باب الرملة في يوم الاثنين لليلة خلت من صفر سنة تسع وستين، فانهزم بنو عقيل، وسائر من مع عدة الدولة، ولم يبق معه إلا غلمانه، وهم نحو سبعمائة فارس، فانهزم بهم، وأدركته الخيل، فثنى وجهه لقتالهم، فقتل فرسه، وأسره سبع الطائي وهو ابن عم لد غفل بن الجرّاح، وسلمه إلى دغفل، فقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من صفر سنة تسع وستين وثلاثمائة؛ وكان مولده يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه إلى حين انفصاله عن آمد نحوًا من ثنتي عشرة سنة. وكان له من الأولاد: أبو الهيجاء أحمد، وأبو الفتح نصر الله.

كتابه: أبو موسى النصراني، وقرة بن ديما، وأبو الحسن علي بن عمر بن ميمون، وعلي بن عمر بن عمر.

فلنذكر أخبار أولاد سيف الدولة:

ذكر أخبار سعد الدولة

هو أبو المعالي شريف ابن سيف الدولة أبي الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون.

ملك حلب وديار بكر، وغير ذلك مما كان بِيَد والده سيف الدولة بعد وفاته في يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ولما توفي والده سيف الدولة بحلب كان سعد الدولة بديار بكر، فاجتمعت غلمان أبيه: فرعون، وبقي، وبشارة، وغيرهم على تقديمه ونصرته، وضبط قرعويه حلبًا نيابة عنه، وبعث بتابوت مولاه إلى ديار بكر مع بقي وبشارة الخادم في جُمادى الأولى من السنة وكان

بينَ بقي وبشارة منافرة، فأذاع بقي عن بشارة أنه قد كاتب حمدان بن ناصر الدولة، وكان قد غلب على الرقة ونصيبين عند وفاة عمه، وعزم على أخذ حلب وكتب بقَي إل قرعويه بذلك، فقبض على أسباب بشارة بحلب، ولما بلغ بشارة الخبر داخل بقي وآنسه، وأظهر له المودة فأنس به، وأخبره بما أضمره، وأنه يقصد الاستيلاء على ديار بكر، ويقبض على أبي المعالي ابن مولاه، ويملك هو التدبير، وضمن لبشارة أنه يسلم إليه ميافارقين، فأظهر بشارة القبول، والإقبال عليه، وسار بمسيره، فلما قربوا من ميافارقين، كتب بشارة إلى أبي المعالي يحذره من الخروج للقاء التابوت، ويعرفه ما عزم عليه بقي، فأظهر أبو المعالي علة، وامتنع من الركوب، وأخرج أهل البلد لتلقي التابوت، فلم يدخل بقي المدينة، ووكل بأبوابها خلقًا من الرجال الذين أعلمهم بالخبر، وقبض على قوم من الكتاب، وطالبهم بمال ينفقه في رجاله، فدخل بشارة المدينة، وطلع على السور، وأغلق الأبواب، وخاطب أصحاب بقي عن أبي المعالي بكل جميل، فمالوا إليه، وفارقوا صاحبهم فبطل ما دبره بقَي، وسار إلى منازكرِد[١]، وكتب إلى أبي المعالي يطلب منه الأمان، فأمنه، ولما حصل عنده قبض عليه، وسلمه لبشارة، فقتله، وسار أبو المعالي إلى حلب في شهر رجب من السنة.

ذكر مقتل أبي فراس الحارث
واستيلاء أبي المعالي على حمص

قال المؤرخ: كان سيف الدولة قد أقطع أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، وهو خال أبي المعالي شريف حِمْصَ بعد خلاصه من أسر الروم، فأكثر الظلم والتعدي على أهلها. فلما توفي الأمير سيف الدولة اضطربت أُموره، ثم فسد ما بينه وبين ابن أُخته أبي المعالي، فسار أبو المعالي، ففارق حِمْص، وانحاز إلى ضيعة له في طريق البرية تعرف «بصدد»[٢]، وجمع سعد الدولة أعراب بني كلاب وظالمًا العقيلي، وبعثهم على مقدمته مع قرعويه، فكبس أبا فراس «بصدد»، فناوشهم القتال، ثم قتله بعض غلمان قرعويه، وعاد سعد الدولة إلى حمص، فولاها لذكا غلام قرعويه.

---

(١) منازكرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يعد في أرمينية وأهله أرمن وروم.

(٢) صدد: موضع.

ذكر استيلاء قرعويه على حلب، وإخراج أبي المعالي عنها

قال: ثم فسد ما بين سعد الدولة وبين قرعويه، ووافقه أكثر الغلمان، وأهل البلد، فأخرج أبا المعالي منها، وقطع دعوته، وتغلّب على البلد، فسار سعد الدولة إلى أرزن، وميّافارِقين، فمرّ في مسيرة بحران[١]، فأغلق أهلها الأبواب في وجهه، ومنعوه من الدخول إليها إلا أنهم لم يقطعوا دعوته، فمضى إلى ميّافارقين، وكانت والدته بها، فبلغها أن غلمانه قد عزموا على القبض عليها، وحملها إلى القلعة، فأغلقت أبواب المدينة في وجه ابنها ثلاثة أيام إلى أن توثقت منه، وممن معه، ومن أجناده، ثم فتحت الأبواب وأطلقت أرزاق غلمانه، فصلحت أحوالهم، ثم جمع سعد الدولة واحتشد، وسار إلى حلب، فنزل عليها في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وحاصرها، وفي مدة غيبته نزل أبو البركات ابن ناصر الدولة بجيش على ميّافارقين، فأغلقت والدة أبي المعالي الأبواب دونه، وضبطت البلد، وراسلته تتعرف منه سبب مقصده. فعرفها أنه يقصد العدو، وأنه يريد منها ما يتقوى به على قصده، فبذلت له مائتي ألف درهم، فلم يقنع بها، وطلب منها ضياعًا كانت لسيف الدولة بالقرب من نَصِيبِين، فأعملت التدبير إلى أن أفسدت عليه جماعة ممَّن معه، ثم ركبت، وكبسته في عسكره، وقتلت جماعةً من غلمانه، فانهزم أبو البركات، وراسلها، فردَّت عليه بعضَ ما نهبت منه، وأطلقت له مائة ألف درهم، وأطلقت حاجبه، وكانت قد أسرته، فرحل عنها. ولم يزل أبو المعالي على حصار حلب حتى فتح الرومُ أنطاكية في يوم النحر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، واستقرُّوا بها، وأنفذوا جيشًا لأخذ حلب، فارتحل أبو المعالي عنها، ونزلت الروم عليها، وملكوا المدينة، فصالحهم قرعويه على أن يؤدِّي لهم جالية[٢]، ويكون في ذمَّتهم إلى أن يموت، فإن مات ولّي مكانه غلامه بكجور، وكتب فيهم كتابًا، ونزل أبو المعالي معرة النعمان[٣]، ووالدته نائبة عنه بميّافارقين، فورد عليها الخبر أن ملك الروم تحرك لقصد ديار بكر، فخافت أنها لا تنهض بضبط ميّافارقين، فتبرأت من الأمر، ودبر البلد أهله، ثم راسلوا أبا تغلب ابن ناصر الدولة في وال، فبعث إليهم أبا الفوارس هزارمرد أحد مماليك سيف الدولة الكبار.

---

(١) حران: بتشديد الراء وآخره نون: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان.

(٢) دفع لهم جالية: أي دفع لهم مالاً نظير جلائهم.

(٣) معرة النعمان: النعمان هو النعمان بن بشير صحابي اجتاز بها فمات له بها ولد فدفنه وأقام عليه فسميت به: وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين.

ذكر الصلح بين سعد الدولة وقرعويه، والقبض على قرعويه، وقيام بكجور، وعود ملك «حلب» إلى سعد الدولة

وفي سنة تِسْع وخمسين وثلاثمائة تمّ الصلح بين أبي المعالي وقرعويه، ودعا له بحلب، وكان أبو المعالي ينزل بحماه، وكانت حمص قد أخربها الروم عند دخولهم إليها في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين، فنزل دقطاش غلام سيف الدولة بها وعمرها لأبي المعالي، فنزلها بعد ذلك، وكان قرعويه قد قدم غلامه بكجور على قرعويه، واعتقله، وملك حلب، وأقام بها نحوًا من خمس سنين، فلم يرض أهلها سيرته، وكاتبوا أبا المعالي، فسار إليها، ونزل معرة النعمان، ففتحها، ثم نزل على حلب في سنة ست وستين وثلاثمائة، وأقام عليها نحوًا من أربعة أشهر، وافتتحها بحيلة، وتحصن بكجور بالقلعة، ثم صالح على أن يوليه سعد الدولة حمص، وسلّم القلعة بما فيها، فتسلمها سعد الدولة، ووفى لبكجور، وعظمت مملكة أبي المعالي عند ذلك، وقويت حرمته، وتمكنت دولته.

ذكر تولية سعد الدولة من قبل الخليفة وتلقيبه

كان سبب ذلك أن عضد الدولة البويهي لما ملك العراق بعد ابن عمه عز الدولة بختيار كاتبه أبو المعالي يبذل له الطاعة والدعوة، فتنجز له من الخليفة الطائع لله الخلع واللَّقب بسعد الدولة، والولاية على ما بيده من الأعمال، وأرسل ذلك مع رسول، وخادم الخلافة. وكان جلوس الخليفة لذلك في شهر رجب سنة سبع وستين وثلاثمائة.

ذكر خلاف بكجور على الأمير سعد الدولة وما كان من أمره

قال: وأقام بكجور بحمص، وعمّرها أحسن عمارة، وأمَّن أهلها وطُرُقاتها إلى أن وقع بينه وبين سعد الدولة في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. فسار بكجور إلى حلب وحاصرها، فبلغ ذلك ملك الروم، فسار لنصرة أبي المعالي ونزل أنطاكية، وكان معه مفرج بن دغفُل بن الجراح، وكان بين مفرج وبكجور مودة، فكتب إليه مفرج يخبره بقصد الروم، فرحل عن حلب، وسار إلى حمص وأخذ ما أمكنه من أمواله، وكان العزيز صاحب مصر استدعى بكجورًا ليوليه الشام ودمشق لما اشتهر من شهامته، فتولى دمشق بعد خطب عظيم جرى له، واضطراب حال، ودخلت الروم حمص الدخلة الثانية بإذن سعد الدولة لأنه خاف أن يملكها بكجور بالمغاربة، وكان دخولهم إليها في يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

وتسلم بكجور دمشق في يوم الأحد مستهل شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة. ثم وقع بين بكجور، وبين يعقوب بن كِلِّس الوزير، فقبض بكجور على وكلاء الوزير بدمشق، فاستحكمت العداوة بينهما، وأفسد الوزير نفس نزار صاحب مصر على بكجور، فبعث منيرًا الخادم في سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة لقصد بكجور، وإخراجه من دمشق من غير إظهار ذلك بل أظهر أنه قصد بإرساله طرد مفرج بن دغفل من دمشق، وجرى من الأمور ما أوجب خروج بكجور بأمواله وحرمه من دمشق. وكان خروجه في يوم الثلاثاء منتصف شهر رجب سنة ثمان وسبعين. وسار بكجور إلى الرقة[1]، وكان قد بعث غلامه وصيفًا في سنة ست وسبعين وثلاثمائة إليها، فتسلمها من ديلمي، وكان بها من أصحاب عضد الدولة بعد وفاته، فلما دخلها بكجور راسل الطائع لله، فلم يجد عنده ما يؤثره، فأقام على الدعوة لنزار صاحب مصر، وبعث إليه نزار يقول: إني ما أردت إخراجك من دمشق، وإنما أردت طرد ابن الجراح منها، وأبقى عليه ضياعه، وأمواله بها، وقوي أمر بكجور بالرقة، واشتد طمعه في أخذ حلب من سعد الدولة وكاتب نزارًا بذلك، وطلب إنجاده، فكتب نزار إلى والي طرابلس بالمسير إلى بكجور متى استدعاه، وجمع بكجور العرب وكتب إلى نزار والي طرابلس أن يوافيه بحلب، وكان سعد الدولة قد كاتب بسيل ملك الروم يعلمه بذلك، ويطلب منه أن يأمر نائبه بأنطاكية، وسائر الثغور بإنجاده متى طلبهم، فكتب بسيل لهم بذلك، ثم أرسل سعد الدولة بكجور، وبذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص، فقال لرسوله: «قل له الجواب ما تراه دون ما تسمعه» ثم سار بكجور لحرب سعد الدولة، وتقدمت مقدماتها فتطاردا، فكان سعد الدولة يخلع على من أبلى من أصحابه، وينعم عليهم ويحملهم، وبكجور يكتب أسماء من أبلى من أصحابه لينظر في أمرهم، فتغيرت لذلك قلوبهم. ثم كاتب سعد الدولة أعراب بكجور، وأطمعهم فعصوا على بكجور ونهبوا سواده. ثم سار كل من العسكرين في يوم السبت لسبع خلون من صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة إلى الآخر، والتقوا، واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر لسعد الدولة وأصحابه على بكجور، فانهزم إلى حلب، واستولى القتل والأسر على غلمانه، واستخفى بكجور في بيت رحى بظاهر حلب، وتقلبت به الأحوال إلى أن استجار ببعض العرب، فحمله إلى سعد الدولة، فضرب عنقه، ثم سار سعد الدولة بعد أن أعاد الروم إلى بلادهم، وقصد الرقة، فنازلها وتحصن منه

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. . . (معجم البلدان).

سلامة الرشيفي غلام بكجور بحصن الرافقة، ومعه حرم بكجور وأمواله، وابن المغرب يكاتبه، فكاتبه سعد الدولة في تسليم الحصن، فبعث سلام إليه يقول: أنا عبدك، ولكن لبكجور عندي صنائع تمنعني من تسليم الحصن إلا أن أستوثق لحرمه وأولاده، فإن أمنتهم على أن يكون لك السلاح من أموالهم دون غيره سلمت لك الحصن، فأجابه سعد الدولة إلى ذلك، وحلف له وتسلم الحصن. ولما نزل أولاد بكجور، وحملوا أموالهم قال ابن أبي حصين قاضي حضرة سعد الدولة: إن بكجورًا مملوكك لم تعتقه، وأولاده كذلك ولا مال لهم، ولا إثم عليك في أخذ أموالهم، فقبض عليهم عند ذلك، وأخذ الأموال، وهرب ابن المغربي إلى الكوفة، وكتب أولاد بكجور بذلك إلى العزيز نزار صاحب مصر، فكتب العزيز إلى سعد الدولة كتابًا يهدده فيه ويقول: إن لم تطلق آل بكجور وأموالهم بعثت الجيوش لحربك. وأنفذ الكتاب مع فائق الصقلبي، فوصل إليه، وقد عاد من الرقة، وهو نازل بظاهر حلب. فلما وقف سعد الدولة على الكتاب غضب، وأحضر الرسول، وصفعه، وألزمه أن يأكل الكتاب فتناوله، ومضغه حتى فرغ منه، وقال له: عد إلى صاحبك، وقل له لا حاجة لك في إرسال الجيوش، فأنا سائر إليك، والخبر يأتيك من الرملة[1]، وعزم سعد الدولة على قصد العزيز صاحب مصر، فعاجلته منيته.

ذكر وفاة سعد الدولة

كانت وفاته ليلة الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وسبب ذلك أنه لما أعاد رسول العزيز بالرسالة التي ذكرناها قدَّم بعض جيوشه إلى حمص. وأقام هو بظاهر حلب أيامًا ليرتب أحواله، فعرض له قُولنج أشفى منه، فأشار أطباؤه عليه بدخول حلب وملازمة الحمام، ففعل ذلك وانتفع وصح، فلما كان في اليوم الثالث من صحته زُين له البلد ليركب، فجاءته جارية في ليلة ذلك اليوم من جملة حظاياه، وكن أربعمائة حظية، وكان سعد الدولة يهواها، فلما رآها ما تمالك عند رؤيتها أن واقعها، فلما فرغ سقط عنها، وقد جف نصفه الأيمن، وفلج فدخل عليه النفيس الطبيب، والتمس أن يجس نبضه، فناوله اليد اليسرى فقال: يا مولاي اليمين، فقال: يا نفيس ما تركت لي اليمين شيئًا، أراد بذلك نقض اليمين التي حلفها لآل بكجور. وتوفي في هذه المرضة.

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، كانت رباطًا للمسلمين... والرملة أيضًا: قرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين.. والرملة: محلة بسرخس... (معجم ياقوت).

ومن العجب أن والده سعد الدولة فلج نصفه الأيسر قبل وفاته. وفلج نصف سعد الدولة الأيمن، فاجتمع منهما مفلوج، وكانت مدة ملكه خمسًا وعشرين سنة وتسعة أشهر. وكان له من الأولاد: أبو الفضائل وهو الأكبر، وأبو الهيجاء.

كتابه: أبو الحسن المغربي والمصيصي وغيرهما.

حاجبه: لؤلؤ الكبير الجراحي وغيره. والله أعلم.

ذكر أخبار أبي الفضائل بن سعد الدولة أبي المعالي شريف بن سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون

ولّي بعد وفاة أبيه في يوم الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وذلك أن والده سعد الدولة لما أدركته الوفاة عهد إليه، وأوصى لؤلؤًا الجراحي، وجعله مدبر جيشه، وأوصاهما بالسيدة ستّ النساء، وبولده أبي الهيجاء عبد الله الأصغر.

ذكر ما كان بين لؤلؤ الجراحي وبين العزيز نزار صاحب مصر

وفي سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وصلت جيوشُ العزيز نزار صاحب مصر لمحاصرة حلب، وسبب ذلك أن ابن المغربي لما انهزم من سعد الدولة إلى الكوفة عند القبض على آل بكْجور كاتب العزيز يستأذنه في الانضمام إليه، والانحياز إلى جهته، فأذن له، فسار إليه، ودخل القاهرة في يوم الخميس النصف من جُمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وبلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره في عظائم الأمور، ويأتمنه على الأسرار، فلما بلغه وفاة سعد الدولة حسَّنَ للعزيز أن يبعث جيشًا إلى حلب، وكان العزيز قد بعث بمنجوتكين التركي في جيش إلى دمشق في تاسع شهر رمضان سنة إحدى وثمانين، وأمره بحرب منير الذي كان قد تسلَّم دمشق من بكجور، ولأنه كان قد عصى على العزيز، فأمره أنه إذا أخذ دمشق يمضي إلى حلب، واستكتب العزيز بن المغربي، فسار إلى دمشق، وهزم منيرًا، واستولى على البلد للعزيز، وأقام بها إلى أن انسلخت سنة إحدى وثمانين، وسار إلى حلب، وكان لؤلؤ قد كتب إلى بسيلْ ملك الروم، وعقد بينه وبين أبي الفضائل بن سعد الدولة كما كان بينه وبين أبيه، فأمر بسيلٌ «البُرجْي» صاحب أنطاكية أن يكون ظهرًا لأبي الفضائل على كل من يقصده، وينجده متى طلبه. ولما نزل منجوتكين على حلب

قاتلها مدة شهرين فلم يظفر منها بشيء، فاستظهر عليه أبو الفضائل ولؤلؤ غاية الاستظهار، فعاد عنها في شهر رمضان وولّى حمص لمعضاد الحمداني. ثم سار إلى حلب في سنة ثلاث وثمانين، ثم عاد عنها وسار إليها في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وقد جمع واستعد، فنازلها وضايقها مدة شهرين، فبعث لؤلؤ إلى «البرجي» صاحب أنطاكية في الحضور إليه، فجمع الروم، وكان قد خرج إليه من بلاد الروم رئيس عظيم عندهم يقال له: أصابع الذهب، فجمع أيضًا مَنْ أمكنه، وسارا بمن معهما حتى نزلا على نهر المقلوب[1]، فأقاما هناك، ورجع منجوتكين عن حلب، ونزل بإزائهما، وكان عسكره أكثر من جمعهما، فاقتتلوا، فكانت الدائرة على الروم، وذلك في شعبان سنة أربع وثمانين، وعاد منجوتكين إلى محاصرة حلب، فحاصرها من شعبان إلى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين، فاشتد الحصار على أهلها، وكانت الأخبار ترد على بسيل ملك الروم وهو ببلاد البلْغَر[2] وله بها سنين كثيرة، وقد استحوذ على أكثرها، فخاف على حلب فترك قتال البلغر، ورجع إلى القسطنطينية، وخرج في نحو أربعين ألفًا من خواص أصحابه يركبون البغال الرهاوين ويجْنبُون الخيل، وسار لا يلوي على متأخر ولا يقف لمنقطع فوصل إلى إعزاز[3] في سبعة عشر ألفًا، وعزم على أن يكبس منجوتكين، فنمّي الخبر إليه، فانهزم لوقته، وسار إلى دمشق.

ذكر الصلح بين أبي الفضائل والعزيز نزار صاحب مصر

قال: ولما رجع منجوتكين إلى دمشق توسط بدر الحمداني في الصلح بين العزيز وأبي الفضائل، فتم، وانعقد في بقية سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وورد كتاب الصلح على أبي الفضائل مع مختار الحمداني، وأقام الأمر على ذلك إلى أن توفي لؤلؤ الحمداني، وانقطع خبر أبي الفضائل ولم يسمع له ذكر إلا أن لؤلؤًا الجراحي كان يدبر أمر حلب إلى سنة أربع وأربعمائة، وكتب له سجل في شوال من السنة من قبل الحاكم صاحب مصر بملك حلب، ولقبه مرتضى الدولة.

---

(١) نهر المقلوب: هو نهر أنطاكية، ويسمى نهر العاصي.

(٢) بلغار (كما في معجم البلدان لياقوت): مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال، شديدة البرد، لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفًا ولا شتاءً وقلّ ما يرى أهلها أرضًا ناشفة.

(٣) إعزاز: ويقع في الشمال الغربي من حلب.

وانقرضت الدولة الحمدانية بعد أبي الفضائل، وكانت مدة هذه الدولة منذ ولّي أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون ولاية الموصل في سنة اثنتين وتسعين ومائتين إلى أن استقل لؤلؤ الجراحي بالملك بعد أبي الفضائل في سنة أربع وأربعمائة مائة سنة واثنتا عشرة سنة تقريبًا. وعدة من ملك منهم ستة ملوك، وهم: أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان. ثم ابنه ناصر الدولة أبو محمد الحسن، ثم أخوه سيف الدولة أبو الحسن علي. وعُدّة الدولة الغضنفر أبو تغلب بن ناصر الدولة، وسعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة. ثم أبو الفضائل بن سعد الدولة، وعليه انقرضت دولتهم من سائر البلاد، وكان ملك هذه الدولة بعد وفاة أبي الفضائل عبد الله في فخذين: الفخذ الأول منها: في ناصر الدولة أبي محمد الحسن وبنيه، وقاعدة ملكهم الموصل، وآمد، وديار ربيعة، وسنجار، وغير ذلك مما والاه وجاوره، وانقرضت دولتهم من الموصل، وما معها بخروج أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة من آمد كما ذكرنا، وافترق بعده أبناء ناصر الدولة، فبعضهم دخل في طاعة الأمير عضد الدولة، وبعضهم دخل في طاعة العزيز نزار صاحب مصر، وبعضهم التحق بابن عمهم أبي المعالي شريف بن سيف الدولة، فممن سار إلى الديار المصرية: أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة، وأخوه أبو المطاع ذو القرنين، وولد للحسين بمصر ولده الحسن وهو المنعوت ناصر الدولة. تمكن ناصر الدولة الحسن هذا من دولة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله صاحب ملك مصر تمكنًا عظيمًا، وقاد الجيوش، وعظم شأنه، ونفذت أوامره حتى لم يبق للمستنصر معه بالديار المصرية إلا مجرد اسم الخلافة. ثم لم يرض ناصر الدولة بذلك، ولا اقتصر عليه، ولا قنع به إلى أن حصر المستنصر في قصره، وجرى له معه وقائع، نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبار المستنصر بالله، ونذكر هناك أيضًا مقتل ناصر الدولة هذا. وكان مقتل في شهر رجب من شهور خمس وستين وأربعمائة بداره بمصر، وهي الدار المعروفة بمنازل العز التي هي الآن مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، ولم يذكر بعد ناصر الدولة هذا أحد من آل حمدان بولاية فنذكره. فهذا الفخذ الأول. والفخذ الثاني منها: في سيف الدولة أبي الحسن علي وبنيه، وقد تقدم ذكرهم رحمهم الله تعالى.

انتهت أخبار الدولة الحمدانية بعون الله تعالى. فلنذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية.

ذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية
وابتداء أمر بويه، ونسبه، وكيف تنقلت به وببنيه الحال
إلى أن استولوا على الأقاليم والممالك
وسياقة أخبارهم إلى أن انقضت دولتهم

ذكر ابتداء حال بويه، ونسبه، وما كان من أمره

هو أبو شجاع بويه بن فَنَّاخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الأصغر ابن شيركنده بن شبيرزيل الأكبر ابن شيران شاه ابن شيرويه بن سنان بن شيش فيروز بن شيروزيل بن شيسناد بن بهرام جور الملك ابن يزدجرد الملك ابن سابور بن سابور ذي الأكتاف فهم من الفرس، وإنما نُسِبوا إلى الدّيلم لطول مقامهم ببلادهم، ولذلك لم نذكرهم عند ذكرنا لأخبار الدولة الدّيلمية الجيلية.

وأما ابتداء حال بويه فقد نقل جماعة من المؤخرين أنه كان صيّادًا يعيش من صيد السمك، ثم تنقلت به الحال إلى أن خدم جنديًا، وخرج مع الناصر للحق الحسن بن علي العلوي، وكان يلحظه بعين التقدّم لشجاعته، وكان له خمسة أولاد المشهور منهم ثلاثة، وهم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد، فهؤلاء الذين ملكوا البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وكان له ابنان غير هؤلاء، وهما: محمد، وإبراهيم قتل أحدهما مع الناصر للحق، والآخر مع الحسن بن القاسم الداعي.

وحكى ابن الأثير في تاريخه «الكامل»:

أن زوجة بويه ماتت، وخلفت له ثلاثة بنين، فاشتد حزنه عليها، فحكى شهرياء رستم الديلمي قال: كنت صديقًا لأبي شجاع بويه، فدخلت إليه يومًا، فعذلته على كثرة حزنه، وقلت له: أنت رجل تحتمل الحزن، وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن، وسليته جهدي، وأخذته ففرحته، وأدخلته، ومعه أولاده إلى منزلي، فأكلوا طعامًا، وشغلته عن حزنه، فبينما هم كذلك إذ اجتاز بنا رجل يقول عن نفسه: إنه منجم، ومعزم[١]، ومعبر للمنامات، ويكتب الرُّقَى والطِلَّسمات[٢]، وغير ذلك، فأحضره أبو

---

(١) المعزم: الذي يقرأ العزائم، والعزائم: جمع عزيمة، وهي الرقيّة.

(٢) الطلّسم: خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي... (المعجم الوسيط).

شجاع، وقال له: رأيت في منامي كأني أبول، فخرج من ذكري نار عظيمة استطالت، وعلت حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفرجت، فصارت ثلاثَ شُعب، وتولَّد من تلك الشعب عدة شِعب، فأضاءت الدنيا بتلك النيران، فرأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران، فقال المنجم: هذا منام عظيم لا أفسِّره إلا بخِلعة وفرس وركب، فقال أبو شجاع: والله ما أملك إلا الثياب التي على جسدي، فإن أخذتها بقيت عريانًا، قال المنجم: فعشرة دنانير قال: والله لا أملك دينارًا، فكيف عشرة، فأعطاه شيئًا، فقال المنجم: اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب، فقال أبو شجاع: أما تستحي؟ تسخر بنا؟ أنا رجل فقير، وهؤلاء أولادي فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكًا؟ فقال له المنجم: أخبرني عن وقت ميلادهم، فأخبره، فجعل يحسب ثم قبض على يد أبي الحسن علي فقبلها، وقال هذا والله الذي يملك البلاد، ثم هذا من بعده. ثم قبض على يد أخيه أبي علي الحسن، فاغتاظ منه أبو شجاع، وقال لأولاده: اصفعوا هذا الحكيم، فقد أفرط في السخرية بنا فصفعوه، وهو يستغيث، ونحن نضحك منه، ثم أمسكوه، فقال: اذكروا لي هذا إذا قصدتكم، وأنتم ملوك، فضحكنا منه وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم. ثم اتفق خروج جماعة من الديلم لملك البلاد. منهم: «ماكان» بن كالي، وليلي بن النعمان، وأسفار بن شيرويه، ومرداويج بن زياد، وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم، وخرج أولاد أبي شجاع في جملة من خرج مع ماكان بن كالي. فلما استولى مرداويج على ما كان بيد «ماكان» من طبرستان وجرجان، وضعف «ماكان»، وعجز، قال له عماد الدولة، وركن الدولة: نحن في جماعة، وقد صرنا ثقلاً عليك وعيالاً، وأنت مُضيَّق عليك، والأصلح لك أن نفارقك؛ لنخفف عليك مؤونتنا، فإذا صلح أمرك عدنا إليك، فأذن لهما. فسارا إلى مرداويج، واقتدى بهما جماعة من قواد «ماكان»، وتبعوهما، فلما صاروا إليه قبلهم أحسن قبول، وخلع على ابني بويه، وأكرمهما، وقلد كلَّ قائد من قواد «ماكان» الواصلين إليه ناحية من نواحي الجبل، فقلد علي بن بويه الكرج[1].

ذكر أخبار عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه وابتداء الدولة البويهية

كان عماد الدولة قد خرج مع أبيه في جيش الناصر للحق، ثم تنقلت به أمور في خدمة الملوك، ودخل إلى خراسان كرَّتين، وصار من أصحاب «ماكان»، ثم فارقه

---

(١) الكرج: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب.

إلى مرداويج بن زيار، ومعه أخواه، فولاه مرداويج الكرج، وقلد جماعة القواد المستأمنة الأعمال، وكتب لهم العهود، وساروا إلى الريّ، وبها وشمكير بن زيار أخو مرداويج، ومعه الحسين بن محمد الملقب بالعميد، وهو والد أبي الفضل الذي وزر لركن الدولة ابن بويه، فلما وصل عماد الدولة إلى الريّ عرض بغلة للبيع، فبلغت ألفي وثمانمائة درهم فعرضت على العميد، فاستجادها، وقصد أن يبتاعها، فحلف عماد الدولة أنه لا يأخذ لها ثمنًا، وتابع بعد ذلك مواصلة العميد وبره، فبلغ عنده مبلغًا عظيمًا، وتمكن منه.

قال: وكان مرداويج قد تعقب رأيه في تولية عماد الدولة الكرج، وفي تولية القواد المستأمنة إليه لقرب عهدهم بصحبة «ماكان»، فكتب إلى أخيه، وإلى العميد: بأن يمنعا عماد الدولة من النفوذ إلى الكرج إلا أن يكون قد فات، وكان الرسم جاريًا أن يقرأ العميد الكتب، ثم يوقف وشمكير عليها بعد ذلك، فلما قرأها بعث إلى عماد الدولة يأمره أن يبادر بالخروج إلى عمله، فسارع إلى ذلك، ثم عرض العميدُ الكتب على وشمكير، فعزل من الولاة من لم يمض إلى عمله، وأبقى عماد الدولة. قال: وتسلم عماد الدولة الكرج، وأخذ في الإفضال على الرجال، وعلى عامل البلد، فكانت كتب العامل تمضي إلى الريّ يشكره، ثم فتح قلاعًا كانت باقية في أيدي الخرّمية، وأخذ منها أموالاً جمة، وغنائم كثيرة، وصرف أكثرها في جمع الرجال عليه واستجلابهم.

ذكر خروج عماد الدولة ابن بويه عن طاعة مرداويج، ومخالفته له، وملكه أصفهان

كان سبب ذلك أن عماد الدولة لما تحقق قدم مرداويج على ولايته احتاط لنفسه، وأخذ في جمع الرجال، والإنعام عليهم، وهو في ذلك يظهر طاعة مرداويج، واتفق أن مرداويج سبب لبعض قواده على الكرج بمال، فأنعم عماد الدولة على أولئك القواد، واستمالهم، فمالوا إليه، وباطنوه، فلما وثق منهم أعلن بخلع مرداويج، وبايعه القواد، فخرج بهم عماد الدولة من الكرج بعد أن استصفى أمواله، وقصد أصفهان، وعرض أصحابه، فكانوا ثلاثمائة رجل، لكنهم منتجبون مستظهرون في العدة، وسار إليها، وبها أبو الفتح المظفر بن ياقوت واليًا للحرب، وأبو علي رستم واليًا للخراج، وهما من قبل الخليفة، وكاتبهما عماد الدولة أن يدخل معهما في خدمة السلطان، فامتنعا من ذلك، واتفق في غضون ذلك، وفاة رستم، فنزل عماد الدولة

بجوزنجان[١]، وهي قرية على ثلاث فراسخ من أصفهان، وبرز إليه أبو الفتح بن ياقوت في ألوف من الرجال من جملتهم ستمائة ديلمي، فاستأمن إلى عماد الدولة منهم أربعمائة رجل، وانفصل المائتان الأخر لاحقين «بماكان»، وهو يومئذ بكرمان، وانهزم ابن ياقوت بعد حرب شديدة، ودخل عماد الدولة أصفهان في يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وكانت أصفهان أول شيء استولى عليه عماد الدولة ابن بويه. والله أعلم.

ذكر استيلائه على أرجان وغيرها، وملك مرداويج أصفهان

قال: ولما بلغ مرداويج خبر الوقعة خاف جانب عماد الدولة، وأهمّه أمره، فشرع في إعمال الحيلة، فراسله يعاتبه، ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته ليمده بالعساكر الكثيرة؛ ليفتح بها البلاد، ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولي عليها، ولما سير الرسل جهز أخاه وشمكير في عسكر ضخم ليكبس عماد الدولة، وهو مطمئن، فنمّي الخبر إلى عماد الدولة، فارتحل عن أصبهان بعد أن أقام بها نحوًا من شهر، وتوجه إلى أرَّجَان[٢] وبها أبو بكر محمد بن ياقوت، فانهزم أبو بكر عنها إلى رامهرمز من غير حرب، ودخلها عماد الدولة، واستخرج منها أموالاً وأنفقها في جيشه، ثم وردت على ابن بويه كُتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه إلى شيراز مدينة بلاد فارس، ويهون عليه أمر أميرها ياقوت، وكان ياقوت في جيش كثير العدد من قبل الخليفة، فسار عماد الدولة إلى قرية تعرف بالخوان دان، فسار إليه ياقوت، ووردت مقدمته في ألفي رجل، فوافاهما عماد الدولة بالنُوبَنْدجان[٣]. وذلك في شهر ربيع الآخر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة، فلم يثبتوا له، وانهزموا إلى مكان يقال له: الكُرْكان[٤]، ووافاهم ياقوت بهذا الموضع، وأقام عماد الدولة أربعين يومًا

---

(١) جوزنجان: قد تكون جوزدان، وهي قرية كبيرة على باب أصفهان يقال لها الجوزدانية بالنسبة، وأهل أصبهان يقولون جوزدان، ينسب إليها جماعة من الرواة. . . (معجم البلدان).

(٢) أرجان: بفتح أوله وتشديد الراء، وجيم وألف ونون: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثيرة وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسبح بينها وبين البحر مرحلة. . . (معجم البلدان).

(٣) نوبندجان: مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن والنزاهة، بينها وبين أرجان ستة وعشرون فرسخًا. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٤) كركان: بالضم، وآخره نون: هي ثلاثة مواضع: أحدها المدينة المشهورة التي بين طبرستان وخراسان. . . وكركان: قرية بفارس، وكركان أيضًا: قرية بقرميسين. . . (معجم البلدان).

في ضيافة زيد بن علي النُوبَنْدجاني. وكان مبلغ ما خسر عليه في هذه المدة مائتي ألف دينار، ثم سار بعد ذلك إلى إصطخر[١]، وسار ياقوت وراءه يتبعه، حتى انتهى إلى قنطرة على طريق كرمان، فسبقه ياقوت إليها، ومنعه من عبورها واضطره إلى الحرب.

ذكر استيلائه على شيراز

قال: ولما سبقه ياقوت إلى القنطرة اضطر إلى محاربته، وابتدأت الحرب بينهما في يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، واستمرت إلى يوم الخميس، فأحضر عماد الدولة أصحابه، ووعدهم الجميل، وأنه يترجل معهم عند الحرب، وكان من سعادته أن جماعة من أصحابه استأمنوا إلى ياقوت، فضرب ياقوت أعناقهم، فأيقن من بقي مع عماد الدولة ابن بويه أنه لا أمان لهم عند ياقوت، فقاتلوا قتال من استقتل، ثم قدم ياقوت أمام أصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط؛ ليحرقوا أتراس الديلم، فلما رموا النار انقلبت الرحى، فصارت في وجوههم، واشتدت فعادت النار عليهم، وتعلقت في ثيابهم ووجوههم، فاختلطوا وركبهم أصحاب ابن بويه، فقتلا أكثر الرجّالة، وخالطوا الفرسان، فكانت الهزيمة على ياقوت وأصحابه. ولما انهزم أصحاب ياقوت صعد على نشز مرتفع، ونادى في أصحابه الرَّجعة الرَّجعة، فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس، فقال لهم اثبتوا فإن الديلم يشتغلون بالنهب، ويتفرقون، فنأخذهم، فثبتوا معه، فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب، وقصد ياقوت، فانهزم ياقوت منه، واتبعه أصحاب ابن بويه يقتلون، ويأسرون، ويغنمون، ثم رجعوا إلى السواد، فغنموه، ووجدوا فيه برانس لبود[٢] عليها أذيال الثعلب، ووجدوا قيودًا وأغلالاً فسألوا عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه كانت أُعدت لكم لتجعل عليكم، ويطاف بكم البلاد، فأشار أصحاب ابن بويه عليه: أن يفعل ذلك بأصحاب ياقوت، فامتنع عماد الدولة، وقال: إنه بغي ولؤم، وقد لقي ياقوت بغيه، ثم أحسن إلى الأسارى، وأطلقهم وقال: هذه نعمة والشكر عليها يقتضي المزيد، وخَيَّر الأسارى بين المقام عنده، واللحاق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم، وأحسن إليهم، وسار

(١) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة: هي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور.
(٢) اللبود: جمع اللبد، وهو ضرب من البسط: أو هو كل شعر أو صوف متلبد.

من موضع الوقعة، حتى أتى شيراز، ونادى في الناس بالأمان، وبث العدل، وأقام رشحنة[١] تمنع من الظلم، واستولى على تلك البلاد.

ذكر واقعة غريبة اتفقت لعماد الدولة كانت سبب ثبات ملكه وقيام دولته

قال: ولما دخل عماد الدولة شيراز طلب الجند أرزاقهم، فلم يكن عنده ما يعطيهم، وكاد أمره ينحلّ، فجلس في غرفة في دار الإمارة بشيراز، وهو يفكر في أمره فرأى حية خرجت من موضع في سقف تلك الغرفة، ودخلت في بخش[٢] هناك، فخف أن تسقط عليه، فدعا الفراشين، ففتحوا ذلك الموضع، فرأوا وراءه بابًا، فدخلوا منه إلى غرفة أخرى، فإذا فيها عشرة صناديق مملوءة مالاً ومصاغًا، فكان فيها ما قيمته خمسمائة ألف دينار، فأنفقها، وثبت ملكه بعد أن كان قد أشرف على الزوال.

وحكي أنه أراد أن يفصل ثيابًا، فدلوه على خياط كان لياقوت، فأحضره، فحضر خائفًا، وكان أصم، فقال له عماد الدولة لا تخف، فإنما أحضرتك لتفصل لنا ثيابًا، فلم يفهم الخياط ما قال، فابتدأ وحلف بالطلاق والبراءة من دين الإسلام أن الصناديق التي عنده لياقوت ما فتحها، ولا علم ما فيها، فعجب عماد الدولة من هذا الاتفاق، وأمره بإحضارها، فأحضر ثمانية صناديق فيها أموال وثياب، قيمة ما فيها ثلاثمائة ألف دينار، ثم ظهر له من ودائع ياقوت، وذخائر عمرو، ويعقوب ابني الليث جملة كبيرة، فامتلأت خزائنه، وثبت ملكه.

ذكر تولية عماد الدولة من قبل الخليفة

قال: ولما تمكّن عماد الدولة من شيراز[٣]، وثبت ملكه ببلاد فارس، كتب إلى الخليفة الراضي بالله، وإلى وزيره أبي علي بن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يُقَاطَع على ما بيده من البلاد، وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، وتقدّمت إليه الخِلع، وشرطوا على الرسول ألاَّ يسلم إليه الخلع إلا بعد قبض المال. فلما

---

(١) رشحنة البلد: من كان فيه الكفاية لضبطها من السلطان.

(٢) البخش: الثقب.

(٣) شيراز: بالكسر وآخره زاي: بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث... بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخًا.

وصل الرسول خرج عماد الدولة إلى لقائه، وطلب منه الخلع واللواء، فذكر له ما اشتُرِط عليه، فأخذها منه قهرًا، ولبسها، ونشر اللواء، ودخل البلد، وغالط الرسول بالمال، فمات الرسول عنده في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة. قال: ولما سمع مرداويج ما حصل لعماد الدولة ابن بويه قام لذلك وقعد، فسار إلى أصفهان للتدبير عليه، وعزم على الخروج إليه بنفسه، فبلغ عماد الدولة ذلك، فبادر بمكاتبته، وسأله إقراره على بلاد فارس على أن يقيم له الدعوة، ويضرب باسمه السِّكَّة، ويُنفِذ إليه أخاه ركنَ الدولة ابن بويه رهينة، فقبل ذلك منه، واعتقل ركنَ الدولة، فلما صار في اعتقاله لم يكن بأسرع أن اتفق قتل مرداويج على ما قدمنا ذلك في أخبار مرداويج، فهرب ركن الدول بمواطأة من سجانه، وخرج إلى الصحراء ليفك قيوده، فأقبلت بغالٌ عليها تبن، ومعها بعض أصحابه وغلمانه، فلما رأوه ألقوا التبن، فكسروا قيوده، وحملوه إلى أخيه عماد الدولة بفارس وفي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة تسمّى عماد الدولة شاهنشاه، ولبس تاجًا من الذهب مرصعًا بالجوهر، وجلس على السرير.

ذكر وفاة عماد الدولة ابن بويه
وملك ابن أخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه

كانت وفاته في جُمادى الآخرة، وقيل توفي لأربع عشرة بقيت من جُمادى الأُولى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكانت علته قرحة في كُلاه طالت به، وتوالت عليه الأسقام والأمراض، ولما أحس بالموت أنفذ إلى أخيه ركن الدولة أن ينفذ إليه عضُد الدولة فناخسروا ولده ليجعله وليَّ عهده، ووارثَ ملكه بفارس؛ لأن عماد الدولة لم يكن له ولد ذكر، فأنفذه ركن الدولة، فوصل قبل وفاته بسنة، فخرج عماد الدولة إلى لقائه في جميع عساكره، وأجلسه على سرير، ووقف عماد الدولة بين يديه، وأمر الناس بطاعته، والانقياد إليه، وقبض على من كان يخاف منه من القواد ثم توفي عماد الدولة بعد ذلك بسنة، فكانت مدة مملكته لبلاد فارس سنة وعشرة أشهر وعشرين يومًا، وكان عمره ما بين ثمانية وخمسين سنة إلى تسع وخمسين، وقيل سبعة وخمسين ودفن بدار المملكة بشيراز، وكان شجاعًا عاقلاً كريمًا مجربًا حسن السياسة عظيم القدر، ووزر له في ابتداء أمره أبو سعيد إسرائيل بن موسى النصراني إلى أن قتل، ثم وزر له أبو العباس أحمد بن محمد إلى أن مات عماد الدولة.

وحجابه: خُطلخ إلى أن قتل، ثم سباسي حتى توفي، ثم بارس إلى أن توفي عماد الدولة، ولما مات عماد الدولة استقر عضد الدولة في الملك بعده ببلاد فارس،

ثم كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى في الطبقة الثانية من بني بويه، وكان عماد الدولة هو الأسنّ الأكبر من بني بويه. والمشار إليه بينهم، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أمير الأُمراء. وكان معز الدولة هو المستولي على العراق، وهو كالنائب عنهما.

ذكر أخبار ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه

كان ركن الدولة في خدمة أخيه عماد الدولة يندبه في مهماته وأشغاله، وجهزه وهو في حرب ياقوت في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى كازرون[١]، وغيرها من أعمال فارس، فاستخرج منها أموالاً جليلة، فأنفذ ياقوت عسكرًا إليه لمنعه من ذلك، فقاتلهم وهزمهم، وهو في نفر يسير، وعاد إلى أخيه بالغنائم والأموال، ثم جهزه عماد الدولة رهينة عند مرداويج في سنة ثلاث وعشرين كما ذكرناه، فلم خلص بعد مقتل مرداويج، والتحق بأخيه عماد الدولة جهزه بالعساكر إلى أصفهان، فاستولى عليها، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبال نواب وشمكير، فأقبل وشمكير، وجهز العساكر نحوه، فبقيا يتنازعان ملك تلك البلاد، وهي أصفهان، وهمدان، وقم، وقاجان، وكرج، والريّ، وكنكور، وقزوين، وغيرها، ثم استولى ركن الدولة على أصفهان، وملكها في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وملك الريّ في سنة ثلاثين.

ذكر ملك ركن الدولة بن بويه طبرستان وجرجان

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة في شهر ربيع الأول اجتمع ركن الدولة، والحسن بن فيرزان، وقصدا بلاد وشمكير، فالتقيا به، فانهزم وشمكير، وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان، فملكها، واستأمن إليه من قواد وشمكير مائة وثلاثة عشر قائدًا، فأقام الحسن بن الفيرزان بجرجان، ومضى وشمكير إلى خراسان يستنجد بالسامانية، واتفقت وفاة الأمير عماد الدولة، فسار ركن الدولة لتقرير أمر ولده عضد الدولة بفارس، فسار منصور بن قراتكين صاحب جيش الأمير نوح بن نصر الساماني إلى الريّ، ودخلها، وأخرج نائب ركن الدولة منها، وورد سجل من الخليفة المطيع لله بتقليد ركن الدولة إمرة الأمراء موضع عماد الدولة،

---

(١) كازرون: بتقديم الزاي، وآخره نون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز. قال البشاري: كازرون بلدة عامرة كبيرة وهي دمياط الأعاجم وذلك أن ثياب الكتان التي على عمل القصب وشبه الشطوي وإن كان حطبًا تعمل بها وتباع بها إلا ما يعمل بتوز... (معجم البلدان).

فقبله، وانصرف إلى الريّ، ففارقها منصور بن قراتكين قبل وصول ركن الدولة إليها، وسار إلى أصفهان، ثم رحل منها، فنزل طرف مفازة بها على النهر المعروف بور بروديم، ثم رحل عنه، والتقى مع ركن الدولة على الروذبار[١]، والنهر يحجز بينهما؛ لكنه نهر يخاض، فأقامت الحرب بينهما سبعة أيام، ثم عبر منصور النهر بجيوشه، والتقوا من وقت العصر إلى صدر من الليل، ثم سار منصور في بقية من الليل إلى الريّ، وقدم ركن الدولة مقدمته نحو قاجان، فلما وصل إليها بلغه وفاة منصور بالريّ، فسار إليها، ودخلها بغير قتال وتجهز منها لحرب وشمكير لأنه الذي أغرى بينه، وبين صاحب خراسان، فالتقيا على باب الريّ بجبل طبرك[٢]، وتواصلوا أربعة أشهر حتى سقط الثلج، فرجع وشمكير، ثم اتفقت وفاته، وقيام ولده «بهسيتون» في الملك بعده، فدخل في طاعة ركن الدولة، فزال الخوف، وحصل الأمن واستقر الأمر على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

ذكر ما قرره ركن الدولة بين بنيه وما أفرده لكل منهم من الممالك

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة سار ركن الدولة من الريّ إلى أصفهان، واستدعى ولده عضد الدولة من بلاد فارس، وجمع سائر أولاده، وحواشيهم، فقسم ركن الدولة ممالكه على أولاده، فجعل لابنه عضد الدولة بلاد فارس، وجعله الملك على جماعة البيت بعد أن أوصاه على إخوته، وعلى ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة، فإن معز الدولة كان قد توفي، وملك ابنه بختيار بعده على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وسلم ركن الدولة إلى عضد الدولة أخاه الأصغر خسرو فيروز، وجعل لمؤيد الدولة، وهو شقيق عضد الدولة بلاد الريّ، وأصفهان، وقم، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وما والاها، وأفرد لفخر الدولة همذان، والدينور، والإيغارين[٣] وما

(١) الروذبار: بضم أوله، وسكون ثانيه، وذال معجمة، وباء موحدة، وآخره راء مهملة: هي ناحية من طسوج أصبهان.. وروذبار: قرية من قرى بغداد... الروذبار لفظة لعدة مواضع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرقة... وروذبار: محلة بهمذان... (معجم البلدان).

(٢) طبرك: بفتح أوله وثانيه والراء، وآخره كاف: قلعة على رأس جبل بقرب مدينة الريّ على يمين القاصد إلى خراسان وعن يساره جبل الريّ الأعظم... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الايغاران: قيل لها الإيغاران أي إيغارا هذين الرجلين، وهما الكرج والبرج؛ والإيغار اسم لكل ما حمى نفسه من الضياع وغيرها ويمنع منه... (معجم ياقوت).

اتصل بهم، واستحلف الأخوين على طاعة عضد الدولة، واستخلف عضد الدولة على الوفاء لهما، وكتب الكتاب بينهم ذو الكفايتين أبو الفتح بن العميد، ومات ركن الدولة عقيب ذلك.

ذكر وفاة ركن الدولة ابن بويه وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته بالريّ في ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ست وستين وثلاثمائة، وقد زاد على سبعين سنة، وقيل أقل من ذلك، وكانت مدة إمارته أربعًا وأربعين سنة، وكان رحمه الله حليمًا كريمًا، كثير البذل للمال، حسن السياسة لرعيته وجنده، رؤوفًا بهم عادلاً في الحكم بينهم بعيد الهمة متحرجًا من المظالم مانعًا لأصحابه من الظلم عفيفًا من الدماء، وكان يجري الأرزاق على أهل البيوتات، ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة، وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام، وحُكي عنه: أنه سار في بعض أسفاره، ونزل في خركاة قد نصبت له قبل أصحابه، وقدم إليه الطعام، فقال لبعض أصحابه لأي شيء قيل في المثل: خير الأشياء في القرية الإمارة، فقال: لقعودك في الخركاة، ولهذا الطعام بين يديك، وأنا لا خركاة، ولا طعام، فضحك، وأعطاه الخركاة، والطعام.

ومن محاسن أفعاله ما فعله من نصرة بختيار ابن أخيه معز الدولة على ابنه عضد الدولة على ما نذكره في أخبار عز الدولة بختيار.

وكان له من الأولاد: عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو، وفخر الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أبو منصور بويه، وأبو العباس خسرو فيروز.

وزراؤه: أول من وزر له: الأُستاذ أبو الفضل أحمد بن العميد[1] إلى أن توفي في سنة تسع وخمسين، فاستوزر بعده ولده ذا الكفايتين[2] أبا الفتح محمد، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة إلى أن توفي ركن الدولة.

---

(١) تولى أبو الفضل الوزارة بعد وفاة الوزير أبي علي بن القمي، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان متوسعًا في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني... (وفيات الأعيان ٥:١٠٤).

(٢) كان جليلاً نبيلاً سريًا ذا فضائل وفواضل، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية الموجودة في ديوانه في أثناء مدائح والده... (وفيات الأعيان ٥:١١١).

ذكر أخبار معز الدولة ابن بويه

هو أبو الحسين أحمد بن بويه، معز الدولة أصغر إخوته سنًا، وأكثرهم سعادة، وأوسعهم ملكًا. وكان في ابتداء أمره مع أخيه عماد الدولة، وحضر معه المصاف الذي كان بينه، وبين ياقوت في سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة، وهو صبي لم تنبت لحيته، وعمره تسع عشرة سنة، وكان في ذلك اليوم من أحسن الناس أثرًا في الحرب.

ذكر مسيره إلى كرمان، وزوال يده في الحرب، وما اتفق له

وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة سار معز الدولة إلى كرمان، وسبب ذلك أن أخويْه: عماد الدولة، وركن الدولة لما تمكنا من بلاد فارس، وبلاد الجبل، وبقي هو، وهو الأصغر بغير ولاية يستبد بها رأيا أن يُسيِّراه إلى كرمان، فسار إليها في عسكر ضخم، فلما بلغ السيرجان[١] استولى عليها، وجبى أموالها، وأنفقها في عسكره، وكانت عساكر نصر بن أحمد الساماني صاحب خراسان تحاصر محمد بن إلياس بن اليسع بقلعة هناك، فلما بلغهم إقبال معز الدولة، ساروا عن كرمان إلى خراسان، فتخلص محمد بن إلياس من القلعة، وسار إلى مدينة قم، وهي على أطراف المفازة بين كرمان، وسجستان، فسار إليه معز الدولة، فرحل عن مكانه إلى سجستان بغير قتال، فسار ابن بويه إلى جِيرفْت[٢] وهي قصبة كرمان، واستخلف ثَمَّ بعضَ أصحابه، فلما قارب جيرفت أتاه رسول علي الديحي المعروف بعلي كلويه، وهو رئيس القُفْصَ البلوصُ[٣]، وكان هو وأسلافه متغلبين على تلك الناحية إلا أنهم يجاملون كل سلطان يرد البلاد، ويطيعونه، ويحملون إليه مالاً معلومًا ولا يطئون بساطه، فبذل لابن بويه ذلك المال، فامتنع من قبوله إلا بعد دخول جيرفت، فتأخر علي كلويه نحو عشرة فراسخ، ونزل بمكان صعب المسلك، ودخل ابن بويه جيرفت، وصالح علي كلويه، وأخذ رهائنه، وخطب له، فلما استقر الصلح بينهما

---

(١) السيرجان: مدينة بين كرمان وفارس... وقال ابن الفقيه: السيرجان مدينة كرمان، بينها وبين شيراز أربعة وعشرون فرسخًا. وكانت تسمى القصرين... (معجم البلدان).

(٢) جيرفت: بالكسر ثم السكون، وفتح الراء، وسكون الفاء، وتاء فوقها نقطتان: مدينة بكرمان، وهي مدينة كبيرة جليلة من أعيان مدن كرمان وأنزهها وأوسعها.. فتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... (معجم البلدان).

(٣) البلوص: جبل كالأكراد، ولهم بلاط واسعة بين فارس وكرمان تعرف بهم في سفح جبال القفص، وهم أولو بأس وقوة وعدد وكثرة، و... (معجم البلدان).

أشار بعض أصحاب ابن بويه عليه بقصد علي والغدر به، وهوّن عليه أمره، وأطمعه في أمواله، وقال له: إنه قد ترك الاحتراس، وسكن إلى الصلح، فأجابه إلى ذلك، وركب نحوه جريدة، وكان علي متحرزًا قد وضع العيون على ابن بويه، فعندما تحرك للمسير بلغه ذلك، فجمع أصحابه، وكمنهم بمضيق على الطريق، فلما اجتاز ابن بويه بهم ثاروا ليلًا من جوانبه، فقتلوا من أصحابه، وأسروا، ولم يفلت إلا اليسير، وجرح معز الدولة عدة جراحات، وأصابته ضربة في يده اليسرى، فقطعتها من نصف الذراع، وأصابت يده اليمنى ضربة أُخرى، فسقط بعض أصابعه، وسقط إلى الأرض، وقد أُثخن بالجراح، وبلغ الخبر إلى جيرفت، فهرب من بها من أصحابها، ولما أصبح علي كلويه تبع القتلى، فرأى الأمير أبا الحسين وقد أشرف على التلف، فحمله إلى جيرفت، وأحضر له الأطباء، وبالغ في علاجه، واعتذر إليه، وأنفذ رسله إلى عماد الدولة بالاعتذار، ويعرفه غدر أخيه، ويبذل من نفسه الطاعة، فأجابه عماد الدولة إلى ما بذله، واستقر بينهما الصلح، وأطلق كل من عنده من الأسرى، وأحسن إليهم، ووصل الخبر إلى محمد بن إلياس بما جرى على ابن بويه، فسار من سجستان إلى جنّابة[1]، فتوجه إليه معز الدولة، وواقعه، ودامت الحرب بينهما عدة أيام، فانهزم ابن إلياس، وعاد ابن بويه بالظفر، وسار إلى علي كلويه لينتقم منه، فلما قاربه أسرى على أصحابه الرجّالة، فكبسوا عسكره ليلًا في ليلة شديدة المطر، فأسروا منهم، وقتلوا، ونهبوا وعادوا، فلما أصبح ابن بويه، سار نحوهم، فقتل منهم عددًا كثيرًا، وانهزم عليّ، وكتب معز الدولة إلى أخيه عماد الدولة بما جرى له معه، ومع ابن إلياس، فأمره أخوه بالوقوف مكانه، ولا يتجاوزه، وأنفذ إليه قائدًا من قواده يأمره بالعود إليه إلى فارس، ويلزمه بذلك، فعاد إلى أخيه، وأقام عنده باصطخر إلى أن قصدهم أبو عبد الله البريدي منهزمًا من ابن رائق وبجكم، وأطمع عماد الدولة في العراق، فسير مه معز الدولة كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة العباسية في أيام الراضي بالله.

ذكر استيلاء معز الدولة على الأهواز

كان مسير معز الدولة ابن بويه إلى الأهواز في سنة ست وعشرين وثلاثمائة للسبب الذي قدمناه، فسار إليه، ومعه أبو عبد الله البريدي، وكان بها بجكم الرائقي،

---

(١) جنّابة: بلدة صغيرة من سواحل فارس... يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الملح يكون بين المدينة والبحر نحو ثلاثة أميال أو أقل، وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك، وفي شمالها من جهة البصرة مهروبان... (معجم البلدان).

فسار لحربهم، وقاتلهم بأرجان، فانهزم منهم إلى الأهواز، وأقام بها ثلاثة عشر يومًا، ثم انهزم إلى تُسْتَر[١]، وسار إلى واسط، واستولى معز الدولة والبريدي على الأهواز، وأقاما بها خمسة وثلاثين يومًا، ثم هرب البريدي خوفًا على نفسه من معز الدولة، فكاتبه يعيب عليه ذلك، ويعتبه، فاعتذر البريدي إليه أنه خاف على نفسه، وطلب من معز الدولة أن يفرج عن الأهواز؛ ليتمكن من ضمانه، فإنه كان قد ضمِن الأهوازَ، والبصرة من عماد الدولة في كل سنة بثمانية عشر ألف ألف درهم، فرحل عنها إلى عسكر مُكْرم[٢] خوفًا من أخيه لئلا يقول له: كسرتَ المال، ثم أنفذ إليه البريدي ثانيًا يذكر خوفه منه، ويطلب منه أن ينتقل إلى السوس[٣] ليبعد عنه، ويأْمن هو بالأهواز، فحذَره أصحابه، وخوفوه غدر البريديّ، فامتنع من إجابته إلى ذلك، وكتب إلى أخيه عماد الدولة، فأنفذ إليه جيشًا، فقَوِي بهم، واستولى على الأهواز، وهرب البريدي إلى البصرة، وأقام معز الدولة بالأهواز، وقصد البصرة وواسط، وعاد عنهما، ولم يزل كذلك إلى أن استولى على بغداد.

ذكر استيلائه على بغداد وتلقيبه وتلقيب إخوته من ديوان الخلافة

كان استيلاء معز الدولة على بغداد في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المستكفي بالله، وسبب ذلك أن ابن شيرزاد لما استولى على إمرة الأمراء ببغداد بعد وفاة توزون، على ما قدّمناه في أخبار الدولة العباسية في أيام المستكفي بالله، استعمل ينال كُوشه على واسط[٤]، فكاتب معز الدولة، وهو بالأهواز، ودخل في طاعته، واستقدمه، فسار إليه، وقصد بغداد، فلما فارقها استتر المستكفي بالله وابن شيرزاد، وخرج الأتراك من بغداد إلى الموصل، فلما أبعدوا ظهر المستكفي بالله، وقَدَّم معز الدولة أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد، فاجتمع بالخليفة، فأظهر السرور بمقدم ابن بويه، وأعلمه أنه إنما استتر ليتفرق الأتراك، ويحصل الأمر

(١) تستر: أعظم مدينة بخوزستان... سميت بذلك لأن رجلاً من بني عجل يقال تستر بن نون افتتحها... (معجم ياقوت).

(٢) عسكر مكرم: بلدة من نواحي خوزستان.

(٣) السوس: بلدة بخوزستان.

(٤) واسط: في عدة مواضع.. واسط الحجاج: وهي أعظمها وأشهرها، سميت واسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ولأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا... (معجم البلدان).

لمعز الدولة بغير قتال، ووصل معز الدولة إلى بغداد في حادي عشر جُمادى الأولى من السنة، ونَزل بباب الشمّاسيّة، ودخل من الغد إلى الخليفة، وبايعه، وحلف له، ولقبه الخليفة بمعز الدولة، ولقب أخاه أبا الحسن عليًا عماد الدولة، ولقب أبا علي الحسنَ ركن الدولة، وأمر بضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم، وخلع الخليفة على معز الدولة، وطوّقه، وسوّره، وفوّض إليه ما وراء بابه، وعقد له لواء، وأمر بالخطبة له على المنابر، وسأل معز الدولة الخليفة أن يأذن لابن شيرزاد في الظهور، وأن يأذن له أن يستكتِبه، فأجابه إلى ذلك، فظهر ابن شيرزاد، ولقي معز الدولة، فولاه أمر الخراج، وجباية الأموال، ونزل معز الدولة بدار مؤنس، ونزل أصحابه في دور الناس، فلحق الناس لذلك شدة عظيمة، وصار رسمًا عليهم، وهو أول من فعله ببغداد، ولم يعرف بها قبله، وأخذ معز الدولة في مضايقة الخليفة، والحجر عليه، حتى في نفقته، ورتب له في كل يوم خمسة آلاف درهم، فكانت ربما تأخرت عنه، فأفرد له ضياعًا، وسلمت إليه فولاها من قبله، ولم يبق له حكم في غيرها، ثم خلعه معزُّ الدولة على ما ذكرناه لثمان بقين من جُمادى الآخرة. وبايع المطيع لله.

ذكر الحرب بين معز الدولة، وناصر الدولة ابن حمدان

وفي شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة سيَّر معز الدولة عسكرًا مقدمهم ينال كوشه وموسى قيادة على مقدمته نحو الموصل، فلما نزلوا عُكبرا[١] أوقع ينال كوشه بموسى، ومضى هو ومن معه إلى ناصر الدولة، وكان قد خرج من الموصل يريد العراق، فوصل إلى سامرّا[٢] في شعبان، ووقعت الحرب بينه وبين أصحاب معزِّ الدولة بعُكبُرا، فسار معز الدولة هو والمطيع لله إلى عكبرا في شهر رمضان، فلما سار عن بغداد التحق ابن شيرزاد بناصر الدولة، وعاد إلى بغداد مع عساكر لناصر الدولة يحارب معزَّ الدولة، فلما كان في عاشر رمضان، سار ناصر الدولة من سامرًا إلى بغداد، وأقام بها، فسار معز الدولة إلى تكريت، وكانت لناصرِ الدولة، فنهبها، وعاد هو والخليفة إلى بغداد، ونزلا بالجانبِ الغربي، ونصارُ الدَّولة بالشرقي.

(١) عكبرا: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة، وقد يمد ويقصر: اسم بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، والنسبة إليها عكبري وعكبراوي... (معجم البلدان).

(٢) سامرا: بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء... (معجم ياقوت).

ثم وقعت الحرب بينهم ببغداد، وانتشرت أعراب ناصر الدولة بالجانب الغربي فمنعوا أصحاب معزِّ الدولة من الميرة والعلف، فقلّت الأسعار على الدَيْلم، وضاق الأمر على معزِّ الدولة، حتى عزم على الرجوع إلى الأهواز، وقال: نعمل معهم حيلة، فإن أفادت، وإلا عدنا، فرتب ما معه من المعابر بناحية التمارين، وأمر وزيره أبا جعفر الصيمري[1]، واسفهدوست بالعبور، ثم أخذ معه بقية العسكر، وأظهر أنه يريد قطربّل[2]، وسار ليلاً، ومعه المشاعل على شاطىء دجلة، فسار أكثر عسكر ناصر الدولة بإزائه ليمنعوه من العبور، فتمكن الصيمري ومن معه العبور، فعبروا فلما علم معز الدولة بعبور أصحابه عاد إلى مكانه: فعلموا بحيلته، فلقيهم ينال كوشه في جماعة من أصحاب ناصر الدولة، فهزموه واضطرب العسكر الحمداني، وانهزموا، وتبعهم ناصر الدولة، وملكَ الديلمُ الجانب الشرقيَّ، وعاد الخليفة إلى داره. وذلك في المحرم سنة خمس وثلاثين، ونهب الديلم أموال الناس ببغداد، وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار، وأمرهم معز الدولة برفع السيف، والكف عن النهب، وأمر الناس، فلم ينتهوا، فأمر وزيره الصيمري، فركب ببغداد، وقتل وصلب جماعة، وطاف بنفسه، فامتنعوا، واستقر معز الدولة ببغداد، وأقام ابن حمدان بعكبرا، فأرسل في الصلح بغير مشورة الأتراك التوزونية، فهمُّوا بقتله، في شهر المحرم سنة خمس وثلاثين.

ذكر إقطاع البلاد وتخريبها

وفي سنة أربع وثلاثين أيضًا شغب الجند على الأمير معز الدولة، وأسمعوه المكروه؛ بسبب أرزاقهم، فوعدهم إلى مدة، فاضطر إلى أخذ الأموال من غير وجهها، ثم أقطع القرى جميعها التي كانت للسلطان، وأصحاب الأملاك، فبطل لذلك أكثر الدواوين، وكانت البلاد قبل ذلك قد خربت من الاختلاف والغلاء، فأخذ القواد القرى العامرة، فازدادت عمارة لحمايتهم لها، وأما الأتباع فازداد ما أخذوا خرابًا، واختلت البلاد بسبب ذلك، وتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة للنوائب، وأقطع معز الدولة غلمانه على الأتراك، وزادهم على الديلم، فوقع بينهم بسبب ذلك الوحشة والمنافرة، والله أعلم بالصواب.

---

(١) نسبة إلى صيمرة، وهي بالبصرة على فم نهر معقل وفيها عدة قرى تسمى بهذا الاسم.

(٢) قطربل: بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة، ولام: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر... (معجم البلدان).

ذكر استيلائه على البصرة

كان معز الدولة قد ضمّ البصرة وأعمالها لأبي القاسم بن البريدي في سنة أربع وثلاثين، ووقع الاختلاف بينهما في سنة خمس وثلاثين، فأرسل إليه معز الدولة جيشًا، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم أصحاب ابن البريدي، ثم سار معز الدولة هو والخليفة المطيعُ لله إلى البصرة في سنة ستٍّ وثلاثين لاستعادتها من ابن البريدي، وسلكوا البرية إليها، فلما وصل الدرهمية[1] استأْمن إليه عساكر ابن البريدي، وهرب أبو القاسم في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى هجر، والتجأ إلى القرامطة، وملك معز الدولة البصرة، وسار منها إلى الأهواز، وأقام الخليفة، والصيمري بالبصرة، والتقى معز الدولة بأخيه عماد الدولة بأرّجان في شعبان، فنزل معز الدولة، وقبّل الأرض بين يديه، وكان يقف قائمًا، فيأْمره بالجلوس، فلا يفعل، ثم عاد إلى بغداد.

ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده منها بعد الصلح

وفي سنة سبع وثلاثين، سار معز الدولة إلى الموصل، ففارقها ناصر الدولة إلى نَصِيبين، وملك معز الدولة الموصل في شهر رمضان، وظلم أهلها، وعسفهم، وأخذ أموال الرعايا، فكثر الدعاء عليه، وقصد الاستيلاء على جميع بلاد ناصر الدولة، فأتاه الخبر من أخيه ركن الدولة أن عساكر خراسان قد قصدت جرجان، والريّ، واستمده، فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة، فترددت الرسائل بينهما، واستقرت الحال على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل، وديار الجزيرة كلها، والشام، في كل سنة ثمانيةَ آلاف ألف درهم ويخطب في جميع بلاده لبني بويه، وعاد معز الدولة إلى بغداد، فدخلها في ذي الحجة من السنة.

ذكر وفاة الوزير الصيمري، ووزارة المهلبي

في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة توفي أبو جعفر محمد بن أحمد الصيمري وزير معز الدولة بأعمال الجامدة[2]، واستوزر معز الدولة بعده أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي في جُمادى الأُولى، وكان يخلف الصيمري بحضرة معز الدولة، فعرف أموال

(١) الدرهمة (كما في معجم ياقوت): أرض باليمامة؛ عن أبي حفصة.

(٢) الجامدة: بكسر الميم: قرية كبيرة جامعة من أعمال واسط بينها وبين البصرة.

الدولة والدواوين، وظهرت أمانته، وكفاءته، فاستوزره، ومكّنه من الوزارة، فأحسن السيرة، وأزال كثيرًا من المظالم، ثم ضربه معز الدولة بالمقارع[١] في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، مائة وخمسين مقرعة ووكل به في داره، ولم يعزله من وزارته بل ضربه لأمور نقمها عليه. وفي سنة خمس وأربعين في شهر رجب عصى على معز الدولة روزبهان بن انداخزشيد، وسار إلى الأهواز، وأطاعه أكثر الدَّيْلم فسار إليه معز الدولة، ولقيه بالأتراك فقط، وعدتهم ألف فارس. وذلك في يوم الاثنين سلخ شهر رمضان من السنة، فهزمه معز الدولة، وأسره.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة استولى معز الدولة على الموصل؛ وسبب ذلك أنه كان قد ضمنها له ناصر الدولة ابن حمدان في كل سنة بألفي ألف درهم. فلما كان في هذه السنة أخر حمْل المال، فسار معز الدولة إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى نصيبين، ودخلها معز الدولة. ثم سار منها إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة، وتوجه إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فراسله سيف الدولة في الصلح، فامتنع من تضمين ناصر الدولة لخُلفه معه مرة بعد أُخرى، فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفي ألف وتسعمائة ألف درهم، فضمنه، وذلك في المحرم سنة ثمان وأربعين، وانحدر إلى بغداد، وفي سنة خمسين وثلاثمائة أمر معز الدولة ببناء داره ببغداد، فشرع في عمارتها، فكان مبلغ الخرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم، فاحتاج بسبب ذلك إلى مصادرة جماعة من أصحابه.

ذكر ما كتب على مساجد بغداد

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة في شهر ربيع الآخر منها كتب عامّة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد ما صورته: «لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غَصب فاطمةَ رضي الله عنها فَدكًا[٢]، ومن منع أن يدفن الحسين عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذرٍّ الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى». فلما كان الليل محاه بعض الناس، فأراد معز الدولة إعادته، فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محى: «لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ، ولا يذكر أحدًا في اللعن إلا معاوية، ففعل ذلك».

---

(١) المقارع: واحدتها المقرعة، وهي خشبة يضرب بها؛ أو هي جريدة معقوفة الرأس، وأكثر ما تكون في كتاب الصبيان.

(٢) فدك: قرية بخيبر فيها نخل، وعين أفاءها الله على نبيّه.

ذكر وفاة الوزير المهلبي

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة سار الوزير المهلبي في جُمادى الآخرة في جيش إلى عمان ليفتحها، فلما بلغ البحر اعتل، واشتدت علته، فأُعيد إلى بغداد، فمات في الطريق في شعبان وحمل تابوته إلى بغداد، فدفن بها، وقبض معز الدولة أمواله، وذخائره، وأخذ أهله، وأصحابه، وحواشيه، حتى ملاَّحه، ومن خَدمه يومًا واحدًا، فاستعظم الناس ذلك، واستقبحوه، فكانت مدة وزارته ثلاث عشر سنة، وثلاثة أشهر، وكان كريمًا فاضلاً ذا عقل ومروءة، فمات بموتة الكرم. ونظر في الأُمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي. وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساعن من غير تسمية لأحد منهما بوزارة.

وفيها في يوم عاشوراء أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النّياحة، ويلبسوا ثيابًا عملوها من المسوح[1]، وأن تخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن، ويدُرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ففعل الناس ذلك. ولم يكن للسنِّية قدرة على المنع، لكثرة الشيعة؛ ولأن السلطان منهم.

وفيها في ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة أيضًا بإظهار الزينة في البلد وإشعال النيران بمجلس الشرطة، وفتحت الأسواق ليلاً. فعل ذلك فرحًا بعيد الغدير[2]، وكان يومًا مشهودًا.

ذكر وفاة معز الدولة ابن بويه

كانت وفاته في ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الآخرة، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بعِلَةِ الذَّرْب، وكان بواسط وقد جهّز الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين الخارج عليه فابتدأ به الإسهال وقوي عليه، فسار نحو بغداد، وخلف أصحابه، ووعدهم أن يعود إليهم. فلما وصل إلى بغداد اشتد مرضه، وصار لا يثبت في معدته شيء، فلما أحس بالموت عهد إلى ابنه بختيار، وأظهر التوبة، وتصدق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه ورد شيئًا كثيرًا على أصحابه وتوفي. ودفن بداره ثم نقل إلى مشهد بني له في مقابر قريش، فكانت إمارته إحدى وعشرين سنة

---

(١) المسح: الكساء من شعر، جمع المسوح.

(٢) الغدير: المراد غدير خم: وهو بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان.

وأحد عشر شهرًا ويومين. ومولده على ما حكاه أبو إسحاق الصابي في سنة ثلاث وثلاثمائة، فيكون عمره على هذا ثلاثًا وخمسين سنة تقريبًا. وكان ملكًا شجاعًا مقدامًا، قوي القلب، صليب العود، أبيّ النفس، إلا أنه كان في أخلاقه شراسة، وكانت إحدى يديه مقطوعة. وقد ذكرنا سبب قطعها مما تقدم، وقيل في قطعها غير ذلك. ومعز الدولة هذا هو الذي أحدث السُّعاة، ورتب لهم الجرايات الكثيرة لأنه أراد أن يصل خبره إلى أخيه ركن الدولة سريعًا، فنشأ في أيامه فضل، ومرعوش، وفاقا جميع السعاة، وكان الواحد منهما يسير في اليوم الواحد نيفًا وأربعين فرسخًا، وكان أحدهما ساعي السُّنِّية، والآخر ساعي الشيعة.

أولاده: عز الدولة أبو منصور بختيار مشيد الدولة أبو حرب حبشي. عمدة الدولة أبو إسحاق إبراهيم أبو طاهر محمد.

وزراؤه: أول من وَزَرَ له أبو الحسن أحمد بن محمد الرازي، وكان يخاطب بالأُستاذية إلى أن توفي بالأهواز في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة. فاستوزر أبا جعفر محمد بن أحمد بن يعلى الصيمريّ. وكان شجاعًا حسن الآثار إلى أن توفي في ليلة الاثنين لست خلون من جُمادى الأُولى سنة تسع وثلاثين، فاستوزر أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي[1] من ولد قبيصة بن المهلب، وخوطب بالأُستاذية مدة، ثم خوطب بالوزارة إلى أن توفي سنة اثنتين وخمسين، فلم يستوزر بعده أحدًا.

حجابه: مكلي التركي إلى أن قتل في وقعة ناصر الدولة، فاستحجب ينال كوشه التركي، ثم قبض عليه، واستحجب الحاجب الكبير سُبُكْتِكيز التركي، فطالت يده، وتجاوز حدَّ الحجَّاب إلى حد الأولاد، وقاد جميع جيوشه، ونعت بالاسفهسلارية، وكانت إقطاعاته في كل سنة عشرة آلاف ألف درهم، فأقام إلى أن توفي معز الدولة، فهذه الطبقة الأُولى من بني بويه قد ذكرناها.

فلنذكر الطبقة الثانية منهم.

ذكر أخبار عز الدولة بختيار

هو أبو منصور بختيار بن معز الدولة ابن بويه. كان والده معز الدولة قد عقد له الأمر من بعده في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر المحرم سنة أربع وأربعين

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن الملهب بن أبي صفرة الأزدي المهلبي الوزير؛ كان غاية في الأدب والمحبة لأهله: وكان قبل اتصاله بمعز الدولة في شدة عظيمة من الضرورة والضائقة. . . (وفيات الأعيان ٢: ١٢٤).

وثلاثمائة، وبايع له الأجناد، ولقبه المطيع في يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين. ثم جلس في السلطنة بعد وفاة أبيه في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة. والله أعلم بالصواب.

ذكر ما كان من الحوادث في أيام عز الدولة بختيار

كان أبوه قد أوصاه بطاعة عمِّه ركن الدولة، واستشارته في جميع ما يفعله، وأوصاه أيضًا بطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سنًا، وأقوم بالسياسة، ووصاه بتقرير كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسن، وأبي الفرج محمد بن العباس، وبالحاجب سُبُكتكين، فخالف جميع وصاياه، واشتغل باللعب واللهو، وعشرة النساء، والمساخر، والمغنِّين، وشرع في إيحاش كاتبيه، والحاجب، فاستَوحشوا، وانقطع الحاجب عنه، ولم يحضُر داره، ونفى أكابر الدَّيلم عن مملكته شرها في إقطاعاتهم وأموالهم، وأبعد المتصلين بهم، فاتفق أصاغرهم، وطلبوا الزيادات، فاضطر إلى مرضاتهم، واقتدى بهم الأتراك، وخرج الديلم إلى الصحراء، وطالبوا بختيار بإعادة من أسقطه منهم، فاضطر إلى إجابتهم لتغير الحاجب سُبكتكين عليه، وفعل الأتراك مثل فعلهم، واتصل خبر وفاة معز الدولة بكاتبه أبي الفرج محمد بن العباس، وهو يتولَّى أمر عمان، فسلمها لنواب عضد الدولة، وسار نحو بغداد، وإنما فعل ذلك لأن بختيار لما ملك بعد وفاة أبيه انفرد أبو الفضل بالنظر في الأُمور، فخاف أبو الفرج أن يستمر انفراده عنه، فسلم عمان إلى نواب عضد الدولة لئلا يؤمر بالقيام بها لحفظها وصلاحها، ولما وصل إلى بغداد لم يتمكن مما أراد، وانفرد أبو الفضل بالتدبير دونه.

ذكر خروج مشيد الدولة حبشي بن معز الدولة على أخيه عز الدولة

وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة عصى حبشي على أخيه، وكان بالبصرة، فسيّر إليه وزيره أبا الفضل العباس، وأمره بأخذه كيف أمكن، فسار الوزير، وأظهر أنه يريد الانحدار إلى الأهواز، فلما بلغ واسط أقام بها ليصلح أمرها، وكتب إلى حبشي يعده أن يسلم إليه البصرة سلمًا، ويصالحه عليها، وقال: «إنني قد لزمني مال على الوزارة، ولا بد من مساعدتي» فأنفذ إليه حبشي مائتي ألف درهم، وتيقن حصول البصرة له،

وأرسل الوزير إلى عسكر الأهواز يأمرهم بقصد «الأبلة»[(١)] في يوم ذكره لهم، فلم يتمكن حبشي من إصلاح شأنه، فظفروا به، وأخذوه أسيرًا، وحبسوه برامهرمز، فأرسل عمه ركن الدولة، فخلصه منها، فصار إلى عضد الدولة، فأقطعه إقطاعًا وافرًا، وأقام عنده إلى أن مات في آخر سنة تسع وستين وثلاثمائة، وأخذ الوزير أمواله بالبصرة، وكانت شيئًا كثيرًا، ومن جملة ما أخذ عشرة آلاف مجلّد سوى الأجزاء، وما ليس له جلد.

ذكر عزل أبي الفضل الوزير ووزارة ابن بقية

وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة عزل الوزير أبو الفضل العباس من وزارته في ذي الحجة، واستوزر محمد بن بقية، فعجب الناس من ذلك لأنه كان وضيعًا في نفسه وهو من أهل أوانا[(٢)]، وكان أبوه من الفلاحين لكنه كان قريبًا من بختيار، وكان يتولى مطبخه، ويقدم إليه الطعام، ومنديل الخوان على كتفه إلى أن استوزره، وحُبِس الوزير أبو الفضل، فمات عن قريب، واستقامت أُمور ابن بقية، ومشت الأحوال بين يديه بما أخذه من أموال أبي الفضل وأصحابه، فلما فَني ذلك ظلَم الرعية، فخربت، وزاد الاختلاف بين الأتراك، وبختيار، فشرع ابن بقية في إصلاح الحال بين بختيار، وسُبُكتكين، فاصطلحا، وركب سبكتكين إلى بختيار، ومعه الأتراك، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه من الفساد. وسبب ذلك أن ديْلَمِيًا اجتاز بدار سُكتكين، وهو سكران، فرمى الروشن بزوبين[(٣)] في يده، فأثبته، فصاح سُبُكتكين بغلمانه، فأخذوه، وظن أنه وضع على قتله، فقرره، فلم يعترف، فأنفذه إلى بختيار، فأمر بقتله، فلما قتل قوي ظن سُبُكتكين أنه كان وضعه عليه، وأنه إنما قتله لئلا يذكر ذلك إذا قرره.

ذكر الفتنة بين بختيار وأصحابه

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ابتدأت الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز حتى عمّت العراق جميعه، واشتدت، وسبب ذلك أن عز الدولة قلّت الأموال عنده، وكثر

---

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) أوانا: بالفتح والنون: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

(٣) الزوبين: الرمح القصير.

إدلال جنده عليه، واطراحهم لجانبه، وشغبوا عليه مرة بعد مرة، فتعذر عليه الفرار، ولم يجد وزيره جهة يحتال منها، فتوجَّه إلى الموصل في هذه السنة؛ ليستولي عليها من أبي تغلب بن حمدان، فلم يُفتح عليه بطائل، ولم يحصل له من المال ما يسد به الخَلة، فرجع، وقصد الأهواز ليتعرض إلى واليها بختكين أزاذرويه، ويعمل له حجة يأخذ منه مالاً ومن غيره، فسار بختيار، وتخلف عنه سُبكتكين ببغداد، فلما وصل إلى الأهواز خدم واليها بختيارًا، وبذل من نفسه الطاعة، وحمل إليه أموالاً جليلة، وبختيار مع هذا يفكر في طريق يأخذه بها، فاتفقت فتنة الأتراك والديلم، وكان سببها أن بعض الديلم نزل دارًا بالأهواز، ونزل بعض الأتراك بالقرب منه، وكان هناك لَبِن موضوع، فأراد غلام الديلمي، أن يبني به معلفًا للدواب، فمنعه غلام التركي، فتضاربا، وخرج كل من الدّيلمي والتركي لنصرة غلامه، فضعف التركي عنه، فركب، واستنصر بالأتراك، فركبوا، وركب الديلم، وأخذوا السلاح، فقتل بعض قواد الأتراك، فطلب الأتراك بثأر صاحبهم، وقتلوا من الديلم قائدًا، وخرجوا ظاهر البلد، واجتهد بختيار في تسكين الفتنة، فعجز عن ذلك، فجمع الديلم، واستشارهم فيما يفعله، وكان أُذنًا، فأشاروا عليه بقبض رؤساء الأتراك، فأحضر أزاذرويه، وكاتبه سهل بن بشر، وسباشي الخوارزمي، وبكتيجور، وكان حموًا لسُبكتكين، فقيدهم، وأطلق أيدي الديلم في الأتراك، فنهبوا أموالهم ودوابهم، وقتل بينهم قتلى، فهرب الأتراك، وأخذ بختيار أقطاع سُبكتكين، وأمر فنودي في البصرة بإباحة دم الأتراك. والله أعلم بالصواب.

ذكر حيلة لبختيار عادت إليه

كان بختيار قد واطأ والدته، وإخوته أنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك يظهرون أن بختيارًا قد مات، ويجلسون للعزاء، فإذا حضر سُبكتكين عندهم قبضوا عليه. فلما قبض على الأتراك كتب إليهم على أجنحة الطيور بذلك، فعندها أوقفوا الصراخ في داره، وأشاعوا موتَه ظنًّا منهم أن سُبُكتكين يحضر إلى عندهم ساعة يصل إليه الخبر، فلما سمع الصراخ أرسل يتعرف الخبر، فأعلموه، فأرسل يسأل عن الذي أخبرهم، وكيف أتاهم الخبر، فلم يجد نَقْلاً يثق القلب به، فارتاب لذلك، ثم وصلت رسل الأتراك بما جرى عليهم، فعلم أن ذلك مكِيدة، ودعاه الأتراك إلى أن يأْتمر عليهم فتوقف، وأرسل إلى أبي إسحاق إبراهيم بن معز الدولة يعلمه أن الحال قد فسد بينه، وبين أخيه، فلا يرجى صلاحه، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه، وإن أساؤوا إليه، ودعاه أن يعقد له الأمر، فعرض قوله على والدته، فمنعته منه، فركب سُبُكتكين في الأتراك، وحصر ديار بختيار يومين، ثم أحرقها ودخلها، وأخذ أبا

إسحاق وأبا طاهر محمد، ووالدتهما، ومن كان معهما، فسألوه أن يمكنهم من الانحدار إلى واسط، ففعل، وانحدروا في الماء، ومعهم المطيع لله، فأعاده سُبُكتكين، وذلك في تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وستين، واستولى سُبُكتكين على جميع ما كان لبختيار ببغداد، ونزل الأتراك في دور الديلم، وتتبعوا أموالهم، وثارت العامّة من السُّنَّة لنصرة سُبُكتكين، فأحسن إليهم، وجعل لهم العرفاء، والقواد، فثاروا بالشيعة، وحاربوهم، وسفكت بينهم الدماء، وأحرق الكرخ، وظهرت السنة، ثم خلع سُبُكتكين المطيع، وبايع لابنه الطائع، على ما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية.

ذكر ما اتفق لبختيار بعد قبضه على الأتراك ووفاة سبكتكين وقيام الفتكين

قال: ولما قبض بختيار على الأتراك كما ذكرناه، ورأى ما فعله سُبُكتكين، وأن بعض الأتراك بواد الأهواز قد عصوا عليه، أتاه مشايخ الأتراك من البصرة فعاتبوه على ما فعل بأصحابهم، وقال له الديلم: إنا لا نستغني عن الأتراك في الحرب يدفعون عنا بالنُشَّاب، فاضطرب رأيه، ثم أطلق أزاذرويه، وجعله صاحب الجيش مكان سُبُكتكين، وظن أن الأتراك يأنسون به، وأطلق المعتقلين منهم، وسار إلى واسط، وكتب إلى عمه ركن الدولة، وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن ينجداه، ويكشفا ما نزل به، وكتب إلى أبي تغلب بن حمدان يطلب منه أن يساعده بنفسه، وأنه يسقط عنه المال الذي عليه، وأرسل إلى عمران بن شاهين بالبطيحة خِلَعًا، وأسقط عنه باقي المال، وطلب منه أن يسير إليه بعسكر. فأما عمه ركن الدولة، فإنه جهز عسكرًا مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابنه عضد الدولة بإنجاد ابن عمه، فوعد بالمسير إليه، وانتظر ببختيار الدوائر ليستولي على العراق. وأما عمران بن شاهين، فإنه أخذ الخلع، وقبل إسقاط المال، وأبى أن ينجده. وأما ابن حمدان، فإنه أجاب، وسارع بإرسال أخيه أبي عبد الله الحسينَ إلى تكريت في عسكر، وانتظر انحدار الأتراك من بغداد، فإن ظفروا ببختيار دخل بغداد مالكًا لها، فلما انحدروا عن بغداد سار أبو تغلب بن حمدان إليها، ودخلها ليوجب على بختيار الحجة في إسقاط المال الذي عليه، ووصل إلى بغداد، والناس في بلاء عظيم من العيّارين، فحمى البلد، وكفَّ أهل الفساد، وأما الأتراك، فإنهم انحدروا مع سُبُكتكين إلى واسط ومعهم الخليفة الطائع والمطيع، فتوفي المطيع بدير العاقول لما قدمناه، ومرض سُبُكتكين، فمات، فحملا إلى بغداد، وقدّم الأتراك عليهم الفتكين، وهو من أكابر قوادهم وموالي

معز الدولة، وظن بختيار أن نظام الأتراك قد انحل بموت سُبُكتكين، فلم يزدَدْ إلا قوّةً واشتدادًا، وسار الأتراك إليه، وهو بواسط، فقاتلوه، واتصلت الحرب بينهم خمسين يومًا، والظفر فيها للأتراك، وحصروه حتى اشتد عليه الحصار وأحْدَقُوا به، فتابع إنفاذ الرسل إلى عضد الدولة ابن عمه، وكتب إليه: [من الطويل]

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكلٍ ... وإلاّ فأدركني ولمّا أمزَّقِ

فلما رأى عضد الدولة ذلك، وأن الأمر قد بلغ ببختيار ما كان يرجوه، سار نحو العراق نجدة لبختيار في الظاهر، وطلبًا للاستيلاء في الباطن.

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق والقبض على بختيار

قال: وسار عضد الدولة في عساكر فارس، واجتمع بابن العميد وزير أبيه بالأهواز، وهو بعساكر الريّ، وساروا إلى واسط، فلما بلغ الفتكين خبر وصولهم رجع إلى بغداد، واجتمع بختيار بعضد الدولة، وسار عضد الدولة إلى بغداد في الجانب الشرقي، وأمر بختيارًا أن يسير في الجانب الغربي، ولما رجع الفتكين إلى بغداد فارقها ابن حمدان إلى الموصل، ووصل الفتكين بغداد، وصار محصورًا من جميع جهاته، وذلك أن بختيارًا كتب إلى ضبة بن محمود الأسدي بالإغارة على أطراف بغداد، وقطع الميرة عنها، وكتب بمثل ذلك إلى بني شيبان، وكان أبو تغلب بن حمدان من ناحية الموصل بمنع الميرة عنها، وينفذ سراياه، فغلت الأسعار ببغداد، وخرج الفتكين في الأتراك للقاء عضد الدولة، فلقيه بين ديالى[1] والمدائن، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم الأتراك، وقتل منهم خلق كثير، وذلك في رابع عشر جُمادى الأولى، وسار الأتراك إلى تكريت، وسار عضد الدولة إلى بغداد، وترك بدار المملكة، وأراد التغلب على العراق، واستضعف بختيارًا، وإنما خاف من أبيه ركن الدولة، فوضع جند بختيار على أن يثوروا به، ويشغبوا عليه، ويطالبوه بالأموال، والإحسان إليهم لأجل صبرهم معه، ففعلوا ذلك، وبالغوا، وكان بختيار لا يملك شيئًا، والبلاد خراب، فلا تصل يده إلى أخذ شيء منها، وأشار عضد الدولة على بختيار أن لا يلتفت إليهم، وأن يغلظ لهم في الجواب، ولا يعدهم بما لا يقدر عليه، وأن يعرفهم أنه لا يريد الإمارة عليهم والرئاسة، ووعده أنه إذا فعل ذلك توسط بينهم

---

(١) ديالى: بفتح أوله، وإمالة اللام: نهر كبير بقرب بغداد، وهو نهر بعقوبا الأعظم يجري في جنبها، وهو الحد بين طريق خراسان والخالص، وهو نهر تامرا بعينه. . . (معجم البلدان).

على ما يريده، فظن بختيار أنه ناصحٌ له، ففعل ذلك، واستَعْفى من الإمارة، وأغلق باب داره، وصرف كتَابه وحجّابه، وراسله عضد الدولة ظاهرًا بمحضَرٍ من مقدمي الجند يشير عليه بتطييب قلوبهم، وكان قد أوصاه سرًا أنه لا يقبل منه، فعمل بختيار بما أوصاه به، وقال: لست أميرهم، وقد برئت منهم وترددت الرسائل بينهم ثلاثةَ أيام، هذا، وعضد الدولة يغريهم به، والشغب يزيد كل يوم، فأرسل بختيار إلى عضد الدولة يطلب منه إنجازَ ما وعد به، ففرق الجند على عهدةٍ جميلة، واستدعى بختيارًا وإخوته، فقبض عليهم، ووكل بهم، وذلك لأربع بقين من جُمادى الآخرة، وجمع الناس، وأعلمهم استعفاء بختيار من الإمارة لعجزه عنها، ووعدهم الإحسان إليهم، والنظر في أُمورهم، فسكنوا إلى قوله. والله أعلم.

ذكر عودة بختيار إلى ملكه

قال: ولما قبض عضُدُ الدولة على بختيار كان ولده المرزبانُ بالبصرة متوليًا لها، فامتنع على عضُد الدولة، وكتب إلى رُكن الدولة يشكو ما جرى على أبيه وعمَّيه من عضد الدولة، ومن أبي الفتح بن العميد، ويذكر الحيلة التي تمَّت عليه، فلما سمع ركنُ الدولة ذلك ألقى نفسه إلى الأرض، وتمرَّغ عليها، وامتنع من الأكل والشرب عدَّة أيام، ومرض، وكان محمد بن بقيَّة قد خدم عضد الدولة بعد بختيار، وضمن منه مدينة واسط وأعمالها، فلما صار إليها خَلَع طاعةِ عضد الدولة، وخالف عليه، وأظهر الامتعاض لقبض بختيار، وكاتَب عمران بن شاهين، وطلب مساعدته، فأجابه إلى ذلك، وكان عضد الدولة قد ضمن لسهل بن بشر وزير الفتكين بلد الأهواز، وأخرجه من حبس بختيار، فكاتبه عمه ابن بقية، واستماله فأجابه، وكاتب ركن الدولة من عصي على ابنه عضد الدولة، بالثبات والصبر، وأنه على المسير إلى العراق لإخراج عضد الدولة، وإعادة بختيار، فاضطربت النواحي على عضد الدولة، وتجاسر عليه الأعداء، وانقطعت عنه موارد فارس، ولم يبق بيده إلا قصبة بغداد، وطمع فيه العامة، فرأى إنفاذ أبي الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يعرفه ما جرى له، وما فرق من الأموال، وضَعْف بختيار عن حفظ البلاد، وأنه إن أُعيد خرجت المملكة وتدبير الخلافة عنهم، وكان في ذلك بوارُهم، وسأله ترك نصرة بختيار، وقال لأبي الفتح: فإن أجاب إلى ما تريد، وإلاَّ فقل له: إني أضمن منك أعمالَ العراق، وأحمل إليك في كل سنة ثلاثين ألف درهم، وأبعث بختيارًا وإخوته إليك، لتجعلهم بالخيار بين الإقامة عندك، أو بعض بلاد فارس، وإن أحببتَ أنت أن تحضُر إلى العراق لتَليَ تدبير الخلافة وتُنفذَ بختيار إلى الريّ، وأعود أنا إلى فارس، فالأمر إليك، وقال لابن

العميد: فإن أجاب إلى ذلك، وإلا فقل له: أيها السيدُ الوالد أنت مقبول الحكم والقول، ولكن لا سبيلَ إلى إطلاق هؤلاء القوم بعد مكاشفتهم، وإظهار العداوة، وسيقاتلونني بغاية ما يقدرون عليه، فتنتشر الكلمة، ويختلف أهل هذا البيت أبدًا، فإن قبلتَ ما ذكرتُه، فأنا العبد الطائع، وإن أبيتَ وحكمت بانصرافي، فإنني سأقتل بختيارًا وإخوته، وأقبضُ على كلِّ من اتهمه بالميل إليهم، وأخرجُ عن العراق، وأتركُ البلاد سايبةً ليدبِّرها من اتفقَت له، فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة، وأشار أن يسير غيرُه بها، ويسير هو بعده، ويكونَ كالمشير على ركن الدولة بإجابته إلى ما طلب، فأرسل عضدُ الدولة رسولاً غيره، وسير بعده ابن العميد على الجمَّازات[1]، فلما حضر الرسول عند ركن الدولة، وذكر بعض الرسالة، ووثب إليه ليقتله، فهرب من بين يديه، ثم ردَّه بعد أن سكن غضبُه، وقال: قل لفلان ـ يعني عضُد الدولة ـ وسماه بغير اسمه، وشتمه: خرجتَ إلى نُصْرة ابن أخي، أو الطمع في ملكه؟ أما عرفتَ أني نصرتُ الحسنَ بن الفيرزان، وهو غريبٌ مني، مرارًا كثيرة أخاطِرُ فيها بمُلكي ونفسي، فإذا ظفرت أعدت له بلاده، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، كلُّ ذلك طَلَبًا لحسن الذكر، ومحافظة على الفتوة، تريد أن تَمُنَّ علي بدرهمين أنفقتَهما علي، وعلى أولاد أخي، ثم تطمع في ممالكهم، وتهددني بقتلهم؟ فعاد الرسول، ووصل ابنُ العميد، فحجبه ركنُ الدولة، وتهدَّده بالهلاك، وأنفذ إليه يقول: والله لا تركتك وذلك الفاعل ـ يعني عضد الدولة ـ تجتهدان جهدكما، ثم لا أخرج إليكما إلا في ثلاثمائة جمَّازة، وعليها الرجال، ثم أثبتوا إن شئتم، فوالله لا أقاتلكما إلا بأقرب الناس إليكما، وكان ركن الدولة يقول: إنني أرى أخي معزَّ الدولة في المنام كلَّ ليلة يعضّ على أنامِله، ويقول: يا أخي هكذا، أضمنت لي أن تخلفني في ولدي، ثم إن الناس سعوا لابن العميد، وتوسَّطوا له عند ركن الدولة، وقالوا إنما تُحمِّل ابن العميد هذه الرسالة ليجعلها طريقًا إلى الخلاص من عضد الدولة، والوصول إليك لتأمر بما تراه، فأذن له في الحضور عنده، واجتمع به وضمن إعادة بختيار عضد الدولة إلى فارس، وتقرير بختيار، فردّه إلى عضد الدولة فعرّفه جليَّةَ الحال، فأجاب عضد الدولة إلى العود إلى فارس، وأعاد بختيار، وخلع عليه، وشرط عليه أن يكون نائبًا عنه بالعراق، ويخطب له، وجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش، وردَّ عليهم جميع ما كان لهم، وسار إلى مارس في شوال من السنة، وأمر أبا الفتح بن العميد وزير أبيه أن يلحقه بعد ثلاثة أيام، فلما سار عضد الدولة أقام ابن العميد عند بختيار، وتشاغلا باللذات، واتفقا في

---

(١) الجماز: الجمل السريع الذي يحمل البريد، جمع الجمازات.

الباطن أنه إذا مات ركن الدولة سار إليه ووزر له، فاتصل ذلك بعضد الدولة، وكان سبب هلاك ابن العميد، واستقر بختيار ببغداد، ولم يفِ لعضد الدولة، ولما ثبت ملك بختيار أنفذ ابن بقية من خلفه له، وحضر عنده، وأكد الوحشة بينه وبين عضد الدولة، واستمال ابن بقية الأجناد إليه، وجبى كثيرًا من الأموال إلى خزائنه، وقوي أمره. هذا ما كان من أمر بختيار.

وأما ما كان من أمر الفتكين فإنه سار إلى التتار، واستولى على دمشق، وأخذها من ريان خادم المعزِّ لدين الله العلوي صاحبِ مصر، وخطب بها للطائع لله في شعبان، وأقطع البلاد، وكثر جمعهُ، وتوفَّرت أمواله، وكاتب المعزَّ بالانقياد إليه، فطلبه إلى الحضور عنده ليخلع عليه، فلم يجبه، فتجهَّز المعزُّ وقصده، فمات، وولي بعده العزيز، فطمع الفتكين، واستولى على بعض بلاد الساحل، فجهز إليه العزيز العساكر مع جوهر، فحصر دمشق، فاستنجد الفتكين بالحسن بن أحمد القرمطي، فأتاه، ففارق جوهرُ البلد بعد أن أقام عليها سبعة أشهر، فتبعه الفتكين والقرامطة، فأدركوه بظاهر الرملة، فاقتتلوا، ثم حصل اتفاقهم على تخلية سبيل جوهر، فسار إلى مصر، فخرج العزيز بجموعه، وقاتل الفتكين وأسره، وأحسن إليه، ونقله معه إلى مصر، وأنزله عند قصره، وحكمه في دولته، فتكبر على وزيره يعقوب بن كلس، فوضع عليه من سقاه سمًا، فمات. والله أعلم.

ذكر مقتل عز الدولة بختيار بن معز الدولة وشيء من أخباره

كان مقتله في ثامن عشر شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة، وسبب ذلك أنه كان بينه وبين ابن عمِّه عضُد الدولة ابن ركن الدولة ما قدمناه، وقام عمه ركن الدولة في نُصرته حتى أعاده، فلما مات ركن الدولة في سنة ست وستين سار عضد الدولة إلى العراق وكان بينه وبين بختيار واقعة، واصطلحا بعد ذلك، ثم سار عضد الدولة في هذه السنة، واستولى على بغداد كما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره، وخرج بختيار من بغداد بما زوده به عضد الدولة، وقصد الشام، ومعه حمدان بن ناصر الدولة ابن حمدان، فلما صارا بعكبرا حسَّن له حمدان قصد الموصل، وأطمعه فيها، وقال: هي خيرُ من الشام وأسهل، فسارا نحو الموصل، وكان عضد الدولة قد حلَّفه أنه لا يقصد ولاية أبي تغلب بن حمدان لمودة كانت بينهما، فنكث وقصدها، فلما صار إلى تكريت أتته رسل أبي تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان، ويُسْلِمه إليه، وإذا فعل ذلك سار معه بنفسه وعساكره إلى العراق، وقاتل عضد الدولة، وأعاده

إلى ملك بغداد، فقبض بختيار عند ذلك على حمدان، وسلمه لرسل أخيه، وسار بختيار إلى الحديثة[١]، واجتمع بأبي تغلب، وسارا جميعًا نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحوًا من عشرين ألف مقاتل، وبلغ ذلك عضد الدولة، فسار من بغداد نحوهما، والتقوا بقصر الجصّ بنواحي تكريت، فهزمهما عضد الدولة، وأسر بختيار، وجيء به إلى عضد الدولة، فلم يأذن له بالدخول عليه، وأمر بقتله، واستقر ملك عضد الدولة.

وكان عمر بختيار ستًا وثلاثين سنة، ومدة ملكه أحد عشر سنة وستة شهور.

أولاده: إعزاز الدولة المرزبان أبو عبد الله الحسين، أبو العباس سلار، أبو القاسم، أبو نصر شاهفرون، أبو محمد سهلان.

وزراؤه: أول من وزر له: أبو الفضل العباس بن الحسين إلى أن قُبِض عليه في سنة تسع وخمسين، فاستوزر أبا الفرج محمد بن العباس، ثم قبض عليه في شهر رجب سنة ستين، واستوزر أبا طاهر محمد بن بقية، وأقام إلى أن قُبِضَ عليه بعد انهزامه من عضد الدولة في الكرَّة الثانية، وسمله، ثم صلبه عضد الدولة بعد أن رماه تحت أرجل الفِيلَة.

حجابه: إبراهيم بن إسماعيل قتل في الوقعة، وأما المرزبان بن عز الدولة، وعماه: عمدة الدولة إبراهيم، وأبو طاهر محمد، فإنهم وصلوا إلى دمشق والتجؤوا إلى غلامهم الفتكين، وشهدوا معه حرب القائد جوهر بعسقلان، ثم حضروا الواقعة الكائنة بين الفتكين والعزيز، فقتل محمد، وأسر المرزبان عمه إبراهيم، والفتكين، ومنَّ عليهم العزيز، واستخدمهم إلى أن توفي المرزبان بمصر في سنة ست وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم، وتوفي إبراهيم في أيامه أيضًا لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة أربعمائة بعد أن نعت بعزيز الدولة الحاكمية.

ذكر أخبار عضد الدولة

هو أبو شجاع فناخسرو عضد الدولة تاج الملة شاهنشاه بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه.

---

(١) الحديثة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء ساكنة، وثاء مثلثة: هي في عدة مواضع: حديثة الموصل: وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى... وحديثة الفرات: وتعرف بحديثة النورة: وهي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة... والحديثة أيضًا: من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش... (معجم البلدان لياقوت).

اجتمع له من الممالك ما تفرق لأبيه وعميه، وقد قدمنا أن عمه عماد الدولة ابن بويه جعله ولي عهده، وذلك لأربع عشرة بقيت من جُمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، فأول ما ظهر من أفعاله بعد وفاة عمه ببلاد فارس أنه استولى على حصن ابن عمارة المتوسط لمدينة هرو، وهي مدينة على ساحل البحر الهندي من أعمال فارس قد بنيت على مصبّ الماء تجمع المراكب المنكسرة، والبضائع الغارقة، فيستعين أهلها بذلك، وأهل هذا الحصن ينسبون إلى معد يكرب، ثم إلى الجلندي بن كركر يتوراثونه لم ينتزع منهم، ولم تفتح عنوة، ولا صلحًا قبلها. ذكر ابن جوقل في كتابه: أن صاحب هذا الحصن هو الملك المذكور وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]. ولم يباشر عضد الدولة الحصار بنفسه، وإنما بعث عليًا بن الحسين السيفي في جيش إلى الحصن، فحاصره برهة من الدهر حتى استعزل صاحبه، وهو أبو طالب بن رضوان بن جعفر بالأمان، وتسلم الحصن بما فيه، وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة بعث إلى عمان عسكرًا مع عسكر لعمه معز الدولة، ففتحها، ثم بعد ذلك «كرمان» في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأقطعها ولده أبا الفوارس، وأطاعه صاحب سجستان، ونقش السكة باسمه، وأقام له الخطبة. ثم ملك قلعة بَرَدْسير[١] وهي مثوى آل اليسع، ولما عاد من كرمان فتح جبال القُفص، وهذه البلاد لها جبل وسهل. فأهل السهل يعرفون: بالمنوجان وهو اسم البلاد، وأهل الجبل يعرفون: بالقُفص، والبُلُوص، وهم قبائل وشعوب، وبلادهم هذه في طرف كرمان مما يلي فارس، ثم جرت لجيشه معهم بعد ذلك وقائع كان الظفر فيها لأصحابه عضد الدولة، وفي أثناء حروب جيشه لهم حصل استيلاء عضد الدولة على هرموز[٢]، وبلاد التيز[٣]، ومُكْران في سنة ستين وثلاثمائة، ثم سألوا الأمان على إقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والاجتهاد في الطاعة، واجتناب إخافة السبيل فأمنهم. قال المؤرخ: ثم سار عسكره، ومقدمة كوركير إلى أمة من ورائهم يقال لهم الخُرَّميَّة، والحاسكية فهزمهم، وقتل منهم خلقًا، وأسر مقدميهم، وجماعة من رؤسائهم، وأنفذهم إلى شيراز، وتوطأت هذه البلاد مدة، ثم كان بينهم، وبين العسكر العضدي وقعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين

---

(١) بردسير: بكسر السين، وياء ساكنة، وراء: أعظم مدينة بكرمان مما يلي المفازة التي بين كرمان وخراسان.

(٢) هرمز: (لم يذكر ياقوت غيرها في معجمه بهذا اللفظ): مدينة في البحر إليها خور وهي على ضفة ذلك البحر وهي على برّ فارس.

(٣) التيز: بالكسر: بلدة على ساحل بحر مكران أو السند، وفي قبالتها من الغرب أرض عمان... (معجم البلدان).

وثلاثمائة، ودامت إلى غروب الشمس، فانجلى ذلك اليوم عن قتل أكثر مقاتليهم، والإحاطة بحريمهم، وذراريهم، ولم يبق منهم إلا اليسير، ثم كان بين عضد الدولة، وبين عز الدولة بختيار بن معز الدولة ما قدمناه في أخبار بختيار في سنة أربع وستين وثلاثمائة، فلا فائدة في إعادته، فلما مات والده ركن الدولة في سنة ست وستين وثلاثمائة قصد العراق في تلك السنة، فخرج عز الدولة لقتاله، والتقوا، واقتتلوا في ذي القعدة من السنة، فالتحق بعض أصحاب بختيار بعضد الدولة، فانهزم بختيار، واحتوى عضد الدولة على ماله، ومال وزيره ابن بقية، وسير عضد الدولة جيشًا إلى البصرة، فملكها.

ذكر القبض على أبي الفتح بن العميد

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة قبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه وسمل إحدى عينيه، وقطع أنفه، وكان سبب ذلك أنه لما فارق عضد الدولة بغداد كما ذكرناه في أيام بختيار، أمر ابن العميد أن يلحقه بعد ثلاث، فخالفه، ووافق عز الدولة، ووعده أن يلحق به إذا مات ركن الدولة، ثم صار يكاتبه بأشياء يكرهها عضد الدولة، وكان لابن العميد نائب يعرض كتبه على عز الدولة، وذلك النائب يكاتب عضد الدولة بما يكتبه ابن العميد بختيار ساعة بساعة، فلما ملك عضد الدولة بعد موت أبيه كتب إلى أخيه مؤيد الدولة بالريّ يأمره بالقبض على ابن العميد، وعلى أهله، وأصحابه، ففعل ذلك، وكان أبو الفتح ليلة قبضه قد أمسى مسرورًا، فأحضر ندماءه، والمغنين، وأظهر من آلات الذهب والفضة والزجاج، وأنواع الطيب ما ليس لأحد مثله، وشربوا وعمل شعرًا، وغني له به، وهو: [من المتقارب]

دعوتُ المنى ودعوْتُ العُلى ... فلمّا أجابا دعوتُ القَدح

وقلتُ لأيام شرخ الشباب: ... إليَّ فهذا أوانُ الفرح[1]

إذا بلغ المرءُ آمالَه ... فليس له بعدها مقترح

وشرب ليلته على هذا الشعر إلى أن سكر، وقام، وقال لغلمانه: اتركوا المجلس على ما هو عليه لنصطبح غدًا، وقال لندمائه بكروا غدًا لنصطبح، ولا تتأخروا، فانصرف الندماء، ودخل هو إلى بيت منامه، فلما كان وقت السحر استدعاه مؤيد الدولة، فقبض عليه، وأرسل إلى داره، فأخذ جميع ما فيها، ومن جملته ذلك المجلس بما فيه.

---

(١) شرخ الشّباب: أوّله وأفضله.

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق

كان استيلاؤه على بغداد في سنة سبع وستين، وذلك أنه سار إلى العراق، وأرسل إلى عزِّ الدولة ابن عمه يدعوه إلى طاعته، وأن يتوجَّه من العراق إلى أي جهة أحب، فأجاب إلى ذلك، وسار عن بغداد، وكان من خبره، ومقتله ما قدمناه، ولما قَدِم عضد الدولة إلى بغداد نزل بباب الشمّاسية في يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الآخر من السنة، وتلقاه الخليفة الطائع لله في البحر قبل ذلك بيومين، ثم دخل إلى دار الخلافة في يوم الأحد لتسع خلون من جُمادى الأولى منها، وقبّل الأرض بين يدي الخليفة الطائع لله، فخلع عليه، وتوجّه، وطوّقه، وسوَّره، وقلَّده ما وراء داره، وعقد له لواءين: أحدهما: على المشرق، والآخر: على المغرب، وأرخى إحدى ذؤابتيه منظومة بالجوهر، وزاد في لقبه تاج الملَّة: وكان وزنُ السوادين، والطوق: ألفين وخمسمائة مثقال. قال أبو إسحاق الصباني، وكان في غرة التاج وجوانبه من الجوهر، وأحجار الياقوت الأحمر ما يتجاوز إحصاؤها التثمين، أو يحدها التقويم، وطرح بين يديه من نثار الذهب والورِق شيء كثير على الأنطاع[١] حتى صار كالبيدر، وقرىء عهده بين الخليفة، ولم يجر بذلك عادة، وأخذ الخليفة الذؤابةَ للرُخاة، فعقدها بيده، وذلك بمسألة تقدمت من عضد الدولة، وقلَّده الخليفة سيفًا ثانيًا وركب من مراكب الخليفة بِرُكبُ الذهب، وبين يديه آخر مثله، والجيش بين يديه، وخلفه مشاة إلى أن خرج من باب الخاصة، فسار الجيش أمامه، واستقر مُلكه ببغداد، خُطِب له بها، ولم يخطب لملك قبله ببغداد، وضُرِب على بابه ثلاث نوب، ولم تجرِ بذلك عادة. قال: ولما دخل إلى بغداد أرسل إلى بختيار يطلب منه وزيره محمد بن بقية، فسمله بختيار، وأنفده إليه، فأمر عضُد الدّولة بإلقائه بين قوائم الفِيلة، فوطئته حتى مات، وصلب على رأس الجسر في شوال، فرثاه أبو الحسن الأنباري بقوله:

علوٌّ في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

وقد ذكرنا الأبياتَ في باب المراثي، وبقي ابن بقية[٢] مصلوبًا إلى أيام صمصام الدولة، فأنزل عن جذعه، ودفن، ولما استقر ملك عضد الدولة ببغداد، أتاه

(١) النطع: بساط من الجلد، كثيرًا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل. جمع أنطاع، ونطوع، وأنطع.

(٢) هو الوزير أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية بن علي، الملقب نصير الدولة، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه، كان من جلّة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء... كان من أهل أوانا من أعمال بغداد... (وفيات الأعيان ٥: ١١٨).

الخبر أن عزَّ الدولة بختيارًا قد نقض العهد، واجتمع هو وابن حمدان، واتفقا على حربه، فخرج إليهما، فكان من أمرهما ما قدمناه في أخبار بختيار، وأخبار الدولة الحمدانية.

ذكر استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان

قال: ولما انهزم أبو تغلب في الحرب التي قدمناها مع عز الدولة، سار إلى الموصل، فسار عضد الدولة نحوه، فملكها في ثاني عشر ذي القعدة سنة سبع وستين، وملك ما يتصل بها، فظن أبو تغلب أنه يفعل كما فعل غيرُه يقيم يسيرًا ثم يضطرّ إلى المصالحة، ويعود، فكان عضد الدولة أحزم من ذلك، وذلك أنه لما قصد الموصل حمل معه الميرة والعلوفات، وأقام بالموصل، وبثَّ سراياه في طلب أبي تغلب، فأرسل أبو تغلب يسأل أن يضمن البلاد منه، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: هذه البلاد أحبُّ إلي من العراق، فسار أبو تغلب إلى نصيبين، فسير عضد الدولة سَريّة استعمل عليها حاجبه طغان إلى «جزيرة ابن عمر»[١]، وسرية في طلب أبي تغلب، وعليها أبو طاهر محمد على طريق «سَنجار»، فسار أبو تغلب جدًا إلى ميَّافارقين، ثم منها إلى بدليس[٢]، واستولى عضد الدولة على مَيَّافارقين، وديار مضر، وغيرها من بلاد الجزيرة، وذلك في سنة ثمان وستين وثلاثمائة، ثم عاد إلى بغداد في سلخ ذي القعدة من السنة، واستخلف على أعمال أبي تغلب بن حمدان أبا الوفا طاهر محمد، وفي سنة تسع وستين في شهر رجب جهّز عضد الدولة جيشًا إلى بني شيبان، كانوا قد أكثروا الغارات، والفساد في البلاد، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا قد عقدوا بينهم وبين أكراد شَهْرزور[٣] مصاهرات، وكانت شَهْرزُور ممتنعة على الملوك، فأمر عضد الدولة عسكره بمنازلتها لتنقطع أطماع بني شيبان عن التحصن بها، فاستولى أصحابه عليها، وملكوها فهرب بنو شيبان، وسار العسكر في طلبهم، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قتل فيها من بني شيبان خلق كثير، ونهبت أموالهم، ونساؤهم، وأُسر منهم ثمانمائة أسير حملوا إلى بغداد.

---

(١) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، وله رستاق مخصب واسع الخيرات... (معجم البلدان).

(٢) بدليس: بالفتح ثم السكون، وكسر اللام، وياء ساكنة، وسين مهملة: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة، وتفاحها يضرب به المثل في الجودة والكثرة والرخص... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.

ذكر عمارة عضد الدولة بغداد، وما فعله من وجوه البر

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة شرع عضُد الدولة في عمارة بغداد وكانت قد خربت لتوالي الفتن فيها، وعمّر مساجدها، وأسواقها، وأدرَّ الأموال على الأئمة، والمؤذِّنين، والفقهاء، والغرباء، والضعفاء، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدَّد ما دثر من الأنهار، وأعاد حفرها، وتسويتها وأطلق مكوس الحُجّاج، وأصلح الطرق من العراق إلى مكة، وأطلق الصلات لأهل البيوتات، والشرف، والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة، وفعل مثل ذلك بمشهد عليّ، والحسين، وأجرى الجرايات على الفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين، والمفسرين، والنحاة، والشعراء والأطباء، والحسَّاب، والمهندسين، وأذن لوزيره نصر بن هارون، وكان نصرانيًا بعمارة البيع[١]، والديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم.

ذكر قصد عضد الدولة أخاه فخر الدولة، وأخذ بلاده

قال: وفي هذه السنة سار عضد الدولة إلى بلاد الجبل، فاحتوى عليها، وسبب ذلك أن عز الدولة بختيارًا كان يكاتب فخر الدولة بعد موت ركن الدولة يدعوه إلى الاتفاق معه على عضد الدولة، فأجابه إلى ذلك، واتفقا عليه، وعلم عضد الدولة بذلك، فكتمه إلى الآن، فلما خلا وجهه من أعدائه كاتبه يعاتبه على ما كان منه، ويستميله، فأجاب جواب المناظر المناوىء، وكان رسول عضد الدولة إليه خواشاده؛ وهو من أكابر أصحابه، فاستمال أصحاب فخر الدولة، وضمن لهم الإقطاعات، وأخذ عليم العهود، فلما عاد إلى عضد الدولة برز من بغداد، وقدم جيوشه يتلو بعضها بعضًا، فخرج إليه أصحاب فخر الدولة، وانضموا إلى عسكره، وخرج فخر الدولة من همذان هاربًا إلى جرجان، والتجأ إلى شمس المعالي قابوس بن وشمكير، فأمنه، وآواه، وحمل إليه فوق ما في نفسه، وشركه فيما تحت يده من ملك وغيره، وملك عضد الدولة ما كان بيد أخيه فخر الدولة: همذان، والريّ، وما بينهما من البلاد، وسلم ذلك لأخيه مؤيد الدولة وجعله نائبًا في تلك النواحي، ثم عرج عضد الدولة على ولاية حسنويه، فقصد نهاوند[٢]، والدينور ففتحهما وعدة قلاع، وأخذ ما فيها من ذخائر حسنويه، وكانت جليلة المقدار، وأصاب عضد الدولة في هذه السفرة

---

(١) البيع: واحدتها البيعة، وهي معبد النصارى.

(٢) نهاوند: بفتح النون الأولى وتكسر، والواو مفتوحة، ونون ساكنة، ودال مهملة: هي مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام... (معجم البلدان لياقوت).

صرع، كان قد حدث به وهو بالموصل، فكتمه، وصار كثير النسيان لا يذكر الشيء إلا بعد جهد كبير، وبقي الصرع يعاوده إلى أن قتله على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك عضد الدولة بلد الهكارية

وفي هذه السنة سيّر عضد الدولة جيشًا إلى الأكراد الهكّارية(١) بأعمال الموصل، فأوقع بهم، وحصر قلاعهم، وطال مُقام الجند في حصْرها، وكان من بالحصون من الأكراد ينتظرون نزول الثلج ليرحل العسكر عنهم، فقدر الله تعالى أن الثلج تأخر نزوله في تلك السنة، فطلبوا الأمان، فأجيبوا إليه، وسلَّموا القلاع ونزلوا إلى الموصل مع العسكر، فلم يفارقوا أعمالهم غير يوم واحد حتى نزل الثلج، ثم إن مقدم الجيش غدر بالهكّارية، وقتلهم على جانبي الطريق من معلثايا(٢) إلى الموصل نحو خمسة فراسخ. والله أعلم بالصواب.

ذكر وفاة عضد الدولة وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته ببغداد في ثامن شوال سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنه اشتد به ما كان يعتاده من الصرع، وضعفت قوته عن دفعه، فخنقه، فمات، ودفن بمشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجلس ابنُه صمْصام الدّولة للعزاء، وأتاه الخليفة الطائع لله، فعزّاه به، وكان عُمر الدولة سبعًا وأربعين سنة، مدة سلطنته بالعراق خمسُ سنين وستة شهور، وأما مدة ملكه ببلاد فارس منذ وفاة عمِّه عماد الدولة وإلى أن توفي هو: ثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرون يومًا. قال: ولما حضرته الوفاة لم ينطلق لسانه بغير قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، وكان عاقلاً حسن السياسة، شديد الهيبة، بعيد الهمة ثاقب الرأي محبًا للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء، مانعًا في أماكن الحزم، ناظرًا في عواقب الأمور، وكان له شعر حسن فمنه قوله ـ وقد أرسل إليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر من مساعدته لبختيار، ويطلب الأمان ـ فقال عضد الدولة: [من الكامل]

أأفاق حين وطئت ضيق خناقة ... يبغي الأمان وكان يبغي صارما
فلأركبنَّ عَزيمةً عَضُدّيَةً ... تاجيةً تدع الأنوفُ رواغِما

---

(١) الهكارية: بالفتح، وتشديد الكاف، وراء، وياء نسبة: بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكاريّة... (معجم البلدان).

(٢) معلثايا: بليدة قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل... (المراصد... لابن عبد الحق البغدادي).

وقال أبياتًا، فمنها بيت لم يفلح بعده، وهي: [من الرّمل]

ليس شربُ الكأس إلاّ في المطر وغناءٍ من جوارٍ في السحر
غانياتٍ سالباتٍ للنهى ناعمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقياتِ الراح من فاقَ البشر[1]
عضد الدّولة باني ركنها ملكَ الأملاك غلاّب القدر

ومن أخباره أنه كان في قصره جماعة من الغلمان يحمل إليهم مشاهراتهم من الخزانة، فأمر أبا نصر خواشاذه أن يتقدم بصرف جوامكهم إلى نقيبهم في شهر، وقد بقي منه ثلاثة أيام، قال أبو نصر: فأنسيت ذلك أربعة أيام، سألني عضد الدولة عن ذلك، فاعتذرت بالنسيان، فأغلظ لي، فقلت: أمس استهل الشهر، والساعة يحمل المال، وما هذا مما يوجب شغل القلب، فقال: المصيبة بما لا نعلم من الغلط أكبر منها في التفريط، أما تعلم أنا إذا أطلقنا لهم ما لهم قبل محلّه كان الفضل لنا عليهم، وإذا أخَّرنا عنهم ذلك حتى استهلَّ الشهر الآخر حضروا عند عارضهم[2]، وطالبوه، فيعِدُهم، ثم يحضرون في اليوم الثاني، فيعدهم، ثم يحضرون في اليوم الثالث، ويبسطون ألسنتهم، فتضيع المنّة، وتحصل الجرأة، وتكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح، وكان لا يُعوِّلُ في الأمور إلا على الكفاءة، ولا نجعل للشفاعات طريقًا إلى معارضة ما ليس من جنس الشافع، ولا فيما يتعلق به.

حكي أن مقدم جيشه أسفار بن كَرِدَوَيْه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدَّم عند القاضي بسماع البيِّنة بتزكيته، وتعديله، فقال له: «ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل رتبة جندي، وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها، فهي إلى القاضي وليس لنا، ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما تجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة»، وكان رحمه الله يخرج كل سنة أموالاً كثيرة للصدقة، والبر في سائر البلاد، ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة، ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقه، وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم، ويحاسبهم به إذا عملوا، وكان محبًا للعلوم وأهلها، مقرِّبًا لهم، محسنًا إليهم وكان يجلس معهم، ويعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب منها: الإيضاحُ في النحو، ومنها الحجَّة في القراآت، ومنها الملكي في الطلب،

(١) الراح: الخمر.

(٢) العارض: رئيس ديوان الجند، وإليه يوكل نفقات الجيش وأرزاق الجند.

والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك، وعمل المصالح العامة في سائر البلاد كالبمارستان والقناطر، فمن جملة ما عمره: المدينة التي سماها «كرد فناخسرو»، وهي على دون الفرسخ من شيراز، وساق إليها الماء من عين كانت على أربع فراسخ منها، وبدأ بالعمارة في يوم الأحد لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، قال الصابي: بلغت النفقة عليها عشرين ألف ألف درهم، ومن غريب عمائره: السكر الذي أنشأه على النهر المعروف بالكُرْ اصطخر، وحرمه على عشرة فراسخ من قصبة شيراز، وهو شاذرْوان[1] عظيم، ينحط الماء من رؤوس الجبال ويجتمع عليه، وينحط إلى أغوار كانت قفارًا ومهامه[2]، فلما تم له ذلك بنى في تلك الأراضي ثلاثمائة قرية، ونقل إليها الفلاحين، وسماها رستاق فناخسرو، وصار في مقدار خراج بلاد فارس. قال الصابي: وانتهت النفقة عليه ألفي ألف دينار، واجتمع لعضد الدولة من الممالك سجستان، وكرمان، وجرجان، وطبرستان، والري، وأصفهان، وهمذان، وسائر بلاد أذربيجان، وبلاد فارس، وعمان، والعراق، والموصل، وديار مضر، وديار بكر، والجزيرة، وكان مع ما فعله من الخبر والبر أحدث في آخر أيامه رُسومًا جائرة في المساحة، والضرائب، وكان يتوصّل إلى أخذ المال بكل طريق، وكان يُرفع إليه من الأعمال في كل سنة بعد ما رتَّبه من الصِّلات، والإدرارات، وجهاتِ البر اثنان وثلاثون ألف ألف دينار.

أولاده: شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل، صمصام الدولة أبو كاليجار المرزيان، بهاء الدولة أبو نصر خسرو فيروز، وقيل فيروزشاه، تاج الدولة أبو الحسين أحمد، وهو أديب آل بويه، أبو طاهر فيروزشاه، أبو دلف سهلان توفي في حياته.

وزراؤه: الأستاذ الجليل أبو القاسم المطهر بن عبد الله إلى أن قتل نفسه في سنة تسع وستين، وهو يحاصر البطيحة، وبهاء الحسن بن عمران بن شاهين، فاستوزر الأستاذ أبا منصور نصر بن هارون النصراني الشيرازي المشهور بعلو الطبقة في الحساب.

حجابه: أبو علي التيمي، أبو حرب طغان، أبو الفتح المظفر بن محمود، أبو القاسم سعد بن محمد الشاسي وغيرهم. فلنذكر بقية من في طبقة عضد الدولة.

---

(١) الشاذروان: أساس يوثق حول القناطر ونحوها.

(٢) المهمه: المفازة البعيدة؛ أو البلد المقفر. جمع مهامه.

ذكر أخبار مؤيد الدولة أبي منصور بويه
ابن ركن الدولة ابن بويه

كان مؤيد الدولة شقيقًا لعضد الدولة، وأمهما جارية تركية، وكان نائبًا عن أبيه بأصفهان عند خروج عضد الدولة منها إلى بلاد فارس، فلما توفي والده مضى إلى الريّ، وتسلمها، وتسلم سائر البلاد المقررة له بوصية أبيه، وهي قزوين، وزنجان، وقم، وقاجان، وأبهر، وما والاها مضافًا إلى الريّ، وأصفهان، وكان لا يبرم أمرًا إلا برأي أخيه عضد الدولة، ولما وقع بين عضد الدولة وبين أخيه فخر الدولة ما ذكرناه، وأخذ بلاده من يده سلّمها لمؤيد الدولة نيابة عنه، وندبه إلى المسير إلى طبرستان، وجرجان لانتزاعهما من يد قابوس بن وشمكير، فسار إليهما، وانتزعهما منه، ثم اتفقت وفاة عضد الدولة، وأقام مؤيد الدولة بعده في البلاد إلى أن توفي بجرجان في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، فكانت مدة ملكه بعد وفاة أبيه سبع سنين، وستة أشهر، وأيامًا.

ولده: أبو النصر.

وزراؤه: ذو الكفايتين أبو الفتح بن العميد إلى أن قبض عليه بأمر أخيه عضد الدولة كما ذكرناه، وقطع يده، وأنفه، ثم قتله بعد مصادرته، واستوزر بعده الصاحب الجليل أبا القاسم إسماعيل بن عباد، وكان يلبس القباء استخفافًا بالوزارة، وانتسابًا إلى الجندية، وإنما عرف ابن عباد بالصاحب لصحبته لابن العميد.

ذكر أخبار فخر الدولة وفلك الأمة
أبي الحسن علي ابن ركن الدولة ابن بويه

وفخر الدولة هذا هو أوسط أولاد ركن الدولة يلي عضد الدولة في السن، وأُمه ابنة الحسن بن الفيرزان أحد ملوك الديلم، فجمع المملكة من الطرفين، وكان والده ركن الدولة قد جعل له همذان، والدينور، والأيغارين، ونهاوند، وما والى ذلك من بلاد الجبل. ولما وقع بينه وبين أخيه عضد الدولة ما ذكرناه من ميله مع ابن عمه عز الدولة بختيار على أخيه عضد الدولة، أرسل عضد الدولة جيشًا مع أبي الفتح المظفر الحاجب، وتلاه بجيش آخر. ثم عززهما بجيش ثالث، ثم سار هو بنفسه، فالتحق به بعض أصحاب فخر الدولة، وكاتبه عبيد الله بن محمد حمدويه، فعلم فخر الدولة أنه لا قبل له بما دهمه، ففارق بلاده، وسار في خواص غلمانه

إلى «هوسم»[١] من بلاد الجبل، والتحق بعلي بن الحسين العلوي، ثم انتقل من «هوسم» إلى جرجان، والتجأ إلى قابوس بن وشمكير، وكان عنده مكرمًا إلى أن توفي عضد الدولة، ثم توفي مؤيد الدولة بجرجان، فضبطها الصاحب بن عباد بالعساكر، وجمع القواد واستشارهم، وقرر الأمر لفخر الدولة، ثم خاف افتراق الأجناد، فأجلس أبا العباس خسرو فيروز على سرير المملكة، وكاتب فخر الدولة سرًا يستدعيه، فسار عن نيسابور إلى جرجان، فدخل الصاحب على خسرو فيروز، وقال له: هذا أخوك، وأكبر منك قد وصل، وميلُ الأجناد إليه أكثر من ميلهِم لك، وحسَّ له الخروج للقائه، فخرج إليه، وتلقّاه، وتسلَّم فخر الدولة الملك، وبالغ في إكرام الصاحب، وعرف له حقَّ جميله، وحسنَ تدبيره، ونعته بكافي الكفاة، مضافًا إلى الصاحب الجليل، واحتوى فخر الدولة على ممالكه التي كانت بيده، وما كان بيد أخيه مؤيد الدولة، ومملكة قابوس بن وشمكير، ودخل أخوه خسرو فيروز في طاعته، ثم سأل فخرُ الدولة الخليفةَ الطائع لله أن يضيف إلى نعته نعتًا آخر، فنعته بفَلَكَ الأمّة، واستمر في الملك إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فكانت مدة ملكه الأول منذ وفاة والده إلى أن انهزم من أخيه عضد الدولة ثلاث سنين وشهورًا، ومملكتهُ الثانية من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين إلى شعبان سنة سبع وثمانين أربعة عشر سنة تقريبًا، وكان شاعرًا بارعًا، فمن شعره ما ذكره الثعالبي: [من مجزوء الرّمل]

أدرِ الكأس علينا ... أيّها الساقي لنشرب
من شمولٍ مثل شمسٍ ... في فم الندمان تغرُب
شربت منها فحالت ... قمرًا يلثم كوكب
ورد خديها جنيٌّ ... لكنِ الناطور عقرب
فإذا ما لذعت ... إبريق درياقٍ مجرّب[٢]

وكان له من الأولاد: مجد الدولة أبو طالب رستم. شمس الدولة أبو طاهر صاحب همذان، عين الدولة أبو شجاع بويه، أبو منصور صاحب أصفهان.

---

(١) هوسم: بالفتح ثم السكون، والسين مهملة: من نواحي بلاد الجيل خلف طبرستان والديلم... (معجم البلدان).

(٢) الدرياق: الترياق؛ أو الخمر.

وزراؤه: أبو عمر سيد بن المرزبان إلى أن نكبه، واستوزر عبيد الله بن محمد بن حمدويه إلى أن استأمن إلى عضد الدولة، ثم استوزر الصاحب[١] الجليل كافي الكفاة أبا القاسم بن عباد إلى أن توفي في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، ولم يُرَ أحدٌ سعِد بعد وفاته كما كان في حياته غيره، وذلك أنه لما توفي غُلِّقت له مدينة الريّ، واجتمع الناس على باب قصره، وحضر فخر الدولة، وسائر القواد مُشاةً مغيّري الزيّ، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة، وقبّلوا كلهم الأرض، ومشى فخر الدولة فيها، وجلس العزاء أيامًا، واستوزر بعده أبا علي حموله.

هذه الطبقة الثانية من بني بويه، فلنذكر الطبقة الثالثة:

ذكر أخبار مجد الدولة، وكنف الأمة أبي طالب رستم ابن فخر الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه

لما توفي والده فخر الدولة اجتمع الأجناد على تولية ولده المذكور، ونعتَه القادرُ بالله بهذين النعتين، وكان عمرهُ عند وفاة أبيه أربع سنين، فدبّرت والدته ابنةُ المرزبان المعروف بالسلار الأمر، ثم بلغ مبلغ الرجال، فلم يكن له من اللذات غير التمتع بالنساء، والنظر في الدفاتر، والاشتغال بالعلوم، ثم توفيت أمه، فورد محمود بن سُبُكتكين، فقبض عليه، ثم استولى بعد ذلك ابنه أبو كالنجار على الريّ إلى أن أتته الغزّ في سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فاستولوا على الريّ وتحصن هو بقلعة طبرك، ثم استنزل منها، وأما شمس الدولة أبو طاهر ابن فخر الدولة، فإنه كان على أيام أخيه بهمذان، ثم استولى على الجبل، وتوفي في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وقام بعده ابنه سماء الدولة.

ولنرجع لأخبار عضد الدولة ونجعل التراجم لمن ملك العراق وخدم الخلفاء، ونورد في أخباره وقائع من سواه:

(١) هو أبو القاسم الصاحب بن عباد إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني وزير مؤيد الدولة، وفخر الدولة، وصحب أبا الفضل الوزير بن العميد... وصنف في اللغة كتابًا سماه المحيط في سبع مجلدات وكتاب الكافي في الرسائل وكتاب الأعياد وفضائل النيروز وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل عليّ رضي الله عنه ويثبت إمامته على من تقدمه لأنه كان شيعيًا... (شذرات الذهب ٣: ١١٤).

ذكر أخبار صمصام الدولة

وهو أبو كالنجار المرزبان ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه. لما توفي عضدُ الدولة اجتمع القوّاد والأمراء على ولده أبي كالنجار المرزبان، فبايعوه، وولّوه الأمارة، وركب الخليفة الطائع لله، وعزاه، ولقّبه، وقال له: «نضَر الله وجه الماضي، وجعلك الخلفَ الباقي، وصيّر التعزية بعده لك لا بك، والخَلَف عليك لا منك» قال: ولما رجع خلع على أخويه أبي الحسين أحمد، وأبي طاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس، وأمرهما بالجد في المسير ليسبقا أخاهما شرف الدولة أبا الفوارس شيرذيل إلى شيراز، وكان عند وفاة أبيه بكرمان، فلما وصلا إلى أرّجان أتاهما الخبر بوصول شرف الدولة إلى شيراز، فعاد إلى الأهواز، وملك شرف الدولة بلاد فارس، وقبض على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه، وقتله لأنه كان يسيء صحبته أيام أبيه، وخطب شرف الدولة لنفسه، وتلقب بتاج الدولة، وقطع خُطبة أخيه صمصام الدولة، وأظهر مشافقته، وفرّق الأموال، وجمع الرجال، وملك البصرة، وأقطعها أخاه أبا الحسين، فلما اتّصل ذلك بصمصام الدولة سيَّر جيشًا، واستعمل عليهم الأمير أبا الحسن علي بن ونقش حاجب عضد الدولة، فجهز تاج الدولة عسكرًا، واستعمل عليهم أبا الأعز دبيس بن عفيف الأسدي، فالتقيا بظاهر «قُرْقُوب»[1]، واقتتلوا، فانهزم عسكر صمصام الدولة، وأسر ابن ونقش مقدم الجيش، فاستولى حينئذ أبو الحسين بن عضد الدولة على الأهواز، ورامهرمز وطمع في الملك، وكانت هذه الواقعة في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين، وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ملك شرف الدولة الأهواز من أخيه أبي الحسين، وملك البصرة من أخيه أبي طاهر، وقبض عليه، فراسله أخوه صمصام الدولة، فاستقر الأمر على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة، وفي خلال مسير الرسل وعودهم ملك شرف الدولة واسط، وغيرها، وكاتبه القواد، فرجع عن الصلح، وعزم على قصد بغداد. والله أعلم.

ذكر ملك شرف الدولة أبي الفوارس شيرذيل ابن عضد الدولة العراق، والقبض على صمصام الدولة

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط، وملكها، فاستشار صمصام الدولة أصحابه في قصد أخيه شرف الدولة، فنهوه عن

(١) قرقوب: بالضم ثم السكون، وقاف أخرى، وبعد الواو الساكنة باء موحدة: بلدة متوسطة بين واسط والبصرة والأهواز وكانت تعد من أعمال كسكر... (معجم البلدان).

ذلك، وحذروه منه، فلم يرجع إليهم، وسار في طيار إليه، فلما وصل إليه لقيه شرف الدولة، وأكرمه، وطيّب قلبه، ثم قبض عليه بعد قيامه من عنده، وأرسل إلى بغداد من احتاط على دار المملكة، وسار فوصل إلى بغداد في شهر رمضان، ونزل بالشقيقي، ومعه صمصام الدولة، ثم سيّره إلى بلاد فارس، واعتقله بقلعة هناك، فكانت إمارة صمصام الدولة بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا. وكان صمصام الدولة كريم النفس نديَّ الكف إلا أنه كثرت في أيامه الخوارج، وعمّ الغلاء، فاستنفذ ذلك أمواله، ولم يتعدَّ أمرُه العراق.

وزراؤه: أول من وزر له: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ثمانية عشر شهرًا، فاعتقله، ثم اشترك في الوزارة بين أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبي الحسن بن برمويه، وكان قد أخصاه بعد أولاده إلياس بن كرمان، فأقاما شهرين، ويومين بعد أن انفرد عبد العزيز بالوزارة ثلاثة أشهر، واتفقت فتنة، فانهزم عبد العزيز إلى الأهواز، وقتل ابن برمويه، وفيها يقول بشير بن هارون: [من السريع]

وزارةٌ قد أسخنتْ كلّ عينْ ... مقسومة الرتبة في ساقطين(١)

هذا بلا ذقن ولا عارضٍ ... وذا بلا رأي ولا خصيتين(٢)

ومن أعاجيب أحاديثنا ... ما ذكره قد شاع في الخافقين

أنا نرى الخصي بلا لحيةٍ ... والناقص المجبوب ذا لحيتين(٣)

ثم استوزر بعدهما الأستاذ أبا الريان أحمد بن محمد سبعة أشهر، وتسعة أيام، وقبض عليه، وقتله، ثم استوزر أبا عبد الله بن الهيثم، وأبا الفتح محمد بن فارس شركة، فأقاما بقية أيامه إلى أن ملك شرف الدولة، فقبض على أبي الفتح، وصادره، وأعاد بن الهيثم إلى ديوان النفقات. والله أعلم بالصواب.

ذكر سمل صمصام الدولة

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة سُمل صمصام الدولة، وكان سببُ ذلك أن نِحريرًا الخادم، كان يشيرُ على أخيه شرف الدولة بقتله، وهو يُعرِض عن ذلك، فاتفق أنَّ شرف الدولة اعتلَّ، فقال له نحرير: إن الدّولة مع صمصام الدولة على خطر، وإذا لم تقتله، فاسمُله، فأرسل في ذلك محمدًا الشيرازي الفرّاش، فمات شرف الدولة قبل

(١) أسخنت كلّ عين: أبكتها. (٢) العارض: جانب الوجه.

(٣) المجبوب: الذي استؤصل ذكرُه.

وصوله إلى صمصام الدولة، فلما وصل الفرّاش إلى القلعة لم يُقدِم على سمله فاستشار أبا القاسم العلاءَ بن الحسن الناظر هناك، فأشار بسمله، فسمله، فكان صمصامُ الدولة يقول: ما أعماني إلا العلاء، فإنه أمضى في حكمُ سلطان قد مات، ثم كان لصمصام الدولة دولة بعد دولة. سنذكرها إن شاء الله تعالى، ولم يمنعه العمى مما قدر له.

ذكر وفاة شرف الدولة وشيء من أخباره

كانت وفاته ببغداد في مستهل جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وقيل في ثانيه، وكانت علته الاستسقاء[1] وحمل إلى مشهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فدفن به، فكانت إمارته ست سنين، وسبعة أشهر ملك فيها بغداد سنتين، وثمانية أشهر، وكان عمره ثمانيًا وعشرين سنة، وخمسة أشهر، ونفذ أمره بين خراسان، والموصل، وديار بكر، والعراق، وخوزستان، وفارس، وكرمان، وسراة عُمان من غير إراقة دم، ولا إنفاق مال، وكان يحبُّ الخير، وينفر من الشر، وأزال عن الناس التأويلات، والمصادرات، وكان كريمًا سخيًا يحب الشعر ويثيبُ عليه، قال أبو إسحاق الصابي: وكانت جماله في سفره ثلاثة عشر ألف رأس، وكان له من المماليك الأتراك ألفان، ومائتا مملوك، وكان له من الخدم ستمائة، ولما اشتدّت علّته أرسل ولده أبا علي إلى بلاد فارس، وأصحبه الخزائن، والعدد، وجماعة كثيرة من الأتراك. قال: ولما أيس أصحابُ شرف الدولة منه اجتمع عليه أعيانهُم، وسألوه أن يُسنِد الملك إلى من يراه، فقال: أنا في شغل عما تدعونني إليه، ثم مات.

ولده: الأمير أبو علي.

وزراؤه: أبو القاسم العلاء بن الحسن، ثم اعتقله مدة وأطلقه واستنابه ببلاد فارس. واستوزر أبا محمد عليَّ بن العباس، واستوزر بعده أبا منصور محمد بن الحسن بن صالحان إلى أن توفي رحمه الله.

ذكر ملك بهاء الدولة وضياء الملة

هو أبو نصر خسرو فيروز ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه ملك بعد وفاه أخيه شرف الدولة في ثاني جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وكان

(١) الاستسقاء: تجمع سائلي مصلي في التجويف البريتوني، لا يكاد يبرأ منه.

سبب ملكه أنه لما مرض شرفُ الدولة أُشير عليه أن يستنيبه إلى أن يشفى من مرضه، فاستنابه، فقبل النيابة بعد امتناع منه، فلما مات شرفُ الدولة جلس بهاءُ الدولة للعزاء، وركب الطائع إليه، وعزاه، وخلع عليه خلعُ السلطنة، وأقر أبا منصور الحسن بن صالحان على وزارته.

ذكر قيام صمصام الدولة ببلاد فارس

قد ذكرنا ما كان من أمره، والقبض عليه، وسمْله، فلما مات شرف الدولة اضطرب أمر الديلم، ووقع بينهم وبين الأتراك، فأنزلوا صمصام الدولة من قلعة شيراز، وحمله غلامه عادة على كتفه، وبايعه الديلم، وانقادوا لأمره، فعند ذلك بايع الأتراك أبا علي بن شرف الدولة، ولقبوه شمس الدولة، وقمر الملة.

ذكر مسير أبي علي بن شرف الدولة إلى بلاد فارس، وما كان بينه وبين عمه صمصام الدولة، وعودة إلى بهاء الدولة، وقتله

قد ذكرنا أن شرف الدولة لما اشتدت علته جهز ابنه أبا علي إلى فارس، ومعه والدته، وجواريه، وسيَّر معه الأموال، والجواهر، والسلاح، فلما بلغ البصرة أتاه الخبر بوفاة أبيه، فسيَّر ما معه في البحر إلى أرَّجان، وسار مجدًّا حتى وصل إليها، واجتمع معه من بها من الأتراك، وسار مجدًّا نحو شيراز، وكاتبهم متولِّيها، وهو أبو القاسم العلاء بن الحسن بالوصول إليها ليسلمها إليهم، وكان صمصام الدولة، ومن معه قد ساروا إلى سيراف[1]، ووقعت الفتنة بها بين الأتراك، والديلم، فخرج الأمير أبو علي إلى معسكر الأتراك ونزل معهم، فاجتمع الديلم، وقصدوا داره ليأخذوه، ويسلموه إلى صمصام الدولة، فرأوه قد انتقل إلى الأتراك، فكشفوا القناع، وجرى بينهم قتال، ثم سار أبو علي والأتراك إلى فسا[2]، فاستولوا عليها وأخذوا ما بها من الأموال، وقتلوا من بها من الديلم، وسار أبو علي إلى أرّجان، وعاد الأتراك إلى شيراز، فقاتلوا من بها من الديلم الذين مع صمصام الدولة، ونهبوا البلد، وعادوا إلى

(١) سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديمًا فرض الهند، وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام. . . (معجم البلدان).

(٢) فسا: مدينة بفارس. . . بينها وبين شيراز أربع مراحل.

أبي علي بأرَّجان وأقاموا معه مديدة، ثُم وصل رسول من بهاء الدولة إلى أبي علي، وطيّب قلبه، وأرسل إلى الأتراك الذين معه سرًا واستمالهم إلى نفسه وأطمعهم، فحسنوا لأبي علي المسير إلى بهاء الدولة، فسار إليه، فلقيه بواسط في منتصف جُمادى الآخرة سنة ثمانين وثلاثمائة، فأكرمه، ثم قبض عليه بعد ذلك وقتله، وتجهز بهاء الدولة للمسير إلى الأهواز لقصد بلاد فارس.

ذكر مسير بهاء الدولة إلى الأهواز، والصلح بينه وبين صمصام الدولة

قال: وسار بهاءُ الدولة إلى خُوزستان، فأتاه نعي أخيه أبي طاهر، وكان مع صمصام الدولة، فجلس للعزاء، ورحل إلى أرَّجان، واستولى عليها، وأخذ ما فيها من الأموال التي جمعها صمصام الدولة بقلعتها، وكانت ألفَ ألفِ دينار قاشانية، وثمانية آلاف ألف درهم عدلية، ومن الجواهر، والثياب ما لا يحصى قيمته، ففرّق ذلك على الجند، ولم يبقَ منه إلا القليل، ثم سارت مقدمته، وعليها العلاء بن الفضل إلى النُوبَنْدَجَان، وبها عسكر صمصام الدولة، فهزمهم وبثّ أصحابه في نواحي فارس، فسيَّر صمصام الدولة عسكرًا، وعليهم فولاذ ابن مابدار، فواقعهم، فانهزم أصحاب بهاء الدولة، وعادوا إليه، ثم ترددت الرسائل بين صمصام الدولة، وبهاء الدولة في الصلح، فاستقر على أن يكون لصمصام الدولة فارس، وأرّجان، ولأخيه بهاء الدولة خوزستان، والعراق، وأن يكون لكل واحد منهما إقطاع في ملك الآخر، وحَلَفَا على ذلك، وعاد بهاءَ الدولة إلى الأهواز، ثم إلى بغداد، وفي سنة ثمانين وثلاثمائة أيضًا قبض بهاء الدولة على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن أرْدشير، وكان المدبّر لدولة بهاء الدولة أبا الحسن بن المعلم، وأبيه الحكم، وفي سنة إحدى وثمانين قبض بهاءُ الدولة على الخليفة الطائع لله، وبايع القادر بالله كما ذكرناه في أخبار الدولة العبّاسية، وفيها قبض على وزيره أبي نصر سابور، واستَوْزَر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف وقبض على أبي نصر خواشاذه، وأبي عبد الله بن طاهر، وفي سنة اثنتين وثمانين قبض بهاءُ الدولة على أبي الحسن بن المعلم[1]، وكان قد استولى على الأمور كلها، وخدمه الناس كلُّهم حتى الوزراء، فأساء السيرة، فشغب الجند، وشكوا منه، وطلبوا تسليمه إليهم، فراجعهم بهاء الدولة،

---

(١) هو أبو الحسن بن المعلم الكوكبي.

ووعدهم أنه يكف يده، فلم يقبلوا ذلك، فقبض عليه، وعلى جميع أصحابه، فلم يرجع الجند، فسلَّمه إليهم، فسقوه السمَّ مرتين، فلم يؤذه، فخنقوه، ودفنوه، وقبض على وزيره أبي القاسم لأنه اتهم بمباطنة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر سابور، وأبا منصور بن صالح جميعًا، وفي سنة ثلاث وثمانين شغب الجند على بهاء الدولة، ونهبوا دار الوزير سابور، واختفى منهم، واستعفى ابن صالحان من الانفراد بالوزارة، فأعفي، واستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب إلى البطيحة، وعاد سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم.

ذكر ظهور أولاد بختيار، واعتقالهم، وقتل بعضهم

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ظهر أولاد عز الدولة بختيار بن معز الدولة من محبسهم، واستولوا على القلعة التي كانوا معتقلين بها، وكان سبب اعتقالهم أن شرف الدولة كان أحسن إليهم بعد وفاة والده عضُد الدولة، وأطلقهم، وأنزلهم بشيراز، وأقطعهم، فلما مات شرف الدولة حبسوا في قلعة ببلاد فارس، فاستمالوا مستحفظها، ومن معه من الديلم، فأفرجوا عنهم، فأنفذوا إلى أهل تلك النواحي، فاجتمعوا تحت القلعة، فبلغ ذلك صمصام الدولة، فسيّر إلى القلعة جيشًا، فتفرق ذلك الجمع، وحصر جيشه القلعة، وراسل مقدم الجيش وجوه الدَّيلم سرًّا، واستمالهم، ففتحوا القلعة، فملكها أصحابُ صمصام الدولة، وأخذوا أولاد بختيار، وكانوا ستة، فأمر صمصام الدولة بقتل اثنين، وحبس أربعة.

ذكر مقتل صمصام الدولة

كان مقتلهُ في ذي الحجة سنةَ ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة، وسبب ذلك أن جماعة كثيرةً من الدَّيلم استوحشوا منه لأنه أمر بعرضهم، وإسقاط من ليس بصحيح النسب، فأسقط منهم ألف رجل، واتفق أن أبا القاسم، وأبا نصر ابني عز الدولة بختيار ابن معز الدولة خَدعا الموكَّلين بالقلعة، فأفرجوا عنهما، فجمعا لفيفًا من الأكراد، واتّصل بهما الذين أسقطوا من الخدمة من رجال الديلم، وقصدوا أرَّجَان، فاجتمعت عليها العساكر، فتجهز صمصام الدولة ولم يكن عنده من يدبره، فأشار عليه أصحابه بالصّعود إلى القلعة التي على باب شيراز، والامتناع بها، فأراد الصّعود إليها، فمنعه مستحفظها، فأشار بعض أصحابه عليه بقصد الأكراد، والتقوا بهم، فخرج بخزائنه، وأمواله، فنهبه أصحابه، وأرادوا قتله، فهرب وسار إلى «الدودمان» على مرحلتين من شيراز، فقبض عليه رئيسها طاهر، وبلغ أبو نصر الخبر، فبادر إلى شيراز، ودخلها

وأخذ صمصام الدولة ابنُ طاهر، فقتله، وقال: هذه سنة سنها أبوك يعني ما كان من قتل عضد الدولة بختيار، وكان عمر صمصام الدولة يوم قتل خمسًا وثلاثين سنة، وسبعة أشهر، ومدة إمارتَه بفارس تسع سنين، وثمانية أشهر، وكان كريمًا حليمًا، وسلمت والدته لبعض قواد الديلم، فقتلها، وبنى عليها دكَّة في داره، فلما ملك بهاء الدولة فارس أخرجها، ودفنها في تُربة بني بويه.

وزراؤه في مملكته الثانية: العلاء بن الحسن، ثم قبض عليه، واستوزر أبا القاسم المعمر بن الحسين الزنجي نحوًا من سنة، ثم قبض عليه، واعتقله، وأعاد العلاء، ثم بعثه إلى الأهواز، فمات، فاستوزره أبا الطيّب الفرحان بن شيراز، وأنفذه إلى الأهواز، فأقام إلى أن قتل صمصام الدولة.

ذكر ملك بهاء الدولة فارس وخوذستان وكرمان

قال: ولما قتل صمصام الدولة، استولى ابنا بختيار على بلاد فارس وكاتبا أبا علي ابن أُستاذ هرمز وهو بالأهواز يأمرانه بأخذ البيعة لهما، واليمين، فخافهما أبو علي، ثم راسله بهاء الدولة يستميله، ويعدُ الدَّيلم الخير والإحسان، فأجابوه إلى الدخول في طاعته، وأنفذوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، واستوثقوا منه، وكتبوا إلى أصحابهم المقيمين بالسوس بصورة الحال رجاءَ أن يخرجوا إلى طاعته، فخرجوا بالسلاح، وقاتلوه قتالاً شديدًا، فضاق بذلك ذرعًا، فقيل له: إن عادةَ الدَّيلم أن يشتد قتالهم عند الصلح لئلا يظن بهم العجز، ثم كفوا عن القتال، وأرسلوا من يحلفه لهم، ونزلوا إلى خدمته، واختلط العسكران، وساروا إلى الأهواز، فقرر أبو علي بن إسماعيل أُمورها، وقسم الإقطاعات بين الأتراك والديلم، ثم ساروا إلى رامهرمز، فاستولوا عليها، وعلى أرّجان، وغيرها من بلاد خوزستان، وسار أبو علي إلى شيراز، فنزل بظاهرها، فحاربه ابنا بختيار، فلمَّا اشتدت الحرب مال بعض أصحابهما إليه، ودخل بعض أصحابه البلد، ونادوا بشعار بهاء الدولة فهرب ابنا بختيار، فأما أبو نصر فإنه لحِق ببلاد الدَّيلم، وأما أبو القاسم، فلحق ببدر بن حسنويه الكُرديّ[١]، ثم قصد البطيحة، ولما ملك أبو علي بشيراز كتب إلى بهاء الدولة بالفتح

---

(١) هو من أمراء الجبل لقبه القادر ناصر الدولة وعقد له لواء وكان يبر العلماء والزهّاد والأيتام.. ويصرف على الأساكفة والحذائين بين همذان وبغداد ليقيموا للمنقطعين من الحاج الأحذية ثلاثة آلاف دينار ويصرف إلى أكفان الموتى كل شهر عشرين ألف درهم... (شذرات الذهب ٣: ١٧٣).

فسار إليها، وأمر بنهب قرية الدودمان، وإحراقها، وقتل من كان بها من أهلها، وأخرج أخاه صمصام الدولة، وجدّد أكفانه ودفنه، ثم سَيَّر عسكرًا مع أبي الفتح أُستاذ هرمز إلى كرمان، ففتحها، وأقام نائبًا عن بهاء الدولة، وذلك في سنة تسع وثمانين.

ذكر وفاة عميد الجيوش، وولاية فخر الملك العراق

وفي سنة إحدى وأربعمائة توفي عميد الجيوش أبو علي أستاذ هرمز ببغداد، وكانت ولايته بها ثماني سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يومًا، وكان من حجاب عضد الدولة وجعله في خدمة ابن صمصام الدولة، فلما قُتل اتصل بخدمة بهاء الدولة، فجعله نائبه ببغداد، ولما مات استعمل بهاء الدولة مكانه فخر الملك أبا غالب، فوصل إلى بغداد في ذي الحجة من ذي السنة.

ذكر وفاة بهاء الدولة

كانت وفاته بأرَّجان في عاشر جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، وكان مرضه تتابع الصرع مثل مرض أبيه، وحمل إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ودفن عند قبر أبيه عضد الدولة، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر ونصف شهر، ومدة ملكه أربعًا وعشرين سنة، وأيامًا.

أولاده: سلطان الدولة أبو شجاع فنَّاخسروا، مشرق الدولة أبو علي، جلال الدولة أبو طاهر، قوام الدولة أبو الفوارس.

وزراؤه: أبو منصور بن صالحان أحد وزراء أخيه شرف الدولة، وزر له عشرة أشهر وأيامًا، ثم أبو نصر سابور بن أرْدشير أحد عشر شهر، ثم قبض عليه في سنة ثمانين، واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبا القاسم علي بن أحمد الأبرهوني، ثم قبضه، وأعاد سابور، ثم أشرك بينه وبين ابن صالحان، ثم استوزر أبا العباس عيسى ستة عشر يومًا. واستوزر الموفق عبد الملك أبا علي الحسن بن محمد بن إسماعيل سنتين وشهرين، وقلد بعده عميد الجيوش الصاحب، واستوزر بعده فخر الملك وزير الوزراء الكامل ذا الجلالين أبا الغالب محمد بن خلف، وهو أعظم من وزر للديلم على الإطلاق، بعد أبي الفضل بن العميد، وابن عباد.

ذكر ملك سلطان الدولة

هو أبو شجاع فناخسرو بن بهاء الدولة ابن عضد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه. كانت ولايته بعد وفاة أبيه، في عاشر جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، ولما

ولي سار من أرّجان إلى شيراز، وولّى أخاه جلال الدولة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كرمان، وكان القادر بالله قد ولاه العهد بسؤال أبيه، فلما مات والده قام مقامه، ودخل بغداد، وأعطى كلَّ غلام من أشرافها سبعين ديناراً ودست ثياب، فأكثروا عليه بالمطالبات، فضجر، وفارق بغداد، وتوجَّه إلى الأهواز.

ذكر قتل فخر الملك، ووزارة ابن سهلان

وفي سنة ست وأربعمائة قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب، وقتله في سلخ شهر ربيع الأول، فكانت نيابته بالعراق خمس سنين وأربعة أشهر واثني عشر يومًا، وكان حسن الولاية والآثار، ووجد له ألف ألف دينار عينًا، سوى ما نهب، وقيمة العروض، وكان القبض عليه بالأهواز.

حكى ابن علمكان، وكان من أكابر القواد قال: قتل إنسان ببغداد، فكانت زوجته تكتب إلى فخر الملك تتظلم وتتشكّى، وهو لا يلتفت إليها، فلقيته يومًا فقالت له: تلك الرقاع التي كنت أكتبها إليك صرت أكتبها إلى الله تعالى، فلم يمضِ على ذلك غير قليل حتى قبض هو وابن علمكان، فقال له فخر الملك: قد برز جواب رقاع تلك المرأة، ولما قبض على فخر الملك استوزر سلطان الدولة أبا محمد الحسن بن سهلان، ولقب عميد أصحاب الجيوش، وفي ثمان وأربعمائة ضعف أمر الديلم ببغداد، وطمع فيهم العامة، فانحدروا إلى واسط، فخرج عليهم عامّتها وأتراكها فقاتلوهم، فدفَع الديلم عن أنفسهم، وقتلوا من أتراك واسط، وعامّتها جماعة كثيرة، وعظم أمر العيَّارين ببغداد فأفسدوا، ونهبوا.

ذكر ولاية ابن سهلان العراق

وفي سنة تسع وأربعمائة استعمل سلطان الدولة أبا محمد الحسن بن سهلان على العراق في المحرم، فسار، وأوقع في طريقه بالعرب، ولما وصل واسط وجد الفتن بها قائمة، فأصلحها، وقتل جماعة من أهلها، وورد عليه الخبر باشتداد الفتَن ببغداد، فسار إليها، فدخلها في أواخر شهر ربيع الآخر، فهرب منه العيّارون ونفى جماعة من العبّاسيين وغيرهم، ونفى أبا عبد الله محمد بن[1] النعمان فقيه الشيعة،

---

(١) هو قاضي القضاة لصاحب مصر أبو عبد الله محمد بن النعمان بن محمد بن منصور الشيعي في الظاهر الباطني في الباطن ولد قاضي القوم وأخو قاضيهم... وقد ارتفعت رتبته حتى أن العزيز أجلس معه يوم الأضحى على المنبر وزادت عظمته في دولة الحاكم ثم تعلل وتنقرس ومات سنة ٣٨٩هـ... (شذرات الذهب ٣: ١٣٢).

وأنزل الديلم أطراف الكرخ وباب البصرة، ولم تكن له عادة بالنزول هناك، ففعلوا من الفساد ما لم يشاهد مثله، فمن ذلك أن رجلاً من المستورين أغلق بابه عليه خوفًا منهم، وانقطع بداره، فلما كان في أول يوم من شهور رمضان خرج لبعض شأنه وقد اطمأن لتعظيم الشهر، وكفِّ الناس فيه عن الفساد، فرآهم على حال عظيم من الفساد وشرب الخمور، فأراد الرجوع إلى داره، فمنعوه وأكرهوه على الدخول معهم إلى دار من دورهم، وألزموه بشرب الخمر، فامتنع، فصبوها في فيه قهرًا، وقالوا له: قم إلى هذه المرأة فافعل بها، فامتنع فألزموه، فدخل معها إلى بيت في الدار، وأعطاها دراهم، وقال لها: هذا أول يوم من شهر رمضان، والمعصية فيه تتضاعف، وأحبُّ أن تخبريهم أني فعلت، فقالت: لا، ولا كرامة، ولا عزازة، أنت تصون دينك عن الزنا في هذا الشهر، وأنا أريد أن أصون أمانتي ولساني عن الكذب فيه، فصارت هذه الحكاية سائرة في بغداد، ثم إن أبا محمد بن سهلان أفسد قلوب الأتراك والعامة، فانحدروا إلى واسط، فلقوا بها سلطان الدولة، فشكوه إليه فسكَّنهم، ووعدهم أن يتوجه إلى بغداد ويصلح الحال، وكتب إلى ابن سهلان يستقدمه، فخافه، فهرب إلى بني حقاجة، ثم إلى الموصل، ثم إلى الأنبار[1] ثم سار إلى البطيحة.

ذكر ملك مشرف الدولة أبي علي ابن بهاء الدولة ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه العراق

كان استيلاء مشرف الدولة على العراق في سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان سبب ذلك أن الجند شغَبوا على سلطان الدولة، ومنعوه من الحركة، وأرادوا ترتيب مشرف الدولة أخيه في الملك، فأُشير على سلطان الدولة بالقبض عليه، فلم يمكنه من ذلك، وأراد سلطان الدولة الانحدار إلى واسط، فقال له الجند: إما أن تجعل عندنا ولدك، أو أخاك مشرف الدولة. فراسل أخاه مشرف الدولة بذلك، فامتنع، ثم أجابه بعد معاودة، ثم اتفقا، واجتمعا ببغداد، واستقر بينهما أنهما لا يستخدمان ابن سهلان، وفارق سلطان الدولة بغداد، وقصد الأهواز، واستخلف أخاه مشرف الدولة بها، فلما انحدر سلطان الدولة ووصل تُسْتَر استوزر ابن سهلان، فاستوحش مشرف الدولة، فأنفذ سلطان الدولة ابن سهلان ليخرج أخاه مشرف الدولة من العراق، فجمع مشرف الدولة عسكرًا كثيرًا، منهم أتراكُ واسط، وأبو الأعز دبيس بن علي بن مزيد، ولقي ابنَ سهلان عند واسط، فانهزم ابنُ سهلان، وتحصَّن بواسط، فحصره مشرف الدولة وضيَّق عليه،

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب سلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها. . . (معجم البلدان).

حتى بيع كُرّ الحنطة بألف دينار قاشانية، وأكل الناس حتى الكلاب، فاستخلف ابن سهلان مشرف الدولة، وسلم إليه البلد، وخرج إليه، فخوطب حينئذ مشرفُ الدولة. وذلك في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وحضر إليه الديلم الذين كانوا بواسط، وصاروا معه، فحلف لهم وأقطعهم، فلما اتصل الخبر بسلطان الدولة سار عن الأهواز إلى أرجان، وقطعت خطبته من العراق، وخطب لمشرف الدولة ببغداد، في أول المحرم سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، وقبض على الوزير ابن سهلان، وكحله؛ فلما سمع سلطان الدولة بذلك ضعفت نفسه، وسار إلى الأهواز في أربعمائة فارس، فقلت عليهم الميرة؛ فنهبوا السواد في طريقهم، فاجتمع الأتراك الذين بالأهواز، وقاتلوا أصحاب سلطان الدولة، ونادوا بشعار مشرف الدولة.

قال: ولما خطب لمشرف الدولة طلبوا منه أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان، فأذن لهم، وأمر وزيره أبا غالب بالانحدار معهم، فقال له: إن فعلت خاطرتُ بنفسي، ولكن أبذلها في خدمتك، ثم انحدر بالعسكر، فلما وصل إلى الأهواز نادى الديلم بشعار سلطان الدولة، وهجموا على أبي غالب، فقتلوه، فسار الأتراك الذين كانوا معه إلى طراد بن دُبيس، ولما بلغ سلطان الدولة قتله اطمأن، وقويت نفسه، وأنفذ ابنه إلى الأهواز، فملكها.

ذكر الصلح بين سلطان الدولة وأخيه مشرف الدولة

وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة حصل الاتفاق والصلح بينهما، على أن يكون العراق جميعه لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة، وحلف كل منهما لصاحبه.

ذكر الخلف بين مشرف الدولة والأتراك وعزل الوزير ابن المغربي

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة تأكدت الوحشة بين الأثير عنبر الخادم، ومعه الوزير ابن المغربي[1] وبين الأتراك؛ فاستأذن الأثير والوزير مشرف الدولة في الانتزاح

(١) هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون بن بلاش بن جاماس بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور المعروف بالوزير المغربي.. وهو صاحب الديوان: الشعر والنثر، وله «مختصر إصلاح المنطق» وكتاب «الإيناس» وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة ويدل على كثرة اطلاعه... (وفيات الأعيان ٢: ١٧٢).

إلى بلد يأمنان فيه على أنفسهما، فقال: وأنا والله أسير معكما؛ فساروا جميعًا، ومعهم جماعة من مقدّمي الديلم إلى السنَدية[١]، وبها قرواش، ثم ساروا إلى أوانًا، فعظم ذلك على الأتراك، فراسلوه، واعتذروا، فكتب إليهم الوزير يقول: إنني تأملت مالكم من الجامكيات. فإذا هي ستمائة ألف دينار، وعلمت دخل بغداد، فإذا هو أربعمائة ألف دينار، فإن أسقطتم مائة ألف تحملت الباقي، فقالوا: نحن نسقطها، فاستشعر منهم الوزير، فهرب إلى قرواش، فكانت وزارته عشرة أشهر وخمسة أيام، فلما أبعد خرج الأتراك، وسألوا مشرف الدولة، والأثير في الانحدار معهم، فأجابهم إلى ذلك.

ذكر وفاة سلطان الدولة

كانت وفاته بشيراز في شوال سنة خمسة عشرة وأربعمائة، وكان عمره اثنين وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وخمسة أيام، ومملكة بالحضرة، وإمارته ببلاد فارس، وخوزستان، وكرمان ثنتي عشرة سنة، وأربعة أشهر وثلاثة أيام.

وزراؤه: فخر الملك أبو غالب بن خلف إلى أن قتله بالأهواز، واستوزر أبا محمد الحسن بن الفضل بن سهلان، واستوزر ذا السعادتين أبا غالب الحسنَ بن منصور، ثم استوزر أبا الفتح عبد الحكيم بن إبراهيم بن الخصيب وقبض عليه واستوزر أبا محمد الحسن بن محمد بن بابشاد من أهل رامهرمز. ولما مات، ولّى بعده ابنه أبو كاليجار المرزبان، على ما نذكره، بعد عمه.

ذكر وفاة مشرف الدولة

كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة، وعمره ثلاث وعشرون سنة وثلاثة أشهر، وملكه خمس سنين، وخمسة وعشرون يومًا، وكان ملكًا عادلاً، كثير الخير، قليل الشر، حسن السيرة.

وزراؤه: ذو السعادتين أبو غالب الحسن بن منصور، ثم عزله، واستوزر مؤيد الملك زعيم الكفاة مجد المعالي أبا علي الحسن في سنة خمس عشرة وأربعمائة، ثم استوزر أبا قاسم بن المغربي.

---

(١) السندية: من قرى بغداد على نهر عيسى.

ذكر سلطنة جلال الدولة

هو أبو طاهر فيروز خسرو ابن بهاء الدولة خسرو فيروز ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه. ملك بعد وفاة أخيه مشرف الدولة، في شهر ربيع الأول سنة ستة عشر وأربعمائة، وكان عند وفاته بالبصرة، وكان أبوه قد رتبه بها في حياته، فلما مات مشرفُ الدولة خُطِب له ببغداد، وطُلب فلم يصعد إليها، وإنما بلغ واسط، وأقام بها، ثم عاد إلى البصرة، فقطعت خُطبته، وخُطِب لابن أخيه أبي كاليجار ابن سلطان الدولة في شوال، وهو حينئذ صاحب خوزستان، فلما اتَّصل ذلك بجلال الدولة أصعد إلى بغداد، فانحدر عسكرها ليرده عنها، وقاتلوه ونهبوا بعض خزائنه، فعاد إلى البصرة، وأرسلوا إلى الملك أبي كاليجار ليحضُر إلى بغداد، فوعدهم بذلك، ولم يمكنه. لأن الحرب كانت بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان، وانقطعت خطبة جلال الدولة إلى سنة ثمان عشرة وأربعمائة، ثم عاد إلى السلطنة، وكان سبب ذلك أن الأتراك كانوا قد طمعوا في الناس ببغداد، وصادروهم، وأخذوا أموالهم، وعظم الخطب، وزاد الشر، وأحرقت المنازل، والدروب، والأسواق، وطمع العيّارون، والعامة، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره، ووقعت الحربُ بين العامّة والجند، فظفر الجندُ بهم، ونهبوا الكرخ وغيره، وذلك في سنة سبع عشرة، فلما رأى القوّاد وعقلاء الجند أن الملك أبا كاليجار لا يصلُ إليهم، وأن البلاد قد خربت، وطمع فيهم المجاورون لهم من الأعراب والأكراد، وقصدوا دار الخلافة، وراسلوا الخليفة القادر بالله، واعتذروا من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أوّلاً، وردِّهم له ثانيًا، وبالخطبة لأبي كاليجار، وقالوا: إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ونحن العبيد، وقد أخطأنا، ونسأل العفو، ولا يدُلّنا ممّن يجمع كلمتنا، وسألوا أن يرسل الخليفة إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد، ويملكه ويجمع الكلمة، وأن يحلفه رسول الخليفة، فأجابهم الخليفة إلى ما سألوا، وراسله هو وقواد الجند في الإصعاد، واليمين للخليفة، ولهم، فحلف لهم، وأصعد إلى بغداد، وانحدر الأتراك إليه، فلقوه في الطريق، ووصل بغداد في ثالث شهر رمضان سنة ثماني عشرة وأربعمائة، ونزل بالنجمي، فركب الخليفة في الطيّار، وانحدر لتلقيه، فلما رآه جلال الدولة، قبّل الأرض بين يديه، ثم دخل جلال الدولة إلى دار المملكة، وأمر بضرب النُّوب الخمس على بابه في أوقات الصلوات، فراسله الخليفة في قطعها، فقطعها غضبًا، ثم أذن له الخليفة في إعادتها ففعل.

ذكر شغب الأتراك ببغداد على جلال الدولة

وفي سنة تسع عشرة وأربعمائة ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة، وطالبوا الوزير أبا علي بن ماكولا بما لهم من المعلوم، ونهبوا داره ودُور كُتّاب جلال الدولة، وحواشيه، حتى المغنِّين، والمخنثين، ونهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة، ليضربها دنانير ودراهم، ويغرقها فيهم، وحصروا جلال الدولة في داره، ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر، وأكلوا ثمرة البستان، فسألهم أن يمكنوه من الانحدار، فتأخروا له ولأهله، فجعل بين الدار وبين السفن سُرادقًا لتجتاز حُرمه فيه، لئلا يراهم العامة والأجناد، فقصد بعض الأتراك السرادق، فظن جلال الدولة أنهم يريدون الحريم، فصاح بهم، وقال: بلغ من أمركم إلى الحريم؟ وتقدم إليهم وبيده طبر[1]، فصاح صغار الغلمان، والعامة: جلال الدولة يا منصور؛ ونزل أحدهم عن فرسه، وأركبه إياه، وقبّلوا الأرض بين يديه، فرجعوا إلى منازلهم، ولم تمضِ عشرة أيام حتى عادوا، وشَغَبوا؛ فباع جلال الدولة فرشه، وثيابه، وخيامه، وفرق أثمان ذلك فيهم، فسكنوا، وضعف حال جلال الدولة، وقلّت الأموال عنده، وطمع القوّاد فيه، حتى انتهى حاله في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة في شهر رجب أن أخرج دوابه من الإصطبل، وهي خمس عشرة دابة وسيّبها في الميدان، بغير سايس، ولا حافظ، ولا علف، فقيل: إنه فعل ذلك لأمرين: أحدهما: عدم العلف عنده، والثاني: أن الأتراك كانوا يلتمسون دوابه يطلبونها منه، فضجر من ذلك، فأخرجها، وقال: هذه دوابي، خمسة لمركوبي، والباقي لأصحابي، وفرق حواشيه، وفراشيه، وأتباعه، وأغلق باب داره لانقطاع جارية فثارت فتنة لذلك بين العامة والجند، وعظم الأمر، وظهر العيّارون ببغداد.

ذكر وثوب الجند به وإخراجه من بغداد وعوده إليها

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة في شهر ربيع الأول، تجددت الفتنة بين جلال الدولة وبين الأتراك، فأغلق بابه، فجاء الأتراك ونهبوا داره، وسلبوا الكتاب، وأرباب الديوان ثيابهم، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهيلي، فهرب، وخرج جلال الدولة إلى عكبْرا، في شهر ربيع الآخر، وخطب الأتراك ببغداد للملك أبي كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز، فمنعه العادل بن ماقية من الإصعاد إلى

(١) الطبر: الفأس.

أن يحضر بعض قوادهم، فلما رأوا امتناعه من الوصول إليهم، أعادوا خطبةَ جلال الدولة، وساروا إليه، وسألوه العود إلى بغداد، فعاد بعد ثلاثة وأربعين يومًا.

واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، ثم عزله، واستوزر بعده عميد الملك أبا سعيد عبد الرحيم، فوزر أيامًا ثم استتر، وسبب ذلك أن جلال الدولة تقدم إليه بالقبض على أبي المعمّر إبراهيم بن الحسين البسامي طمعًا في ما له عليه، وجعله في داره فقبض فثار الأتراك، وقصدوا دار الوزير، وضربوه، وأخرجوه من داره حافيًا، ومزقوا ثيابه وعمامته، وأخذوا خواتيمه فدميت إصبعه، وكان جلال الدولة في الحمام، فخرج فزعًا لينتظر ما الخبر، فوجد الوزير فقبّل الأرض، وذكر ما فعل به، فقال له جلال الدولة أنا ابن بهاء الدولة، وقد فعل فِيَّ أكثر من هذا، ثم أخذ من البسامي ألف دينار، وأطلقه، واختفى الوزير. وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة في شهر رمضان شغَب الجند على جلال الدولة، وقبضوا عليه، وأخرجوه من داره، ثم سألوه ليعود إليها فعاد، وسبب ذلك أنه استقدم الوزير أبا القاسم من غير أن يعلموا، فاستوحشوا من ذلك، واجتمعوا وهجموا عليه في داره، وأخرجوه إلى مسجد هناك، فوكلوا به فيه، وأسمعوه ما يكره، ونهبوا بعض ما في داره، فجاء بعض القواد في جماعة من الجند، وأعاده إلى داره، فنقل جلال الدولة حرمه، وما فضل في داره بعد النهب، إلاّ الجانب الغربي، ونزل بدار المرتضى، وعبر الوزير معه، ثم راسله الجند، وقالوا نريد أن تنحدر عنا إلى واسط، وأنت ملكنا، وتترك عندنا بعض أولادك الأصاغر، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل سرًا إلى الغلمان الأصاغر، واستمالهم، وإلى كل واحد من الأكابر واستماله، وقال: إنما وثوقي بك وسكوتي إليك، فمالوا إليه ودخلوا عليه، وقبّلوا الأرض بين يديه، وسألوه العود إلى داره، فعاد وحلف لهم على الإخلاص، والإحسان إليهم، وحلفوا له على المناصحة.

وفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة عاد الجند إلى الشغب وثاروا به وأرادوا إخراجه من بغداد، فاستمهلهم ثلاثة أيام، فلم يمهلوه، ورموه بالآجر، فأصابه بعضه، فاجتمع الغلمان، وردّهم عنه، فخرج من باب لطيف، وركب في سُماريَّة متنكِّرًا، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ، ثم سار إلى رافع بن الحسين بتكريت، وكسّر الأتراك باب داره، ودخلوها، ونهبوها، وخلعوا كثيرًا من ساجها وأبوابها، فأرسل الخليفة إليهم، وسكنهم، وأعاده إلى بغداد. والله أعلم.

ذكر الفتنة بين جلال الدولة، وبارسطغان، وقتل بارسطغان

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة كانت الفتنة بينهما، وكان بارسطغان من أكابر الأمراء، ويلقب حاجب الحجاب، وكان سبب الفتنة: أن جلال الدولة نسبه إلى فساد الأتراك، والأتراك نسبوه إلى أخذ الأموال؛ فخاف على نفسه، فالتجأ إلى دار الخلافة، وذلك في شهر رجب سنة سبع وعشرين، فمنع الخليفة منه، وأرسل بارسطغان إلى الملك أبي كاليجار يحثه على طلب ملك العراق، فأرسل أبو كاليجار جيشًا فوصلوا إلى واسط وأخرجوا منها الملك العزيز بن جلال الدولة، فأصعد إلى أبيه، فعند ذلك كشف بارسطغان القناع، وانضمّ إليه أصاغر المماليك، ونادوا بشعار أبي كاليجار، وأخرجوا جلال الدولة من بغداد، فسار إلى أوانا[1] ومعه البساسيري[2]، وأرسل بارسطغان إلى الخليفة في الخطبة لأبي كاليجار، فامتنع واحتج بعهود جلال الدولة، فأكره الخطباء على الخطبة لأبي كاليجار، ففعلوا، وسار الأجنادُ الواسطيّون إلى باب بارسطغان، وكانوا معه، ثم عاد جلال الدولة إلى الجانب الغربي ببغداد، ومعه قراوش بن المقلَّد العقَيلي ودبيس بن علي بن مزيد الأسدي، وخطب له بالجانب الغربي، ولأبي كاليجار بالجانب الشرقي، ثم سار جلال الدولة إلى الأنبار، وسار قرواشُ إلى الموصل، ووصل الخبر إلى بارسطغان بعوْد أبي كاليجار إلى فارس، ففارقه الدَّيلم الذين كانوا نَجدةً له، فضعف أمره، فرفع ماله وحرمه إلى دار الخلافة، وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد، وأرسل البساسيري والمرشد وبني خفاجة في إثر بارسطغان، ومعهم جلال الدولة ودبيس، فلحقوه بالخيزرانية، فقاتلوه، فسقط عن فرسه، فأسر وجيء به إلى جلال الدولة، فقتله، وكان عمره نحوًا من سبعين سنة، فضعف أمر الأتراك، وطمع فيهم الأعراب، واستولوا على إقطاعهم.

ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وقع الصّلح بين جلال الدولة، وأبي كاليجار، والاتفاق، وزال الخلف بعد أن كان بين عساكرهما حرب قبل ذلك، فاتفقا الآن،

---

(١) أوانا: بليدة نزهة من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

(٢) هو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري الذكي مقدم الأتراك ببغداد، والبساسيري نسبة إلى بلدة فارس يقال لها بسا. . . (وفيات الأعيان ١ : ١٩٢).

وكان الرسل في الصلح أقضى القضاة أبا الحسن الماوردي[١]، وأبا عبد الله المردوستي، وغيرهما، وتزوَّج أبو منصور بن علي أبي كاليجار بابنة جلال الدولة، وكان الصداق خمسين ألف دينار قاشانية. والله أعلم.

ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة سأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر الله أن يُخاطَب بملك الملوك، فامتنع، ثم أجاب إذا أفتى الفقهاء بجوازه، فأفتى قاضي القضاة أبو الطيب الطبري[٢]، والقاضي أبو عبد الله الصيمري، والقاضي ابن البيضاوي، بجواز ذلك، ومنع منه أقضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات، فخُطب لجلال الدولة بملِك لملوك، وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وهو يتردَّد إلى دار الملك في كل يوم، فلما أفتى بالمنع انقطع، ولزِم بيتَه من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر، استدعاه جلال الدولة، فحضر خائِفًا، فأُدخِل عليه وحده، فقال له: قد علم الناسُ أنكَ من أكثر الفقهاء مالاً وجاهًا وقُرْبًا منا، وقد خالفتَهم فيما وافق هواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة منك واتِّباع الحق، وقد بان لي موضعُك من الدين، ومكانُك من العلم، وجعلت جزاء ذلك إكرامك، بأن أدخلتك إليَّ وحدك، وجعلت إذْنَ الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحبّ، فشكره ودعا له، وأذن لكلٍّ من حضر للخدمة بالانصراف، والله أعلم.

ذكر وفاة جلال الدولة

كانت وفاته ببغداد سادس شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان مرضُه ورمًا في كبده، وكان مولده في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وكانت مدة عمره إحدى

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، الفقيه الشافعي؛ كان من وجوه الشافعية ومن كبارهم، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الاسفراييني ببغداد، وكان حافظًا للمذهب وله فيه كتاب «الحاوي» و«تفسير القرآن الكريم» و«النكت والعيون» و«أدب الدين والدنيا» وغيرها من المصنفات (وفيات الأعيان ٣: ٢٨٢).

(٢) توفي أبو الطيب الطبري عن مائة وسنتين ولم يختل عقله ولا تغير فهمه يفتي مع الفقهاء ويستدرك عليهم الخطأ ويقضي ويشهد ويحضر المواكب إلى أن مات. تفقه بآمل على الزجاجي صاحب ابن القاص وقرأ على أبي سعيد الإسماعيلي وأبي القاسم بن كج بجرجان... (شذرات الذهب ٣: ٢٨٤).

وخمسين سنة، ومدة ملكه ببغداد منذ خطب له ثانيًا، سبع عشرة سنة وشهرين، ومنذ وصل إليها ست عشرة سنة وأحد عشرة شهرًا، وكانت أيامه كثيرة الوهن والاضطراب، وضعفت المملكة في أيامه، وقد تقدم ما يدل على ذلك، وكان كثير الصدقة، وزيارةِ الصّالحين والمشاهد، وكان يمشي حافيًا قبل وصوله إلى كلِّ مشهد نحوًا من فرسخ.

أولاده: الملك العزيز أمير الأُمراء أبو منصور، توفي بديار بكر في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وزراؤه: أبو سعد عبد الواحد بن علي بن ماكولا، ثم نكبه، واستوزر أخاه أبا علي الحسن، ثم عزله، واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، وهو أخوهما، ثم استوزر عميد الملك أبو سعيد عبد الرحيم، واستوزر غير هؤلاء، والله أعلم.

ذكر أخبار السلطان شاهنشاه

هو أبو كاليجار المرزبان ابن سلطان الدولة أبي شجاع فنَاخسرو ابن بهاء الدولة أبي نصر خسرو فيروز ابن عضُد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه، ملك بعد وفاة والده سلطان الدولة، كرمان، وفارس، وخوزستان، ثم ملك الحضرة ببغداد، بعد وفاة عمِّه جلال الدولة، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء ملكه

لما توفي والده سلطان الدولة في شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة بشيراز، كان هو بالأهواز، فطلبه الأوحد أبو محمَّد بن مكرم ليملك البلاد، وكان هواه معه، وهوى الأتراك مع عمه أبي الفوارس ابن بهاء الدولة صاحب كرمان، فكاتبوه أيضًا يطلبونه إليهم، فتأخر أبو كاليجار، وسبقه عمه أبو الفوارس إليها، فملكها، وكان أبو المكارم بن أبي محمد بن مكرم قد أشار عليه ابنه، لما رأى الاختلاف، أن يسير إلى مكان يأمن فيه على نفسه، فلم يقبل قوله، ففارقه، وقصد البصرة، فلما ملك أبو الفوارس طالبه الجند بحق البيعة، فأحالهم على ابن مكرم، وألزمه بإيصال المال إليهم، فتضجر من ذلك، فقبض أبو الفوارس عليه وقتئذ، فلما سمع ابنه بقتله صار مع الملك أبي كاليجار وأطاعه، وتجهز الملك أبو كاليجار، وقام بأمره أبو مزاحم صندل الخادم مربيه، وساروا بالعساكر إلى فارس، فبعث أبو الفوارس عسكرًا مع وزيره أبي منصور الحسن بن علي البشنوي لقتاله، فوصل أبو كاليجار والوزير فتهاون

به؛ لكثرة عساكره، فأتوه وهو نائم، وقد تفرق عسكره في البلد، لابتياع ما يحتاجون إليه، وكان جاهلًا بالحرب، فلما شاهد أعلام أبي كاليجار شرع الوزير يرتب العسكر، وقد داخلهم الرعب، فحمل عليهم أبو كاليجار، فانهزموا وغنم أموالهم، فلما انتهى خبر الهزيمة إلى أبي الفوارس سار إلى كرمان، ودخل أبو كاليجار شيراز، وملك فارس.

ذكر عودة أبي الفوارس إلى فارس وإخراجه

قال: ولما ملك أبو كاليجار البلاد، ودخل شيراز، وجرى على الدَّيلم الشيرازيَّةِ من عسكره ما أخرجهم عن طاعته، وتمنَّوا أنهم كانوا قُتِلوا مع عمه، ثم إن عسكر أبي كاليجار شَغَبوا عليه، وطالبوه بالمال فأظهر دَيْلَمُ شيراز ما في نفوسهم من الحقد، فعجز عن المقام معهم، فسار عن شيراز إلى النونبدجان، ولقي شدَّة في طريقه، ثم فارقها لشدَّة حرِّها، ووخامة هوائها إلى شِعْب بوّان[١]، فأقام به، وهو أحد متنزهات الدنيا الأربع، ولما سار عن شيراز أرسل الدَّيلم الشيرازيّون إلى أبي الفوارس يحثونه على الوصول إليهم، فسار إليهم وتسلَّم شيراز، وقصد أبا كاليجار بشعب بوَّان، ثم استقر بينهما الصلح، على أن يكون لأبي الفوارس كِرمانُ وفارس، ولأبي كاليجار خوزستان، وعاد أبو الفوارس إلى شيراز، وسار أبو كاليجار إلى أرَّجان، ثم إن وزيره أبي الفوارس صادر الناس، وأفسد قلوبهم، واجتاز به مالٌ لأبي كاليجار ولمن معه من الديلم، فأخذه، فحينئذ حثَّ العادل بن ماقية صندلاً الخادم على العوْد إلى شيراز، فعادت الحالُ إلى أشدِّ ما كانت عليه، ثم خرج كل واحد، من أبي الفوارس وأبي كاليجار، والتقَوا، واقتتلوا، فانهزم أبو الفوارس إلى دارابْجِرد[٢]، وملك أبو كاليجار فارس، وعاد أبو الفوارس فجمع الأكراد، فاجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل، والتقوا واقتتلوا نحو البيضاء، واصطخر، فانهزم أبو الفوارس ومن معه، وسار إلى كرمان، واستقر ملك أبي كاليجار بفارس، في سنة سبع عشرة وأربعمائة، وفي أثناء ذلك خُطِب لأبي كاليجار ببغداد، بعد وفاة مشرف الدولة، كما قدمناه في أخبار

(١) شعب بوان: بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان، وهو أحد منتزهات الدنيا.. وهو واد عميق، والأشجار والعيون التي فيه إنما هي من جهتيه، وأسفل الوادي مضايق تجتمع فيها تلك المياه وتجري... (معجم البلدان).

(٢) دارابجرد: ولاية بفارس.. ودارابجرد: قرية من كورة إصطخر... ودارابجرد أيضًا: موضع بنيسابور... (معجم البلدان).

جلال الدولة، وفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة استقر الصلح بين أبي كاليجار، وعمه أبي الفوارس صاحب كرمان، على أن تكون كرمان لأبي الفوارس وبلاد فارس لأبي كاليجار، ويحملَ لعمِّه في كلِّ سنة عشرين ألف دينار، وفَوَّض أبو كاليجار أُمور دولته إلى العادل بن ماقية، فأجابه بعد امتناع، وشرط عليه ألا يعارض فيما يفعله، وفي سنة تسع عشرة وأربعمائة توفي أبو الفوارس صاحب كرمان، فاستولى أبو كاليجار على كرمان.

ذكر ملك أبي كاليجار العراق

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ملك العراق، وذلك بعد وفاة عمه جلال الدولة، وذلك أن جلال الدولة لما مات كان ولدُه الأكبرُ الملكُ العزيز بواسط، فكاتبه الأجنادُ بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيلَ ما جرت به العادة من حقِّ البيعة، فتردَّدت الرسائلُ بينهم في مقدار المال، فلم يكن عنده ما يعطيه لهم، وبلغ خبرُ موته الملكَ أبا كاليجار، فكاتب القوَّاد والأجناد ورغَّبهم في المال، وبكثرته وتعجيله، فمالوا إليه، وعدلوا عن الملك العزيز، وأرسل الأموال، وفرَّقها على الجند وأولادِهم ببغداد، وأرسل إلى الخليفة عشرة آلاف دينار، ومعها هدايا كثيرة، فخُطِب له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، ولقَّبه الخليفة محيي الدين، وسار إلى بغداد في مائة فارس من أصحابه؛ لِيلاً مخافة الأتراك، فلما وصل إلى النعمانية لقيه دبيس بن مزيد، ودخل إلى بغداد في شهر رمضان، ومعه وزيره ذو السعادتين أبو الفرج بن محمد بن جعفر بن محمد بن فسابخس وزينت بغداد لقدومه، وخَلع على أصحاب الجيوش، وهم البساسيري والنشاودي والهمام أبو البقاء، وجرى من ولاة العرض تقديم لبعض الجند وتأخير، فشغب بعضهم، وقتلوا واحدًا من وُلاة العرض بمرأى من الملك أبي كاليجار، واستمر ملكه إلى سنة أربعين وأربعمائة فتوفي بمدينة خنَاب[1] من كرمان، في رابع جُمادى الأُولى منها، وقد عزم على المسير إلى كرمان، وكان عمره أربعين سنة وشهورًا، ومدة ملكه، منذ ملك فارس بعد وفاة أبيه، أربعًا وعشرين سنة وسبعة أشهر، بما في ذلك من مدة الحرب بينه وبين عمه أبي الفوارس، ومنذ ملك العراق بعد عمه جلال الدولة أربع سنين وشهرين ونَيِّفًا وعشرين يومًا، ولما توفي نهب الأتراك الذين بالعسكر الخزائنَ والسلاح والدوابَّ، وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيَّم الوزير أبي منصور، وأراد الأتراك نهبها، فمنعهم الديلم، وعاد

(١) خنَاب: بالفتح وتشديد النون: ناحية بكرمان لها رستاق وقرى. . . (معجم البلدان لياقوت).

العسكر إلى شيراز، فملكها الأمير أبو منصور، وكان رحمه الله منصفًا للتجار في معاملاتهم، يربحون عليه الأرباح الكثيرة، مع بخله العظيم، وخلف بقلعة اصطخر تسعة وعشرين ألف بدرةٍ ورقًا، وأربعمائة بدرةٍ عينًا، سوى الجواهر والثياب.

أولاده: الملك الرحيم أبو نصر أبو منصور فلاستون. أبو طالب كامروا ـ أبو المظفر بهرام ـ أبو علي كيخسرو شاه، وثلاثة بنين أصاغر.

وزيره: العادل أبو منصور بهرام.

ذكر ملك الملك الرحيم أبي نصر

هو أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليجار المزربان ابن سلطان الدولة فناخسروا ابن بهاء الدولة أبي نصر خسرو فيروز ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة، وهو آخر ملوك الدولة البويهية، وعليه انقرضت دولتهم، وكان ملكه ببغداد بعد وفاة أبيه كاليجار، وذلك أنه لما ورد الخبرُ بوفاته إلى بغداد، وبها ولَدهُ أبو نصر هذا أحضَر الجند واستحلفهم، وراسل الخليفة القائم بأمر الله، في الخُطبة لنفسه وتلقيبه بالملك الرحيم، تردَّدت الرسائل في ذلك إلى أن أجابه الخليفةُ إلى الخُطبة، ولم يجبه إلى اللَّب، وقال: لا يجوز أن يلقَّب أحد بأخص صفاتِ اللّهُ عزّ وجل، واستقر ملكه بالعِراق وخُوزِستان والبصرة، وكان بالبصرة أخوه أبو علي كيخسرو واستولى أبو منصور على شيراز، فسيّر إليه الملكُ الرحيم أخاه أبا سعيد في عسكر، فملكوا شيراز، وقبضوا على أبي منصور ووالدته، وذلك في شوال سنة أربعين وأربعمائة، وخُطب للملك الرَّحيم بشيراز، ثم خالفه أهلُها بعد ذلك، وصاروا مع أخيه أبي منصور، وكان بينهم حروب ووقائع يطول شرحها، ولم يزل الملك الرحيم في الملك إلى أن قطعت خُطْبته، عند وصول السّلطان طُغْرلبك السّلجقي إلى بغداد، فخطب له بها بعد الخليفة، ثم بعده للملك الرحيم، بشفاعة الخليفة إلى السلطان طغرلبك ـ ثم قبض طغرلبك على الملك الرحيم، وقُطِعت خطبته، لخمس بقين من شوال، وقيل في سلخ شهر رمضان سنة سبع وأربعين، وسيره السلطان إلى الريّ، واعتقله في قلعتها، فمات في سنة خمسين وأربعمائة وانقطعت الدولة البويهية من بغداد بزوال ملكه. وكان ملكه سبع سنين وشهورًا، وبلغ من العمر أربعًا وعشرين سنة وشهورًا.

وزراؤه: الوزير أبو السعادات، وأبو الفرج بن فسانجس، وابنه الوزير أبو الغنائم، والوزير أبو الحسن علي بن عبد الرحيم.

جامع أخبار ملوك بني بويه عدة من ملك منهم ستة عشر ملكًا

وهم عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه، ركن الدولة أبو علي الحسن معز الدولة أبو الحسن أحمد عز الدولة بختيار بن معز الدولة. عضُد الدولة أبو شجاع فناخسرو شاهنشاه. وفيه يقول المتنبي: [من المنسرح]

أبا شجاع بفارسٍ عضُدَ الدّو لة فناخُسْرُوًا شهنشاها[(١)]

مؤيّد الدولة أبو منصور بويه ركن الدولة، فخر الدولة وفلك الأُمة أبو الحسن علي بن ركن الدولة مجد الدولة، وكنف الأُمة أبو طالب رستم بن فخر الدولة، وهؤلاء الثلاثة لم يملكوا العراق ـ صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة ـ شرف الدولة أبو الفوارس شيرذيل ابن عضد الدولة بهاء الدولة وضياء الدولة أبو نصر خسرو فيروز ابن عضد الدولة سلطان الدولة أبو شجاع فناخسرو ابن بهاء الدولة مشرف الدولة ابن بهاء الدولة ـ جلال الدولة أبو طاهر فيروز خسرو ابن بهاء الدولة ـ الملك شاهنشاه أبو كاليجار المرزبان ابن سلطان الدولة، الملك الرحيم أبو نصر، وملك منهم أيضًا شمس الدولة أبو طاهر ابن فخر الدولة، ملك همذان ثم استولى على الجبل، وأبو الفوارس بن بهاء الدولة صاحب كرمان. ومدة ملكهم منذ استولى عمادُ الدولة على أصفهان لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وإلى أن انقطعت خطبة الملك الرحيم لخمس بقين من شوال سنة سبع وأربعين وأربعمائة، مائة سنة وخمس وعشرون سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة عشر يومًا. ومنذ ملك معزُّ الدولة بغداد، ولقبه الخليفة المستكفي بالله العباسي، ولقب إخوته بالألقاب التي ذكرناها، ونقش أسماءهم على السكّة لإحدى عشرة ليلة خلت من جُمادى الأُولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وإلى هذا التاريخ، مائة سنة وثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا. وكان لهم في غالب الأوقات من الأقاليم: سجستان، وطبرستان، وجرجان، دعوة وخطابة، وسكة[(٢)]، وكرمان، والريّ،

(١) شهنشاه: أي ملك الملوك، وهو لقب بني بويه. «راجع ديوان المتنبّي الجزء الثاني ص٤٤٧ شرح الشيخ ناصيف اليازجي ط دار صادر».

(٢) السكة: من معانيها: الطريقة المستوية المصطفة من النخل، وهي بهذا المعنى في عدة مواضع: سكة اصطفانوس: في البصرة... وسكة العقار: موضع في البادية... وسكة بني سمرة: بالبصرة... وسكة صدقة بمرو من محالها... (معجم البلدان لياقوت).

وأصفهان، وهمذان، وبلاد فارس، وخوزستان، والعراق، والموصل، وديار بكر، وما يليها، وجميع عُمان، وانقرضت دولتهم كأن لم تكن، فسبحان الدائم الذي لا يزول ملكه، ولا يفنى دوامه، سبحانه وتعالى.

وحيث ذكرنا الدولة البويهية، وأخبار ملوكها.

فلنذكر أخبار الدولة السلجقية.

ذكر أخبار الدولة السلجوقية وابتداء أمر ملوكها وكيف تنقلت بهم الحال، إلى أن استولوا على البلاد، وما حازوه من الأقاليم والممالك، وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداء ظهور هذه الدولة في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وملوكها هم الذين ينسب إليهم القبة والطير. يقال: إنهم اتخذوا ذلك تبركًا بالطائر الذي يقال إنه إذا وقع ظله على أحد من البشر سعد سعادة عظيمة، وقيل: إن ظله وقع على أبيهم سلجق، فكان من أمره ما نذكره، وقد اختلف في انتسابهم إلى أي قبيلة، فمن الناس من ذهب إلى أنهم من التركمان، ومنهم من يقول إنهم من الترك، وفي أخبارهم ما يدل على أنهم من الأتراك. وأول من نبغ من ملوك هذه الدولة وعلا قدره، وطار اسمه، واستولى على البلاد، وقاتل الملوك، وحاز الممالك ونعت بالسلطنة: طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجق بن يقاق.

وطُغْرُلْبك: بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وضم الراء، وسكون اللام، وفتح الباء الموحدة وبعدها كاف.

ولنبدأ بذكر آبائه، وابتداء أمرهم على سبيل التلخيص والاختصار، لتكون أخبارهم سياقة، يتلو بعضها بعضًا. فأما يقاق، وقيل فيه دقاق، ومعنى يُقاق: القوس الجديدة، فكان رجلاً تركيًا شهمًا، صاحب رأي وتدبير، وهو أول من دخل في دين الإسلام، وكان مقدم طائفته من الأتراك، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً، وكان ملك الترك في زمانه بيغو يتدبر برأيه، ويقتدي بمشورته، ويستصْحبه في حروبه، فيقال: إن بيغو جمع عساكره، وأرادوا المسير إلى بلاد الإسلام، فنهاه يقاقُ عن ذلك، وطال الخطاب بينهما، فأغلظ له ملك الأتراك في الكلام، فلطمه يقاق فشجَّ رأسه فثار به خدم بيغو، وأرادوا قتلَه، فمانع عن نفسه، واجتمع من أصحابِه من مانَع عنه، ثم صلح الأمر بينهما، فكان يقاق عند بيغو إلى أن مات. وخلف ولده سُلْجُق.

ذكر أخبار سلجق بن يقاق

«وسلجق» بتفخيم الجيم؛ لتكون بين السين والجيم، ورأيت جماعة من المؤرخين أثبتوا في اسمه واوًا، فقالوا: «سلجوق». قال ابن الأثير: وإثبات الواو في اسمه غلط، والصواب سلجق. قال: ولما توفي والدُه يقاق، ظهر على سُلجق مخايل النجابة، وأمارات التقدم، فقرَّبه ملكُ الترك، وفوَّض إليه تدبير العساكر، ولقَّبه سباشي، ومعناه: قائد الجيش، فكانت امرأةُ الملك تحذِّره منه، وتخوِّفه عاقبة أمره، لما رأت من انقياد أصحابه إليه، وطاعة الناس له، وأغْرته بقتله، فبلغَ سُلجق الخبر، فسار بجماعته ومن يطيعه، والتحق بملك الخانية: شهاب الدولة هارون بن إيلك خان، ملك ما وراء النهر، فأمدَّه شهاب الدولة بجيش كثيف، ليغزو بلاد كفّار الترك، فاستشهد في بعض حروب الكفار، وقيل: بل توفي بجنْد[(١)] ودفن بها، قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: إنه لما فارق بيغو أقام بنواحي جنْد، وأدام غَزْو كفار الترك، وكان ملكُ الترك يأْخذ الخراج من المسلمين في تلك الديار، فطرد سلْجُق عمّاله عنها، ثم استنجد به بعض ملوك السامانية على هارون بن إيلك خان الخان؛ لأنه كان قد استولى على بعض بلاده، فأرسل إليه سلْجق ابنه أرسلان، في جمع من أصحابه، فقوي بهم الساماني على هارون، واستعاد ما كان أخذه من بلاده، وعاد أرسلان إلى أبيه.

قال: ولما توفِّي سلْجُق كان له من العمر مائة وسبع سنين، وخلف من الأولاد: أرسلان، وميكائيل، وموسى، فغزا ميكائيل بعض بلاد كفار الترك، وباشر القتال بنفسه، فاستشهد في سبيل الله، وقيل بل مات في حبس السلطان محمود بن سُبُكتكين؛ لأنه طلبه أن يكون في جملَة أصحابه، فامتنع من ذلك، فقبض عليه، واعتقله، فمات في اعتقاله، والله تعالى أعلم.

وخلف ميكائيل من الأولاد طُغْرُلْبك محمد، وجغْرِي بن داود، وبيغو، فأطاعهم عشائرهم، وانقادوا لأمرهم، فنزلوا بالقُرب من بُخارى، على عشرين فرسخًا منها، فخافهم أميرها، فأساء جوارهم، وقصد الإيقاع بهم، فانتموا إلى بغرا خان ملك تركستان، واجتمعوا به، وأقاموا عنده، واستقرَّ الأمرُ بين طُغْرُلْبك وأخيه جغري بك

---

(١) جند: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قريب من نهر سيحون، وأهلها مسلمون ينتحلون مذهب أبي حنيفة. . . (معجم البلدان لياقوت).

داود، أنهما لا يجتمعان عند بغرا خان، وإنما يحضر أحدهما، ويقيم الآخر في أهله؛ خوفًا منه أن يقبض عليهما معًا، فاجتهد بغرا خان في اجتماعهما، فلم يتهيأ له، فقبض على طغرلبك، فسار داود في عشائره ومن معه، قصد بغراخان وقاتله وهزمه، وخلَّص أخاه وانصرفوا إلى «جنْد»، وهي بقرب بُخارى.

وأما أرسلان بن سلجُق أخو ميكائيل فإن إيلك خان لما ملك مملكة السامانية، بما وراء النهر، ومنها بُخارى، أعظم محلَّ أرسلان، وكان علي تكين في جيش أرسلان خان أخو إيلك خان، فهرب ولحق ببُخارى، واستولى عليها، واتفق مع أرسلان بن سلجق، وقوي أمرهما، فقصدهما إيلك خان أخو أرسلان خان، وقاتلهما، فهزماه، وبقيا ببُخارى، وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سُبُكتكين، فيما يجاوره من البلاد، ويقطع الطريق على رسله إلى ملوك الترك، فلما عبر محمود نهر جيحون هرب علي تكين من بُخارى، ودخل أرسلان بن سلجُق وجماعته إلى المفازة، فكاتبه محمود واستماله ورغَّبه، فأتاه، فقبض عليه لوقته، وسجنه ونهب خركاهاته، واستشار فيما يفعل بقومه وعشيرته، فأشار أرسلان الجاذب بقطع أباهيمهم حتى لا يرموا النشَاب، أو يغرقوا في نهر جيحون، فقال له: ما أنت إلا قاسي القلب، ثم أمر بهم، فعبروا نهر جيحون، وفرقهم في نواحي خراسان، ووضع عليهم الخُرُج[1]، فجار العمال عليهم، وامتدت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم، فانفصل منهم ألفا رجل، وساروا إلى كرمان، ومنها إلى أصفهان، وجرى بينهم وبين صاحبها علاء الدولة ابن كاكويه حرب، فساروا من أصفهان إلى أذربيجان.

هؤلاء جماعة أرسلان، وأما أولاد إخوته: فإن تكين صاحب بُخارى أعمل الحيلة في الظفر بهم؛ فراسل يوسف بن موسى بن سلجق وهو ابن عم طغرلبك، واستماله، وطلب منه الحضور عنده، فأتاه، ففوَّض إليه علي تكين التقدم على جميع الأتراك الذين في ولايته، وأقطعه إقطاعًا كبيرًا، ولقبه بالأمير اينانج بيغو وقصد بذلك أن يُعينه على أولاد عمه وأن يأخذَ بعضهم ببعض، فعلم يوسُفُ مراده، فلم يطعه في ذلك، فلما رأى أن مكيدته لم تؤثِّر، ولا يبلغ بها غرضًا، أمر بقتله، فقتله ألب قرا، أحد أُمراء علي تكين، فعظم ذلك على طغرلبك، وداود وعشائره، فلبسوا ثياب الحداد، وجمعًا من الأتراك ما قدرا على جمعه؛ لطلب ثأْر ابن عمِّهم، وجمع علي تكين جيوشه، والتقوا، واقتتلوا، فانهزم عسكر علي تكين، وذلك في سنة عشرين

---

(١) الخُرُج: جمع خرج، وهو وعاءٌ من شعر أو غيره، ذو عدلين.

وأربعمائة، ثم قصدا ألب قرا قاتل يوسف ابن عمِّهما، فقتلاه في سنة إحدى وعشرين، وأوقعا بطائفة من عسكر علي تكين، فقتلا منهم نحو ألف رجل، فجمع علي تكين عساكره، ومن حمل السلاح من أصحابه، وتبعهم خلق كثير من أهل البلاد، وقصدوا السلجقية من كل جانب، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة، وسبوا كثيرًا من نسائهم، فألجأتهم الضرورة إلى العبور إلى خراسان، فلما عبروا جيحون، كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش، يستدعيهم إليه؛ ليكونوا يدًا واحدة، فساروا إليه، واجتمعوا بظاهر خوارزم، في سنة ست وعشرين وأربعمائة، واطمأنوا إليه فغدر بهم، وأكثر فيهم القتل والنهب، فساروا إلى مفازة نسا[1]، وقصدوا مروَ في هذه السنة، وذراريهم، ونساؤهم في الأسر.

ذكر ما اتفق بين طغرلبك وداود وبين السلطان مسعود بن محمود بن سُبكتكين

قال: ولما اتفق لهم مع خوارزم شاه هارون ما ذكرناه، راسلوا الملك مسعود - وهو بطبرستان - يطلبون منه الأمان، وأن يكونوا في خدمته، ويدفعوا الطائفة التي تفسد في بلاده، ويكونوا من أعظم أعوانه، فقبض على الرسل، وجهز عسكرًا جرّارًا مع حاجبه بكتغدي، وغيره من الأمراء، فالتقوا عند نسا في شعبان سنة ست وعشرين وأربعمائة، فانهزم السلجقية، وغنم العسكرُ المسعودي أموالهم وأثقالهم، فجرى بين العسكر منازعة على الغنائم أدت إلى القتال بينهم، فقال داود لأصحابه: إن العسكر الآن قد اطمأن، واستقر والرأي أن نقصدهم، لعلنا نبلغ منهم غرضًا، فعاد ووافق وصولهم إليهم، وهم فيما وقع بينهم من الاختلاف، وقتال بعضهم بعضًا، فأوقعوا لهم، وقتلوا منهم، وأسروا، فاستردُّوا ما أخذوه، وعاد المنهزمون من المعسكر المسعودي إلى نيسابور، فندم مسعود على ردِّه السلجقية، عند بذلهم الطاعة، وعلم أن هيبتهم قد تمكنت في قلوب عساكره، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم، فقال طغرلبك لإمام صلواته: أكتب إليه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ - إلى - ﴿ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولا تَزِدْ على ذلك، ففعل، فلما ورد الجواب على مسعود، كتب إليهم يعِدهم المواعيد الجميلة وسيّر إليهم الخلع، وأمرهم بالرحيل إلى آمُل الشط،

---

(١) نسا: مدينة بخراسان، بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، وبين أبيورد يوم.. وهي مدينة وبئة جدًا يكثر بها خروج العرق المدينيّ حتى إن الصيف قلّ أن ينجو منها... (معجم ياقوت).

وهي مدينة على نهر جيحون، وأقطع دهشان لداود، ونَسا لطغرلبك، وفراوَة[1] لبيغو، ولقب كلَّ واحد منهم بالدِّهْقَان، فاستخفُّوا بالرسول والخلع، ثم قالوا له: لو علمنا أن السلطان يبقي علينا إذا قدر لأطعناه، وكلنا نعلم أنه متى قدر علينا أهلكنا، فنحن لا نطيعه، ثم أرسلوا إليه يخادعونه بإظهار الطاعة له، وسألوه إطلاق عمهم أرسلان بن سلجق، فأجابهم إلى ذلك، وأحضره عنده ببلخ، وأفرج عنه وأمره بمراسلة بني أخيه يأمرهم بالكفِّ عن الشر، والدخول في الطاعة، ففعل أرسلان، وأرسل إليهم مع الرسول أشفى، فلما جاء الرسول إليهم، وأدى الرسالة، وسلَّم إليهم الأشفى نفروا واستوحشوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الشر، فأعاد الملك مسعود عمهم أرسلان إلى الحبس، وسار إلى غزنة وقصد السلجقية بلخ، ونيسابور، وطوس، وجوزجان، وأقام داود بمدينة مرو، وانهزمت العساكر المسعودية من السلجقية مرة بعد أخرى، واستولى الرعب عليهم، هذا والملك مسعود يغزو الهند، والكتب تصل إليه بأخبار السلجقية وهو لا يجيب عنها، ولا يلوي على ما فيها لاشتغاله بما هو أهم عنده من ذلك، وهو غزو الهند، وفتح قلاعهم، على ما قدمناه في أخبار الدولة الغزنوية.

ذكر ابتداء الدولة السلجوقية وإقامة الخطبة لطغرلبك وداود

كان سبب ذلك أن وزراء السلطان مسعود، وأهل دولته، لما كرروا عليه القول وواصلوا الرسل إليه، يعرفونه ما آل إليه أمر السلجقية، ويحذرونه عاقبة توانيه فيهم، جهز جيشًا كثيفًا مع حاجبه سباشي، ومرداويج بن بسو، فأقام سباشي بهراة ونيسابور، ثم أغار على مرو وبها داود، فانهزم داود بين يديه، وتبعه العسكر المسعودي، فعطف داود عليه، وحمل على صاحب جوزجان، فقتله، فانهزم عسكر مسعود، وعاد داود إلى مرو، فأحسن إلى أهلها، وخطب لنفسه فيها في أول جمعة من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وهي أول خطبة أُقيمت لهم، ولقب في الخطبة بملك الملوك، وقويت نفوس السُلْجُقية وزاد طمعهم في البلاد، ثم التقى العسكر المسعود يبعد ذلك، والسلجقية، وباشر سباشي الحرب بنفسه، واقتتلوا على باب سرْخس، في شعبان سنة ثمان وعشرين، فانهزم سباشي أقبح هزيمة، وتبعه داود إلى طوس يأخذ أصحاب سباشي باليد، وكفوا عن القتل، وغنموا أموالهم، فكانت هذه الواقعة هي

---

(١) فراوة: بالفتح، وبعد الألف واو مفتوحة: هي بليدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم، خرج منها جماعة من أهل العلم، ويقال لها رباط فراوة. . . (معجم البلدان).

التي أوجبتْ ملْك السلجقية خراسان، ودخلوا قصبات البلاد، فدخل طغرلبك نيسابور، وسكن الشاذياخ[١]، وخطب له فيها في شعبان، ولقِّب بالسلطان المظفر وبثوا النواب في النواحي، وسار داود إلى هراة، وتوجه سباشي إلى غزنة، فاضطر مسعود إلى المسير إلى خراسان، وجمع من العساكر ما يضيق بها الفضا، وفرق فيهم الأموال، وسار من غزنة، ومعه من الفيلة عدد كثير، فوصل إلى بلخ، فقصده داود، ونزل قريبًا منها، ودخلها يومًا جريدة، على حين غفلة من العسكر، فأخذ الفيل الكبير الذي على باب الملك مسعود، وعدة جنائب[٢]، فعظم قدره في نفوس الناس وازدادت هيبته في قلوب العسكر، ثم سار مسعود من بلخ في مستهل شهر رمضان سنة تسع وعشرين، ومعه ألف فارس سوى الأتباع، وسار إلى جوزجان، فأخذ واليها الذي كان للسلجقية، فصلبه، وسار منها، فوصل إلى مرو الشاهجان، وسار داود إلى سَرخَس، واجتمع بأخويه طغرلبك وبيغو، فراسلهم مسعود في الصلح، فتوجه إليه بيغو بالجواب، فأكرمه مسعود وخلع عليه، وكان مضمون رسالته: «إنا لا نثق بمصالحتك بعدما فعلناه من هذه الأفعال، التي كل فعل منها موبق مهلك»، وآيسوه من الصلح، فسار مسعود من مرو إلى هراة، وقصد داود مرو، فامتنع أهلها من تسليمها. فحاصرهم سبعة أشهر، وملكها، فسقط في يد مسعود، وسار من هراة إلى نيسابور ثم إلى سرخس، وكلما اتبع السلجقية إلى مكان ساروا منه إلى غيره، ولم يزل كذلك حتى أدركه الشتاء، فأقام بنيسابور ينتظر الربيع، فلما جاء الربيع اشتغل مسعود بلهوه وشربه، حتى انقضى فصل الربيع، فلما جاء الصيف عاتبه أصحابه على إهماله أمر السلجقية، وعدم مناجزتهم الحرب، فسار من نيسابور في طلبهم، فدخلت السلجقية البرية وتبعهم مرحلتين، وقد ضجر عسكره من التعب والكلال، فنزل الملك مسعود منزلاً قليل الماء، فاقتتل عسكره على الماء، ونهب بعضهُم بعضًا، فعلم داود بما هم فيه، فرجع عليهم، فولَّوا منهزمين لا يرجع بعضهم على بعض، وثبت مسعود، ثم انهزم في نحو مائة فارس، حتى أتى غَرْشِسْتان[٣] وغنم السلجقية من

---

(١) الشاذياخ: بعد الذال المكسورة ياء مثناة من تحت، وآخره خاء معجمة: قرية من قرى بلخ.. والشاذياخ: مدينة نيسابور أم بلاد خراسان، وكانت قديمًا بستانًا لعبد الله بن طاهر بن الحسين ملاصق مدينة نيسابور.

(٢) الجنائب: واحدتها الجنيبة، وهي الناقة يعطيها الرجل غيره ليمتار له عليها، أو هي الدابة تقاد.

(٣) غرشستان: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة مكسورة، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل، هراة في غربيها والغور في شرقيها... (معجم البلدان).

المعسكر المسعودي ما لا يدخل تحت الإحصاء، فقسم داود ذلك على أصحابه، وآثرهم على نفسه، ونزل في سرادق مسعود، وجلس على كرسيه، ثم أطلق الأسرى، ووضع خراج سنة كاملة.

ذكر ملك داود وطغرلبك وبيغو نيسابور وبلخ وهراة

قال: وسار طغرلبك إلى نيسابور، فملكها في أواخر سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، فقيل إنه أكل لوزينجا[١]، فقال: هذا ططماج[٢] طيب، إلا أنه لا ثوم فيه، ورأى أصحابه الكافور، فأكلوا منه، وقالوا: هذا ملح مُرّ، واستولى السلجقية حينئذ على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هراة، فدخلها، وسار داود إلى بلخ، وبها ألتونتاش الحاجب واليًا عليها لمسعود، فراسله داود في تسليم البلد إليه، وعرفه عجز صاحبه عن نصرته، فحبس ألتونتاش رسله، فنازله مسعود، وحصر المدينة، فأرسل ألتونتاش إلى مسعود وهو بغزنة يعرفه الحال، وما هو فيه من ضيق الحصار، فجهز مسعود العساكر الكثيرة، فجاءت طائفة منهم إلى الرُّخَّج[٣]، وبها جمع من السلجقية، فقاتلوهم، فانهزمت السلجقية، وقتل منهم ثمانمائة رجل وأسر كثير، وخلا ذلك الصقع منهم، وسارت طائفة إلى هراة وبها بيغو، فقاتلوه، ودفعوا عنها، ثم جهز مسعود ولده مودودًا وسيَّره في عسكر كبير مددًا لهذا العسكر، فسار عن غزنة في سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فلما قاربوا بلخ سيَّر داود طائفة من عسكره، فأوقعوا بطلائع مودود، فانهزمت الطلائع، وتبعهم عسكر داود، فلما أحس بهم عسكر مودود رجعوا إلى ورائهم، فلما اتصل هذا الخبر بألتونتاش صاحب بلخ أطاع داود وسلم إليه البلد، ووطىء بساطه، ثم اتفق قتل السلطان مسعود في سنة اثنتين وثلاثين، وملك بعده أخوه محمد، ثم قتل مودود بن مسعود، فتمكن السلجقية.

ذكر ملك طغرلبك جرجان وطبرستان

وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ملك طغرلبك جرجان وطبرستان، وسبب ذلك أن أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير صاحبها قبض على أبي كاليجار بن ويْهان القُوهي صاحب جيشه، وزوج أُمه، فعلم طغرلبك عند ذلك أنه لا

---

(١) اللوزينج: من الحلوى، شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز.
(٢) الططماج: خبز فطير وإصلاحه بالثوم ويؤكل معه النعناع.
(٣) الرخّج: كورة ومدينة من نواحي كابل.

مانع له، ولا دافع من البلاد، فسار إليها، وقصد جرجان، ومعه مرداويج بن بسّو، فلما نازلها فتح له مستحفظها أبوابها، فدخلها، وقرر على أصحابها مائة ألف دينار صلحًا، وسلم البلد لمرداويج، وقرر عليه في كل سنة خمسين ألف دينار، عن جميع الأعمال، وعاد إلى نيسابور، وقصد مرداويج بن بسو أنوشروان «بسارية»، فاصطلحا على أن ضمن له أنوشروان ثلاثين ألف دينار، وأُقيمت الخطبة لطُغْرُلْبك في سائر البلاد، وتزوج مرداويج بوالدة أنوشروان، وتمكن، وبقي أنوشروان يتصرف فبأمر مرداويج، لا يخالفه في شيء البتة، وملك خوارزم في سنة أربع وثلاثين من شاه ملك ابن علي، وكان في طاعة مودود صاحب غزنة.

ذكر مسير إبراهيم ينال إلى الريّ وهمذان

وإبراهيم ينال هو أخو طغرلبك لأمه. قال: ولما ملك إخوته خراسان سار هو إلى الريّ، فملكها في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ثم سار عنها إلى البلاد المجاورة لها، ثم انتقل إلى بروجرد[1]، فملكها، ثم قصد همذان، وكان بها أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدول، ففارقها إلى سابور خواست، ونزل إبراهيم عليها، وأراد دخولها، فقال له أهلها: إن كنت تريد منا الطاعة، وما يطلبه السلطان من الرعية، فنحن باذلوه، وداخلون تحته، فاطلب أولاً هذا المخالف عليك الذي كان عندنا، يعنون كُرشاسف، فإنا لا نأمن عوده إلينا؛ فإذا ظفرت به كُنّا لك، فكف عنهم، وسار إلى كرشاسف بعد أن أخذ من أهل البلد مالاً، فلما قارب سابور خواست تحصّن منه كرشاسف بالقلعة، وملك إبراهيم قهرًا ونهبه، ثم عاد إلى الريّ، وذلك في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ذكر خروج طغرلبك إلى الريّ وملكه بلد الجبل

قال: ولما فرغ طُغْرُلْبك من خوارزم، وجرجان، وطبرستان خرج من خراسان إلى الريّ، وغيرهما من بلاد الجبل، وسار أخوه إبراهيم يُنال إلى سجستان، وأخذ طغرلبك قلعة طبرك من مجد الدولة ابن بويه، وأقام عنده مكرّمًا، وأمر طغرلبك

(١) بروجرد: بالفتح ثم الضم ثم السكون، وكسر الجيم وسكون الراء، ودال: بلدة بين همذان وبين الكرج، بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا، وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ. . . (معجم البلدان).

بعمارة الريِّ، وكانت قد خربت، فوجد في دار الإمارة مراكب ذهب مجوهرة، وبرنيتين[١] من الصيني مملوءتين، وأموالاً كثيرة، وسار إلى قزوين، وحصرها، فوقع الصلح على ثمانين ألف دينار، ودخل صاحبها في طاعته، وأطاعه ملك الديلم، وحمل إليه مالاً وعروضًا، وأطاعه غيره من الملوك، وأرسل سرية إلى أصفهان، وبها أبو منصور فرامرز الدولة، فأغارت وعادت سالمة، وخرج طغرلبك من الريّ، وقصد أصفهان، فصالحه صاحبها، وصانعه بمال، وسار إلى همذان، فملكها من صاحبها كرشايف بن علاء الدولة، وسار معه إلى أبهر وزنجان، وطلب منه طغرلبك تسليم قلعة كنكور، فأرسل إلى من بها ليسلموها، فامتنعوا، فقال له طغرلبك: ما امتنعوا إلا بأمرك ورأيك، فاصعد إليهم، وأقم معهم، ولا تفارق موضعك حتى آذن لك»، واستناب بهمذان ناصر العلوي.

وفي سنة خمس وثلاثين وصل إلى طغرلبك رسول الخليفة القائم بأمر الله، وهو أقضى القضاة أبو الحسن علي الماوردي، فتلقاه طغرلبك على أربعة فراسخ، إجلالاً لرسالة الخليفة، وذكر طاعته للخليفة، ووقوفه عند أوامره.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة استوزر السلطان طغرلبك أبا القاسم علي بن عبد الله الجويني[٢]، وهو أول وزير وزر له.

وفي سنة سبع وثلاثين أمر السلطان طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بالخروج إلى بلاد الجبل، فسار من همذان، وقصد كرمان، وبها كرشاسف بن علاء الدولة، ففارقها خوفًا، ودخلها إبراهيم، وملكها، وسار إلى الدينور، فملكها، وملك قرميسين في شهر رجب بعد حصار وقتال، وملك الصيمرة[٣] في شهر شعبان ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لهما، ثم سار إلى حلوان، فنهبها، وأحرقها.

ذكر ملك ينال قلعة كنكور وغيرها

وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة سار إبراهيم إلى قلعة كِنْكِور، وبها عُكبر بن فارس، صاحب كرشاسف، فامتنع عكبر بها إلى أن فقدت ذخائره وفنيت الأقوات،

---

(١) البرنيّة: واحدة البرني: إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين.

(٢) نسبة إلى جوين: وهي كورة جليلة نزهة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور.

(٣) الصيمرة: هي في موضعين: أحدهما بالبصرة على فم نهر معقل وفيها عدة قرى تسمى بهذا الاسم. . والصيمرة: بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان، وهي مدينة بمهرجان قذق. . . (معجم البلدان).

فعند ذلك أعمل الحيلة، وعمد إلى بيوت الطَعام التي بالقلعة فملأها ترابًا وحجارة، وسدّ أبوابها، ونشر من داخل الأبواب شيئًا من الطعام، وعلى رأس التراب والحجارة مثل ذلك، وراسل إبراهيم في تسليم القلعة إليه، على أن يؤمنه على من بها من الرجال، وما بها من الأموال، فامتنع إبراهيم من ترك المال، فأخذ عكبر رسول إبراهيم، وطوّفه على بيوت الطعام، فرآها مملوءة وظنها طعامًا، وقال له: قل لصاحبك إنني لم أرسل إليه خوفًا من المطاولة، ولا إشفاقًا من نفاد المِيرة، ولكني أحببت الدخول في طاعته، فإن بذل لي الأمان على ما طلبته لي، وللأمير كرشاسف وأمواله، ولمن بالقلعة، سلَمتها إليه، وكفيتُه مؤنة المقام، فلما عاد الرسول إلى إبراهيم، وأخبره بما رأى وسمع، أجابه إلى ما طلب، ونزل عكبر، فلما تسلَّم إبراهيم القلعة تبينت له مكيدته، وعاد إلى همذان، وسيَّر جيشًا عليهم نسيب له اسمه أحمد، وسلم إليه سرجاب بن أبي السؤل؛ ليفتح به قلاعه، وكان الأكراد الملاذية قد قبضوا عليه، وسلَّموه لإبراهيم ينال، قبل ذلك، فسار به أحمد إلى قلعة كلكان، فامتنعت عليه، فسار إلى قلعة دردبلوه، فحصرها، وامتدت طائفة ممن معه إلى تلك الأعمال، فنهبوها، ووصلوا إلى الدسكرة[1]، وباجسرى[2]، والهارونية[3]، وقصر سابور، وجميع تلك الأعمال، ونهبوها، فوصل الخبر إلى بغداد، فارتاع أهلها، ثم سار إبراهيم ينال إلى السيروان، فحصر القلعة، وضيَّق على من بها، وأرسل سريّة نهبت البلاد، وانتهت إلى عشرة فراسخ من تكريت، ثم تسلم السيروان من مستحفظها بعد أن أمنه، واستخلف عليها رجلاً من أصحابه، وانصرف إلى حلوان وعاد إلى همذان.

ذكر غزو إبراهيم ينال الروم

وفي سنة أربعين وأربعمائة غزا إبراهيم الروم، فظفر وغنم وأسر وسبى، وكان سبب ذلك أن خلقًا كثيرًا من الغز مما وراء النهر، قدموا عليه، فقال لهم: إن بلادي تضيق عن مقامكم، والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وتجاهدوا في سبيل الله تعالى، وتغنموا وأنا سائر في أثركم، فساروا بين يديه وتبعهم،

---

(١) الدسكرة: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح كافه: قرية كبيرة ذات منبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد.

(٢) باجسرى: بليدة في شرقي بغداد، بينها وبين حلوان، على عشرة فراسخ من بغداد.

(٣) الهارونية: مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام... (معجم البلدان لياقوت).

فوصلوا إلى ملازكرد، وأرزن الروم، وقاليقِلا[١]، وبلغوا طرابزون، وتلك النواحي كلها، ولقيهم عسكر عظيم للروم والأنجاز، يبلغون خمسين ألفًا، فاقتتلوا وكانت بينهم عدة وقائع، تارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء، ثم كان الظفر للمسلمين، فأكثروا القتل في الروم، وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم، وممن أُسر قاريط ملك الأنجاز، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار، وهدايا بمائة ألف دينار، فلم يجبه إلى ذلك، ولم يزل يجوس خلال تلك الديار وينهبها، إلى أن بقي بينه وبين القسطنطنية خمسة عشر يومًا، واستولى المسلمون على تلك النواحي، وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وأخذوا من الدواب، والبغال، والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء، قيل: إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة، وإنه كان في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع. والله أعلم.

ذكر الوحشة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال والاتفاق بينهما

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة استوحش إبراهيم من أخيه السلطان طغرلبك؛ وكان سبب ذلك أن: طغرلبك طلب من أخيه إبراهيم أن يسلم إليه مدينة همدان، والقلاع التي بيده في بلد الجبل، فامتنع من ذلك، واتهم وزيره أبا يعلى في السعي بينهما، فقبض عليه وضربه، وسمل إحدى عينيه، وقطع شفتيه، وجمع جمعًا، والتقى مع السلطان طغرلبك، وكان بينهما قتال، فانهزم إبراهيم، وسار طغرلبك في أثره، وملك جميع قلاعه وبلاده، وتحصَّن إبراهيم بقلعة سرْماج[٢]، فحصره طغرلبك بها، فملكها في أربعة أيام، وكانت من أحصن القلاع، واستذل ينال منها، وأرسل إلى نصر الدولة ابن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده، فأطاعه، وخطب له في سائر ديار بكر، وراسل ملك الروم السلطان طُغرلبك، وأرسل إليه هديّة عظيمة، وطلب منه المعاهدة، فأجابه إلى ذلك، وأرسل ملك الروم إلى ابن مروان يسعى في فداء ملك الأنجاز، فأرسل نصر الدولة إلى السلطان شيخ الإسلام أبا عبد الله بن بهران في معناه، فأطلعه بغير فداء، فعظم ذلك عنده، وعند ملك الروم، وأرسل إليه هدايا عظيمة، فقيل: إنه أرسل إليه ألفَ ثوبٍ من الديباج، وخمسمائة ثوب من

---

(١) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد من نواحي أرمينية الرابعة... (معجم البلدان).

(٢) سرماج: قلعة حصينة بين همذان وخوزستان في الجبال كانت لبدر بن حسنويه الكردي... (معجم البلدان).

أصناف الحرير، وخمسمائة رأس من الكراع[١]، إلى غير ذلك، وأنفذ إليه مائتي ألف دينار، ومائة لبنة من الفضة، وثلاثمائة مهرى، وثلاثمائة حمار مصرية، وألف عنز بيض الشعور، سود العيون والقرون، وأنفذ إلى البزمرون عشرة أمناء مسكًا، وعَمرَ مسجد القسطنطينية، الذي بناه مسلمة بن عبد الملك، وعمر منارته، وجعل فيها القناديل، وعلّق في محرابه قوسًا، ونشّابه، وأُقيمت فيه الصلاة والخطبة لطُغْرلبك، فدان له الناس حينئذ، وعظم شأنه، وتمكن ملكه، فكانت الدولة السُلجقية في زيادة، والبُويهية في نقص، قال: وأما إبراهيم ينال فإنه لما نزل إلى أخيه طغرلبك أكرمه، وأحسن إليه، وردّ عليه كثيرًا مما أخذ منه، وخيّره بين أن يقطعه بلادًا يسير إليها، وبين أن يقيم معه، فاختار الإقامة معه.

ذكر ملك طغرلبك أصفهان

كان قد حاصرها في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فلم يظفر منها بطائل، ثم اصطلح هو صاحبها أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، على مال يحمله إلى السلطان طغرلبك، ويخطب له بأصفهان، وأعمالها، ثم حصل بعد ذلك من صاحبها تلون، فكان يطيعه تارة ويعصيه تارة، ويطيع الملك الرحيم بن بويه، فجاء السلطان إليها في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، وحاصرها سنة، وتسلمها في سنة ثلاث وأربعين، واستطابها، وجعلها دار مقامه، ونقل ما كان له بالريّ من الذخائر والأموال والسلاح إليها، وخرب قطعة من سورها، وقال: إنما يحتاج إلى الأسوار من تضعف قدرته، وأما من حصنه عساكره وسيفه، فلا حاجة به إليها.

ذكر استيلاء ألب أرسلان على مدينة فسا

وفي سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة سار ألب أرسلان بن داود جغري بك من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس، وأخذ في مسيره على المفازة من غير علم عمه طغرلبك، فوصل إلى مدينة فسا[٢]، فانصرف النائب بها من بين يديه، ودخلها ألب أرسلان، وقتل من الديلم نحو ألف رجل، وعددًا كثيرًا من العامة، ونهبوا ما مقداره ألف ألف دينار، وأسر ثلاثة آلاف إنسان، وعاد إلى خراسان، ولم يلبث مع عمه طغرلبك. والله أعلم بالصواب.

---

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٢) فسا: بالفتح والقصر: مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل.

ذكر استيلاء طغرلبك على أذربيجان، وغزو الروم

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة سار السلطان طغرلبك إلى أذربيجان، فقصد تبريز[١]، وصاحبها الأمير أبو منصور وهشوذان بن محمد الراوي، فأطاعه، وخطب له، وحمل إليه ما أرضاه، وأعطاه ولده رهينة، وكذلك فعل معه سائر ملوك تلك النواحي، بذلوا له الطاعة والخطبة، وانقاد العساكر إليه، فأبقى بلادهم عليهم، وأخذ رهائنهم، وسار إلى أرمينية، وقصد «ملازكرد» من الروم، فحصرها، ونهب ما جاورها من البلاد، وخرّبها، وأثر في بلاد الروم أثارًا عظيمة، ونال منهم من النهب والأسر والقتل شيئًا كثيرًا، ثم عاد إلى أذربيجان عند دخول الشتاء، وعاد إلى الريّ، والله أعلم.

ذكر دخول السلطان طغرلبك إلى بغداد والخطبة له بها، وانقراض الدولة البويهية

كان دخوله إليها يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان سببُ ذلك أن المظفَّر أبا الحارث ألب أرسلان التركي، المعروف بالبساسيري، عظم أمره بالعراق، وطار اسمه في الآفاق، واستولى على البلاد، وعظمت هيبته في قلوب العباد، وخافه أُمراء العرب، وخطب له على منابر العراق، ولم يبق لبني بُويه معه إلا مجرَّد الاسم، ووقع بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله، من الوحشة ما قدمناه، في أخبار الدولة العباسية، حتى بلغ الخليفة أنه يريد القبض عليه، فعند ذلك كاتب الخليفة السلطان طُغرلبك، وهو بنواحي الريّ يستنصر به، ويحثه على المسير إلى بغداد، وكان طُغرلبك قد عاد إلى الريّ، بعد عوده من غزو الروم، فرتب أُمور الريّ، وعاد إلى همذان في المحرَّم من السنة، وأظهر أنه يريد الحجّ، وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة ملك المستنصر العُبيدي عنها، وسار إلى حُلوان، وانتشر أصحابه في طريق خراسان، فأجفل الناس إلى غربيِّ بغداد، وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهرها، وسمع الملكُ الرّحيم بقرب السلطان طُغرلبك من بغداد، فأصعد من واسط إليها، وفارقه البساسيري بمراسلة الخليفة في معناه، كما ذكرناه، ووصل الملك الرحيم إلى بغداد، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان، فأنكروا ذلك

---

(١) تبريز: بكسر أوله وسكون ثانيه، وكسر الراء، وياء ساكنة، وزاي: هي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية.

ونفروا منه، وراسلوا الخليفة، وقالوا: إنا فعلنا بالبساسيري ما فعلناه، وهو كبيرنا ومقدمنا اتباعًا لأمر أمير المؤمنين، ووعدنا أمير المؤمنين برد هذا الخصم، ونراه قد قرب منا، ولم يُمنع من المجيء، وسألوا التقدم إليه في العود، فغُولطوا في الجواب، وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه، ويختار انقراض الدولة البويهية، ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يظهر العبودية، وسأل تقرير قاعدته مع طغرلبك، وكذلك سأل من معه من الأمراء، فأجيبوا بأن المصلحة أن تدخل الأجناد خيامهم، من ظاهر بغداد، وينصبوها بالحريم، ويرسلوا رسُولاً إلى طُغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا إلى ذلك، وراسلوه، فأجابهم إلى ما سألوه، ووعدهم الإحسان إليهم، وتقدم الخليفة إلى الخطباء بجوامع بغداد بالخطبة للسلطان طغرلبك، فخطب له لثمان بقين من شهر رمضان من السنة، وأرسل طُغرلبك يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له، وخرج وزير الخليفة، ورؤساء بغداد وأعيانها، وأمر الملك الرحيم للقائه، واستحلفه الوزير للخليفة، وللملك الرحيم، ودخل بغداد في يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان، ونزل بباب الشماسية ومعه ثمانية عشر فيلاً، ودخل عسكره بغداد للامتيار[1]، وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم، فلما كان الغد، وهو يوم الثلاثاء، جاء بعض العسكر إلى باب الأزج، وأخذوا واحدًا من أهله، فطلبوا منه تبنًا، وهو لا يفهم عنهم ما يريدون، فاستغاث عليهم، وصاح العامة لهم، ورجموهم، وسمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرلبك، فارتج البلد من أقطاره وأقبلوا من كل جهة، وقتل من الغز من وجد في محال بغداد إلا أهل الكرخ، فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز بأذية بل حموهم، وخرج عامّة بغداد، ومعهم جماعة من العسكر، يقصدون العسكر السلطاني، ولم يركب الملك الرحيم، ودخل أعيان أصحابه إلى دار الخليفة، وأقاموا بها نفيًا للتهمة عن أنفسهم، ظنًا منهم أن ذلك ينفعهم، وأما عسكر السلطان طغرلبك، فإنهم لما رأوا فعل العامّة وظهورهم من البلد قاتلوهم، ففل من الفريقين خلق كثير، وانهزمت العامة، ونهب الغز بعض الدروب، ونقل الناس أموالهم إلى باب النوبى، وأرسل طغرلبك من الغز إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأصحابه، ويقول: «إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور تيقَّنْتُ أن الذي جرى كان بوضعهم»، فتقدم الخليفة إلى الملك الرحيم وأصحابه يقصد

(١) الامتيار: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

السلطان، فركبوا إليه، وأرسل الخليفة معهم رسولاً يبرئهم عند السلطان، فلما وصلوا إلى جهة السلطان، أمر بالقبض على الملك الرحيم ومن معه، فقبضوا كلهم في آخر شهر رمضان، وحبسوا، ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان[١]، وأرسل الخليفة إلى السلطان ينكر ما جرى، من قبض الملك الرحيم وأصحابه ونهب بغداد، ويقول: «إنهم خرجوا إليك بأمري، وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أُفارق بغداد»، فأطلق بعضهم، وأخذ جميع إقطاعات عسكر الملك الرحيم، وأُمرهم بالسعي في أرزاق يحصّلونها لأنفسهم، فتوجَّه كثير منهم إلى البساسيري، ولزموه، فكثر جمعه، وكان من أمره ما قدمناه وأمر طُغْرلبك بأخذ أموال الأتراك البغداديين وانتشر الغز في سواد بغداد، فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل[٢]، ومن الجانب الشرقي إلى النهروانات وأسافل الأعمال، فأسرفوا في النهب حتى بلغ ثمن الثور ببغداد خمسة قراريط إلى عشرة، والحمار بقيراطين إلى خمسة، وخرب السواد، وأجلي أهله عنه، وضمن السلطان طغرلبك البصرة، والأهواز من هزارسب بن تَنْكر بن عياض بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار، وأقطعه أرّجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز، دون الأعمال التي ضمنها، وأقطع الأمير أبا علي بن أبي كاليجار الملك قرميسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذّنوا في مساجدهم سحرًا للصبح: «الصلاة خير من النوم»، وأمر بعمارة دار الملك، فعمرت وزيد فيها، وانتقل إليها في شوال.

ذكر مسير السلطان إلى الموصل

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة سار السلطان طغرلبك إلى الموصل؛ وسبب ذلك، أنه لما أقام ببغداد عمّ الناس ضرر عسكره، وضاقت عليهم أرزاقهم ومنازلهم، فأرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله يذكر له ما الناس فيه من الجور والظلم، ويعظه، ويقول: إن أزلتَ ذلك وإلا فتُعين الخليفة على الانبراح من بغداد، فقال السلطان لوزيره الكندري: «بكِّرْ إلى الخليفة واعتذر له بكثرة العساكر والعجز عن تمهيدهم، وضبطهم، فلما كان تلك الليلة رأى السلطان في منامه رسول الله ﷺ وكأنه عند الكعبة وهو يسلّم على النبيّ ﷺ، والنبيّ معرض عنه، وقال: يُحكِّمُك الله في بلاده وعباده،

---

(١) سيروان: بكسر أوله وآخره نون: بلد بالجبل، وقيل: السيروان: كورة بالجبل وهي كورة ماسبذان.. وقيل: بل هي كورة برأسها ملاصقة لماسبذان.. والسيروان: من قرى نسف... وسيروان: موضع بفارس... (معجم البلدان).

(٢) النيل: بكسر أوله في مواضع: أحدها بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد.

فلا تراقبُه فيهم، ولا تستحيي من جلالة الله عزّ وجل، في سوء معاملتهم، وتغتر بإمهاله عند الجور عليهم، فاستيقظ فَزِعا، وأحضر عميد الملك الوزير، وذكر له ما رآه، وأرسله إلى الخليفة يعرفه أنه مقابل ما رسم به بالسمع والطاعة، وأخرج الجند من دُور العامّة، وأمر أن يظهر من كان مُخْتفيًا، وأزال التوكيل عمَّن كان وكل به، وعزم على الرحيل، وأتاه خبر البساسيري، والوقعة التي كانت بينه وبين قريش بن بدران، صاحب الموصل، على ما قدمناه في أخبار القائم بأمر الله، فتجهز، وسار عن بغداد، في عاشر ذي الحجة من السنة، ومعه خزائن السلاح والمجانيق، وكان مقامُه ببغداد ثلاثة عشر شهرًا وأيامًا، لم يلقَ الخليفة فيها، وسار إلى البوازيج[١] وأقام بها حتى أتاه ياقوتي بالعساكر، في سنة سبع وأربعين، فسار بهم إلى الموصل، وسيّر هزارسب بألف فارس اختارهم من العسكر، فدخَل البرية، وأوقع بالعرب، وعاد إلى السلطان، فعندها أرسل نور الدولة دبيس بن مزيد، وقريش بن بدران صاحب الموصل، يسألان هزارسب أن يتوسط لهما عند السلطان طُغرلبك، فسعى في ذلك، فأجابه إليه في حقهما دون البساسيري، فتوجَّه البساسيري عند ذلك إلى الرَّحْبة[٢]، وتبعه الأتراك البغداديون، ومقبل بن المقلد، وجماعة من عقيل، ثم سار السلطان إلى ديار بكر، التي هي لابن مروان، ووصل إلى جزيرة ابن عمر، فأرسل إليه ابن مروان يذكر ما هو بصدده من حفظ ثغور المسلمين، وما يعانيه من مجاهدة الكفار، وبذل ما يصلح، ثم وصل إبراهيم ينال إلى السلطان، فلما وصل أرسل هزارسب إلى نور الدولة بن مزيد، وقريش، يعرِّفهما وصوله، ويحذرهما منه، فسار من جبل سنجار إلى الرحبة، فلم يلتفت البساسيري إليهما، فانحدر نور الدولة إلى بلد العراق، وأقام قريش عند البساسيري بالرحبة، وشكى قتلمش ابن عم السلطان ما لقي من أهل سنجار في العام الماضي، عند انهزامه من البساسيري، وأنهم قتلوا رجاله، فسيَّر العساكر إليهما، فصعد أهل سنجار على السور، وسبّوا السلطان، وأخرجوا جماجم القتلى وقلانسهم، وجعلوها على القصب، ففتحها السلطان عنوة، وقتل أميرها عليَّ بن مرحا، وخلقًا كثيرًا من رجالها، وسبى نساءهم، وسأل إبراهيم ينال في الباقين، فتركهم السلطان، وسلَّمها هي والموصل إلى أخيه إبراهيم ينال. والله أعلم بالصواب.

---

(١) البوازيج: بلدة قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.

(٢) الرحبة: بضم أوله وسكون ثانيه، وباء موحدة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة. . . (معجم البلدان).

ذكر عودة السلطان إلى بغداد

قال: وكان عوْد السلطان إلى بغداد، في سنة تسع وأربعين، فخرج رئيس الرؤساء إلى لقائه، وأبلغه سلام الخليفة، واستيحاشَه، فقبّل الأرض، وقدم رئيس الرؤساء جامًا من ذهب فيه جواهر، وألبسه فرجية[١] جاءت معه من عند الخليفة، فلبسها، ووضع العمامة على مخدّته، فقبّل السلطان الأرض، ولم يمكن أصحابه من النزول في دور الناس، وطلب الاجتماع مع الخليفة فأذن له في ذلك، وجلس الخليفةُ يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة من السنة جلوسًا عامًا، وحضر وجوهُ عسكر السلطان، وأعيان بغداد، وحضر السلطان والخليفة جالس على سريرٍ عالٍ من الأرض، نحو سبعة أذرع، وعليه بُردة النبيّ ﷺ، وبيده القضيب الخيزران، فقبّل السلطان الأرضَ ويد الخليفة، وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامد لفعلك، مستأنِس بقربك، وقد ولاّك جميع ما ولاّه الله من بلاده، ورد إليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاّك، واعرِف نعمتَه عليك في ذلك، واجتَهد في نشر العدل، وكفْ الظلم، وإصلاح الرعية، فقبَّل الأرض، وأمر الخليفةُ بإفاضة الخِلَع عليه، فقام إلى موضع لَبسها فيه، وعاد فقبّل يد الخليفة، ووضعها على عينيه، وخاطبه الخليفة بملكِ المشرق والمغرب، وأعطى العهد، وخرج، فأرسل إلى الخليفة هدية كبيرة، منها خمسون ألف دينار، وخمسون مملوكًا أتراكًا، من أجود ما يكون بخيولهم وسلاحهم، وغير ذلك من الثياب، وغيرها.

ذكر مفارقة إبراهيم ينال الموصل
وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي سنة خمسين وأربعمائة فارق إبراهيم ينال الموصل، وتوجه نحو بلاد الجبل، فنَسب السلطان رحيله إلى العصيان وأرسل إليه يستدعيه، وبعث الفرجية التي خلعها عليه الخليفة، وكتب الخليفةُ أيضًا إليه كتابًا، فرجع إبراهيم إلى السلطان، وهو ببغداد، فخرج الوزير الكندري لاستقباله، وأرسل الخليفة إليه الخِلَع، ولما فارق إبراهيم الموصل استولى عليها البساسيري، كما قدمناه، فسيّر السلطان إليها جريدة في ألفي فارس، وكان قد فرق عساكره بسبب النوروز، فارقها البساسيري ومن معه، فسار

(١) الفرجيّة: ثوب واسع طويل الأكمام يتزيا به علماء الدين.

السلطان إلى نصيبين، ليتبع آثارهم، ويخرجهم من البلاد، ففارقه أخوه إبراهيم ينال، وسار نحو همذان، فوصل إليها، لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة، وقد قيل: إن المستنصر كاتبه، وكاتب البساسيري، وأطمعه في السلطنة والبلاد، ففعل ذلك، وسار السلطان في أثَره، وهو في قلَّة من العسكر، وكان إبراهيم قد اجتمع له كثير من الأتراك، وحلف لهم أنه لا يصالح أخاه طُغرلبك، ولا يكلِّفهم المسير إلى العراق، فلم يقو السلطان له، وأتى إلى إبراهيم محمد، وأحمد ابنا أخيه أرتاش في خلق كثير، فازداد بهم قوة، وازداد طغرلبك ضعفًا، فانزاح بين يديه إلى الريّ، وكاتب ألب أرسلان، وياقوتي وقاورد بك أولاد أخيه، وكان داود قد مات على ما نذكره، وملك بعده ابنه أرسلان خراسان، واستدعاهم، فقدموا إلى عمّهم طغرلبك بالعساكر الكثيرة، فلقي إبراهيم بالقرب من الريّ، فانهزم إبراهيم، ومن معه، وأُخذ أسيرًا هو، ومحمد، وأحمد ابنا أخيه، فأمر السلطان به، فخنق بوتر قوسه في تاسع جُمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين، وقتل ولدي أخيه، وفي أثناء هذه السنة عند اشتغال السلطان طغرلبك بحرب أخيه إبراهيم، استولى البساسيري على بغداد، وأخرج الخليفة منها، وكان ما قدمناه في أخبار القائم بالله، وكان إبراهيم ينال قد خرج على أخيه مرارًا، وهو يقدِرُ عليه، ويعفو عنه، وإنما قتله في هذه الواقعة لأنه علم أن الذي جرى على الخليفة كان بسببه، ولما فرغ طغرلبك من أمر أخيه، عاد إلى العراق، وأعاد الخليفة إلى بغداد، وكان ما قدمناه من مقتل البساسيري.

ذكر وفاة جغري بك داود صاحب خراسان، وملك ابنه ألب أرسلان

كانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى وخمسين، وقيل في صفر سنة اثنين وخمسين وأربعمائة، وعمره نحو سبعين سنة، كان له خراسان، وكان حسن السيرة معترفًا بنعمة الله عليه، شاكرًا عليها؛ فمن ذلك أنه أرسل إلى طغرلبك مع عبد الصمد[١] قاضي سرخس، يقول: قد بلغني إخرابُك للبلاد التي فتحتها وملكتها، وجلاء أهلها عنها، وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر الله تعالى، في بلاده وعباده، وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة، وإيحاش الرعية، وقد علمت أننا لقينا أعداءنا،

(١) هو ابن المأمون أبو الغنائم عبد الصمد بن علي بن محمد الهاشمي العباسي البغدادي... كان ثقة نبيلًا مهيبًا تعلوه سكينة ووقار. توفي سنة ٤٦٥هـ وله تسع وثمانون سنة، سمع جده أبا الفضل بن المأمون والدارقطني وجماعة... (شذرات الذهب ٣١٩:٣).

ونحن في ثلاثين رجلًا، وهم في ثلاثمائة، فغلبناهم، ثم كنا في ثلاثمائة، وهم في ثلاثة آلاف، فغلبناهم، ثم كنا في ثلاثة آلاف، وهم في ثلاثين ألفًا، فدفعناهم، وقاتلنا بالأمس شاه ملك، وهو في أعداد كثيرة فقهرناه، وأخذنا مملكته بخوارزم، وهرب بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به، وأسرناه، وقتلناه، واستولينا على ممالك خراسان، وسجستان، وصرنا ملوكًا متبوعين، بعد أن كنا أصاغر تابعين، وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها بهذه المقابلة، فقال طُغرُلبك: قل له في الجواب: يأخي أنت ملكت خراسان، وهي بلاد عامرة، فخربتها، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتُها، وأنا وردتُ بلادًا أخربها من تقدمني، واجتاحها من كان قبلي، فما أتمكن من عمارتها، والأعداء حيطة بها، والضرورة تقود إلى طرْقها بالعساكر، فلا يمكن دفع مضرتهم عنها.

ولداود مناقب كثيرة، وكان له من الأولاد: ألب أرسلان، وياقوتي، وسليمان، وقاورد بك. ولما مات ملك بعده ابنه ألب أرسلان، وتزوج طغرلبك بزوجة أخيه داود، وهي والدة سليمان، ووصّى له بالملك بعده، وفي سنة اثنين وخمسين توفيت زوجة السلطان طغرلبك، فوجد[1] عليها وجدًا شديدًا، ونقل تابوتها إلى الريّ.

ذكر زواج السلطان طغرلبك بابنة الخليفة

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة عقَد السلطان طغرلبك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وكانت الخِطبة تقدَّمت في سنة ثلاث وخمسين، مع أبي سعيد قاضي الريّ، فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمد التميمي، وأمره أن يستعفي، فإن أعفي والاكم الأمر، على أن يحمل السلطان ثلاثمائة ألف دينار، ويسلم «واسط» وأعمالها، فلما وصل إلى السلطان ذَكَر لعميد الملك الكندري الوزير ما ورد فيه من الاستعفاء، فقال: لا يحسن أن يردَّ السلطان، وقد سأل وتضرَّع، ولا يجوز أيضًا مقابلتهُ بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما يطلب منه، فقال له التميمي: الأمر لك، ومهما فعلته فهو الصواب. فبُنِي الأمر على الإجابة، وطالع به السلطان، فسرّ به وجمع الناس، وعرفهم أن همَّته قد سمت إلى الاتصال بهذه الجهة النبوية، وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك، وتقدَّم إلى الوزير عميدِ الملك أن يسير، معه أرسلان خاتون ابنة أخيه داود، وهي زوجة الخليفة القائم بأمر الله، وأن يصحبها مائة ألف دينار برسم الجمل، وما شاكلها من الجواهر، وغيرها، ووجه معه فرامرز بن

(١) وجد عليها: حزن.

كاكويه، وغيره من وجوه الأمراء، وأعيان الريّ، فلما وصلوا امتنع الخليفة من الإجابة، وقال: إن أعفينا، وإلا خرجنا من بغداد، فقال عميد الملك: «كان الواجب الامتناع من غير اقتراح وعد الإجابة إلى ما طلب، فالامتناع سعي على دمي»، وأخرج خيامه إلى النهروان فاستوقفه قاضي القضاة، والشيخ أبو منصور بن يوسف فانهيا إلى الخليفة عاقبه انصرافه، فكتب الخليفة إلى عميد الملك يقول: نحن نرد الأمر إلى رأيك، ونعوِّل على أمانتك ودينك، فحضر يومًا عند الخليفة، ومعه جماعة من الأمراء، والحجّاب، والقضاة والشهود، فتكلم، وقال للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين، التطوّل بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب ليعرفه الجماعة، فغالطه، وقال: قد سطر في المعنى ما فيه كفاية، فانصرف عميد الملك، ورحل في السادس والعشرين من جُمادى الآخرة، وأخذ المال معه إلى همذان، فكتب السلطان إلى قاضي القضاة، وإلى الشيخ أبي منصور بن يوسف يعتب، ويقول: هذا جزائي من الخليفة الذي قتلتُ أخي في خِدمته، وأنفقت مالي في نُصرته، وأهلكت خواصِّي في محبته، وأطال العتاب، فعاد الجواب بالاعتذار، وطلب السلطان طغرلبك ابنة أخيه زوجة الخليفة؛ لتعاد إليه، وجرى ما كاد يقضي إلى الفساد الكلي، فلما رأى الخليفة شدّة الأمر أذن في ذلك، وكتب الوكالة باسم عميد الملك الوزير، وكان العقد في شعبان سنة أربع وخمسين بظاهر تبريز، وهذا ما لم يجْرِ مثله، فإن بني بويه مع تحكّمهم على الخلفاء ما طمعوا بمثل هذا، وحمل السلطان أموالاً كثيرة، وجواهر نفيسة للخليفة، ولولي العهد، وللجهة المطلوبة، ولوالدتها، وغيرهم.

ذكر وصول السلطان إلى بغداد ودخوله بابنة الخليفة

وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة في المحرم توجه السلطان طغرلبك من أرمينية إلى بغداد، وأراد الخليفة أن يستقبله، فاستعفى من ذلك، ووصل عميد الملك إلى الخدمة، وطالب بالجهة، فقيل له: خطك موجود بالشرط، وأن المقصود بهذه الوصلة التشريف لا الاجتماع، وإنه إن كانت مشاهدة، فتكون في دار الخلافة، فقال للخليفة: السلطان يفعل هذا، ولكن يفرد له من الدور والمسكن ما يكفيه، ومن خواصّه، وحجابه، ومماليكه، فإنه لا يمكنه مفارقتهم، فحينئذ نُقِلت إلى دار المملكة في منتصف صفر، وجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان إليها، وقبّل الأرض، وخدمها، ولم يكشف الخمار عن وجهها، ولا قامت هي له، وحمل لها أشياء كثيرة من الجواهر، وغيرها، وبقي يحضر في كل يوم، ويخدم، وينصرف، وعُمل السِّماط عدّةَ أيام، وخلع على عميد الملك، وجميع الأمراء.

ذكر وفاة السلطان طغرلبك وشيء من سيرته

كانت وفاته بالريّ في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وكان قد سار من بغداد في شهر ربيع الأول إلى بلد الجبل، ومعه أرسلان خاتون ابنة أخيه داود، وهي زوجة الخليفة لأنها شكت إليه اطِّراح الخليفة لها، واتفق مرضه، فمات، ونقل إلى مرو، ودفن عند قبر أخيه داود، وكان عمره سبعين سنة تقريبًا، ومدة ملكه منذ خطب له بنيسابور في شعبان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وإلى أن توفي سبعة وعشرين سنة، وأيامًا، ومنذ ملك بغداد سبع سنين، وأحد عشر شهرًا، واثنا عشر يومًا، وكان عاقلاً حليمًا من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتمانً لسره، وكان يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنين، والخميس، وكان ملبسُه البياض إلا أنه كان فيه ظلم وقساوة، وكان أصحابه يغصبون الناس أموالَهم، وأيديهم مطلقة في ذلك، فلا يمنعهم، وكان عقيمًا لم يولد له.

وزراؤه: أول من وزر له أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني في سنة ست وثلاثين وأربعمائة، ثم وزر بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك أبو نصر الكندري[1]، وهو أشهر وزرائه، وإنما اشتهر دون غيره من وزرائه؛ لأن السلطان طغرلبك عظمت دولته في وزارته، وملك العراق، وخطب له بالسلطنة، وقد تقدم من أخبار هذا الوزير ما يدل على تمكنه، والله أعلم.

ذكر أخبار السلطان عضد الدولة

هو ألب أرسلان أبو شجاع محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجق، وهو الثاني من ملوك الدولة السلجقية، ومعنى اسمه رجل أسد، واللام والباء في ألب مفخمتان. ملك خراسان بعد وفاة أبيه داود في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وقيل في صفر سنة اثنتين وخمسين، وملك العراق وغيره بعد وفاة عمه السلطان طغرلبك في سنة خمس وخمسين، وكان طغرلبك قد نصَّ على تولية سليمان ابن أخيه داود أخي ألب أرسلان لأن أمه كانت عنده، فتبع هواها فيه، فلما مات السلطان طغرلبك نفَذ الوزير عميد الملك وصيته فيه، وأجلس سليمانَ في السلطنة،

---

(١) هو أبو نصر محمد بن منصور بن محمد، الملقب عميد الملك الكندري، كان من رجال الدهر جودًا وسخاءً وكتابة وشهامة. . . (وفيات الأعيان ٥:١٣٨).

فاختلف الأمراء عليه، ومضى بعضهم إلى قزوين، وخطب لعضد الدولة، فلما رأى عميدُ الملك فساد الحال، وميلَ الناس إلى عضدُ الدولة، أمر بالخطبة له بالريِّ، ثم من بعده لسُليمان، وما اتصل بألب أرسلان الخبر بوفاة عمه جمع العساكر، وسار نحو الريّ، فلما قرب منها خرج إليه الوزير عميد الملك، وأظهر طاعته، واستقرت السلطنة له بمفرده.

ذكر القبض على عميد الملك الوزير وقتله

قال: ولما استقر ملك عضد الدولة، قبض على الوزير عميد الملك الكندري، وسبب ذلك أنه لما رأى ميل الناس إليه، وانقيادهم لأمره خافه، فأمر بالقبض عليه، وأنفذه إلى مرو الروذ، واعتقله بها سنة، ثم أمر بقتله، وكان هذا الوزير كثير البغض للشافعي وأصحابه، وكان خصيًّا خصاه طغرلبك لأنه أرسله يخطب له امرأة، فتزوَّجها، وعصى عليه، فلما ظَفِر به خصاه، وأقره على خدمته، وقيل: بل أعداؤه أشاعوا عنه أنه تزوَّجها، فخصى نفسه ليبرأ مما قيل فيه. قال المؤرخ: ومن العجب أن ذكره دفن بخوارزم لما خصي، ودمه مسفوح بمرو، وجسده مدفون بِكُنْدر[١]، ورأسه ما عدا قحفه[٢] مدفون بنيسابور، ونقل قحفه إلى كرمان، ولما عرض على القتل، قال لقاتله: قل لنظام الملك بئسما عودت الأتراك قتل الوزراء، وأصحاب الديوان، قال: ولما قبض السلطانُ ألب أرسلان على الوزير عميد الملك أمر بعودة ابنة الخليفة إلى بغداد، وأعلمها أنه ما قبض عليه إلا لكونه نقلها من بغداد إلى الريّ بغير رضا الخليفة، وأمر الأمير أيتكين السليماني بالمسير في خدمتها والمقام شحنة ببغداد، وأنفذ أبا سهل محمد بن هبة المعروف بابن الموفق، وأمره بالسير في الصحبة، ومخاطبة الخليفة في الخطبة له، فمات بالجدري قبل وصوله، فأرسل العميد أبا الفتح بن المظفر بن الحسين، فمات أيضًا في الطريق، فأرسل رئيس العراقيين، فوصل إلى بغداد في نصف شهر ربيع الآخر، واقترح السلطان أن يخاطب: بالولد المؤيد، فأجيب إلى ذلك، ولقب ضياء الدين عضد الدولة، وجلس الخليفة جلوسًا عامًا في سابع جمادى الأولى، وشافه الرسل بسلطنة ألب أرسلان، وسلمت الخلع

---

(١) كندر: موضعان أحدهما قرية من نواحي نيسابور من أعمال طريثيث... وكندر أيضًا: قرية قريبة من قزوين.

(٢) القحف: أحد أقحاف ثمانية تكون علبة عظمية هي الجمجمة، وفيها الدماغ.

عليهم، وأرسل من الديوان لأخذ البيعة النقيب طرادًا الزينبي؛ فوصلوا إليه، وهو بنَقْجُوان[١] من أذربيجان، فلبس الخلع، وبايع الخليفة.

ذكر ملك عضد الدولة ختلان، وهراة، وصغانيان

كان أمير ختلان[٢] بعد وفاة السلطان طغرلبك عصى بالقلعة، ومنع الخراج، فقصده السلطان، فوجد الحصن منيعًا، فحاصره، ثم قتل صاحب الحصن بسهم جاءه، وهو على شرفة من شرفات السور، فهلك، وملك ألب أرسلان الحصن، وكان فخر الملك بيغو بن ميكائيل في هراة، فعصى أيضًا عليه، وطمع في الملك لنفسه، فسار إليه، وحصره، وضيّق عليه، وأدام القتال ليلاً ونهارًا، فسلم المدينة، وخرج إلى ابن أخيه، فأكرمه، وسار إلى صغانيان، وأميرها موسى، وكان قد عصى عليه، فلما وصل لم ينتصف النهار حتى ملك القلعة قهرًا، وأمر قتل موسى، فبذل في نفسه أموالاً كثيرة، ثم عاد السلطان إلى مرو، ثم منها إلى نيسابور.

ذكر الحرب بين السلطان وبين شهاب الدولة قتلمش وموته

كان شهاب الدولة قُتُلْمِش بن سلجق قد عصى على طُغرُلبك، فلما مات جمع عساكره، وقصد الريّ، واستولى عليها، فسار السلطان من نيسابور في أول المحرم سنة ست وخمسين، فوصل إلى دامغان، وأرسل قتلمش يتنكر عليه، وينهاه، فأجاب بجواب غير مرض، ونهب قرى الريّ، وأجرى الماء على وادي[٣] الملح، وهي سبخة، فتعذر على السلطان سلوكها، فجاء، وخاض في الماء بعسكره، ولقيه، واقتتلوا، فلم تثبت عسكر قتلمش، ومضى هو إلى قلعة كردكوه، وكانت من حصونه، واستولى القتل والأسر على عسكره، ثم عفا السلطان عنهم بشفاعة نظام الملك، فلما سكن الغبار، ونزل العسكر، وجد قلتمش ميتًا لم يُدْر كيف كان موته، فقيل إنه مات من الخوف، فبكى السلطان لموته، وجلس لعزائه، وعظم عليه فقده، وقتلمش هذا هو جد الملوك السلجقية ملوك الروم، وكان قتلمش يعلم علم النجوم، يعلمه أولاده من بعده، فزادوا فيه، فنالهم به غضاضة في دينهم.

---

(١) نقجوان: بلد بأقصى أذربيجان.

(٢) ختلان: بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند... (معجم البلدان).

(٣) الملح: بكسر أوله: على فراسخ يسيرة من خوار الريّ والعجم يسمونه ده نمك أي قرية الملح.

ذكر فتح مدينة آني، وغيرها من بلاد النصرانية

قال: وسار ألب أرسلان من الريّ إلى أذربيجان في أول شهر ربيع الأول، وقد عزم على جهاد الروم، وغزوهم، فأتاه أمير من الروم كان يكثر غزوهم اسمه طغركين، ومعه من عشِيرته خَلق كثير قد ألفوا الجهاد، وخبروا تلك البلاد، وحثه على قصد بلاد الروم، وضمن له سلوك الطريق المستقيم، فسار معه فوصل إلى نَقْجُوان، وأمر بعمل السّفن لعبور النهر، وجمع العساكر، وسار إلى بلاد الكرج، وجعل مكانَه في عسكره ولده ملكشاه، والوزير نظام الملك، فساروا إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم، فحاصروها، فملكها المسلمون، وقُتِل أميرُها، وساروا منها إلى قلعة سمارس. وهي قلعة فيها الأنهار الجارية، والبساتين، فملكوها، وفتحوا قلعة أُخرى بالقرب منها، وشحنوها بالرجال والذخائر والأموال، والسلاح وسلم هذه القلاع إلى أمير نقجوان، ثم سار إلى مدينة مريم ونسين، وفيها كثير من الرهبان والقسوس، وملوك النصارى، وعامتهم يتقربون لأهل هذه البلد، وهي مدينة حصينة، وسورها من الحجر المبني بالرصاص والحديد، وعندها نهر كبير؛ فأعدّ نظام الملك السفن لقتال من بها، وداوم القتال ليلاً ونهارًا إلى أن يسّر الله فتحها، وأحرقوا البيع، وقتلوا كثيرًا من أهلها، وأسلم كثير، فنجوا من القتل، ثم استدعى السلطان ابنه، والوزير، فسارا إليه، ففرح بما يسّره الله من الفتح على يد مِلكشاه ابنه، وفتح عدة من الحصون في طريقه، وأسر من النصارى ما لا يُحصى كثرة، وساروا إلى سيبد سهر[1]، فجرى بين أهلها، وبين المسلمين حروب شديدة، ثم يسّر الله فتحها، وملكها السلطان، وسار منها إلى مدينة أعال لال، وهي حصينة عالية الأسوار شاهقة، وهي من جانبيها الشرقي والغربي على جبل عال، وعليه عدّة من الحصون، ومن الجانبين الآخرين نهر كبير لا يخاض، وكان ملكها من الكرج، فجرى عليها حروب عظيمة، ويسّر الله فتحها، واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فأحرقه السلطان بالنار، وغنم المسلمون من المدينة ما لا يحصى، وخرجوا إلى خيامهم، فلما جنّ الليل عصفت الريح، فاحترقت المدينة من نار البرج، وذلك في شهر رجب سنة ست وخمسين وأربعمائة، وملك السلطان قلعة

---

(١) سهر: قرية كبيرة ذات جامع مليح ومنارة من قرى أصبهان ثم من ناحية خانلنجان. . . (معجم البلدان).

حصينة كانت إلى جانب المدينة، وأخذ ما فيها، وسار منها إلى ناحية قرش[١]، مدينة آني[٢] وبالقرب منها بسل ووردہ. وجوده، فخرج أهلها مذعنين معلنين بالإسلام، وخربوا البيع، وبنوا المساجد، وسار منها إلى مدينة آني، فرآها حصينة لا تُرام. ثلاثة أرباعها على نهر أرس[٣]، والربع الآخر على نهر عميق شديد الجرية لو طرحت الحجارة فيه لحملها، والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصمّ، وهي مدينة عامرة آهلة، فحصرها، وضيّق على من بها إلا أن المسلمين أيسوا من فتحها لما رأوا من حَصَانتها، فأتى من لطف الله تعالى ما لم يكن في حساب، وانهدم من السّور قطعة كبيرة لم يعلم سبب هدْمِها، فدخل المسلمون في المدينة، وقتلوا من أهلها ما لا يُحصى كثرة، وأسروا نحوًا مما قتلوا، وسارت البشائر بهذا الفتح في البلاد، وقرىء كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة، فبرز خط الخليفة بالثناء على ألب أرسلان، والدعاء له، فرتب السلطان بالمدينة أميرًا في عسكر جرار، وعاد عنها، وقد راسله ملك الكرج في الهدنة، وصالحه على أداء الجزية في كل سنة، وعاد السلطان إلى أصفهان، وكرمان، ثم إلى مرو، وزوّج ابنة مَلِكشاه بابنة خاقان ملك ما وراء النَهر، وزُفت إليه في هذه السنة، وزوّج ابنه أرسلان شاه بابنة صاحب غزنة، فاتحد البيت السلجقي والمحمودي، واتفقت الكلمة.

وفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة ابتدىء بعمارة المدرسة النظامية ببغداد، وكملت عمارتها في سنة تسع وخمسين، وتقرر التدريس بها للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، فلما اجتمع الناس لحضور الدروس طُلب، فلم يوجد، وكان سببُ تأخره أنه لقيه صبيّ، فقال: «كيف تدرس في مكان مغصوب؟»، فلم يحضر، فلما أيس الناس من حضوره درس بها أبو نصر الصبّاغ[٤] صاحب كتاب الشامل، ثم تلطف نظام الملك بالشيخ أبي إسحاق، حتى درَّس بها بعد عشرين يومًا.

---

(١) لعلها: قرص (كما في معجم ياقوت): مدينة بأرمينية من نواحي تفليس.

(٢) آني: بالنون المكسورة: قلعة حصينة ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة.

(٣) نهر أرس، أو نهر الرس، ويخرج من أقاصي بلاد الروم.

(٤) هو أبو نصر عبد السيد ابن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر، المعروف بابن الصباغ، الفقيه الشافعي... وكان تقيًا حجة صالحًا، ومن مصنفاته كتاب «الشامل» في الفقه، وهو من أجود كتب أصحابنا، وأصحها نقلًا وأثبتها أدلة. وله كتاب «تذكرة العالم والطريق السالم» و«العدة» في أصول الفقه... (وفيات الأعيان ٣:٢١٧).

ذكر تقرير ملكشاه في ولاية العهد بالسلطنة من بعد أبيه وتقرير البلاد باسم أولاد السلطان وإخوته

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة سار السلطان ألب أرسلان من مرو إلى أرزكان، ونزل بظاهِرها، ومعه جماعة من أمراء دوْلته، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لولده ملكشاه بأنه السلطان من بعده، وركبه، ومشى بين يديه يحمل الغاشية[١]، وخَلع السلطان على جميع الأمراء، وأمر بالخطبة له في جميع بلاده، وأقطع البلاد: ومازندران للأمير أينانج بيغو، وبلخ لأخيه سليمان بن داود جغري بك، وخوارزم لأخيه أرسلان أرغو ومرو لابنه أرسلان شاه، وصغانيان وطخارسان لأخيه إلياس، وولاية بغْشُور[٢]، ونواحيها لمسعود بن أرتاش، وهو من أقارب السلطان.

ذكر عصيان ملك كرمان، وعوده إلى الطاعة، وطاعة حصون فارس

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة عصى قرا أرسلان ملك كرمان على السلطان، ونزع الطاعة، وسبب ذلك أن وزيره حسّن له هذا الفعل، فظن أنه يقدر على الاستبداد بالأمر، فسار السلطان ألب أرسلان إليه، والتقت مقدمته بمقدمته، فانهزم أصحاب قرا أرسلان بعد قتال، وسار لا يلوي على شيء، فوصل إلى قلعة، وامتنع بها، وراسل السلطان في طلب الأمان، وبذل الطاعة، فأمّنه، وحضر إليه، فأكرمه، وأعاده إلى مملكته، فقال قرا أرسلان للسلطان: إن لي بنات، وقد جعلت أمرهُنَّ إليك، وتجهيزهن، فأعطى السلطان إلى كل واحدة منهن مائة ألف دينار سوى الثياب، ثم سار السلطان منها إلى فارس، فوصل «إصطخر»[٣]، وفتح قلعتها، واستنزل واليها، فحمل إليه الوالي هدايا عظيمة جليلة المقدار من جملتها قدح فيروزج مكتوب عليه اسم جمشيد الملك، وأطاعه جميع حصون فارس، وبقيت قلعة هناك يقال لها: بهبزاذ، فسار نظام الملك إليها، وحصرها، ففتحها في اليوم السادس عشر من منازلتها، ووصل السلطان إليها بعد الفتح، فعظم محل نظام الملك عنده، وعلت منزلته، وزاد في تحكمه، والله أعلم بالصواب.

---

(١) الغاشية: كسية توضع على السرج لتغطيته حين يترجل الراكب، وكانت امتيازًا يمنح للعظماء.

(٢) بغشور: بضم الشين المعجمة، وسكون الواو، وراء: بليدة بين هراة ومرو الروذ... ويقال لها بغ أيضًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) إصطخر: هي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها... (معجم البلدان).

ذكر إقامة الخطبة بحلب

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة خطب تاج الملوك محمود بن نصر بن مرداس بحلب للخليفة القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان، وسبب ذلك أنه لما رأى انتشار الدولة السلجقية، وقوتها، وإقبالها، جمع أهل حلب، وقال: هذه دولة جديدة، ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه ذلك، فأجاب مشايخ البلد، ولبس المؤذنون السواد، وخطب لهما، فأخذت العامة حُصر الجامع، وقالوا: هذه حصر علي بن أبي طالب، فليأت أبو بكر بحصر يصلّي عليها بالناس، وأرسل الخليفة: إلى محمود الخِلع مع نقيب النقباء طِراد بن محمد الزينبي، والله أعلم.

ذكر استيلاء السلطان على حلب

وفي سنة ثلاث وستين أيضًا سار السلطان إلى حلب، وجعل طريقه على ديار بكر، فخرج إليه صاحبُها نصر بن مروان، وخدمه بمائة ألف دينار، وحمل إليه إقامة بلغ السلطان أنه بسطها على البلاد فأمر بردِّها، ووصل إلى آمد، فرآها ثغرًا منيعًا، فتبرك به، وجعل يمر بيده على السور، ويمسح بها صدره، وصار إلى الرُّها، فحصرها، فلم يظفر منها بطائل، فسار إلى حلب، فسأل صاحبها محمود نقيب النقباء رسول الخليفة أن يخرج إليه، ويعلمه أنه لبس بخلع الخليفة واستعفاه من الحضور، فقال: لا بد من حضوره، وأن يبطل الأذان بحي على خير العمل، فامتنع محمود، واشتد الحصار على البلد، وغلت الأسعار، وزحف السلطان يومًا، فوقع حجر منجنيق على فرسه، فلما عظم الأمر على محمود صاحب حلب خرج ليلاً هو وأُمه، ودخلا على السلطان، وقالت له: هذا ولدي تفعل به ما تحب، فتلقاهما بالجميل، وأحسن إلى محمود، وخلع عليه، أعاده.

ذكر خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره

ولما عاد السلطان من حلب وصل إلى مدينة «خُويّ»[١] من أذربيجان، فبلغه خروج أرمانوس ملك الروم في مائتين ألوف من الروم، والفرنج والعرب المتغره،

---

(١) خويّ: بلد مشهور من أعمال أذربيجان حصن كثير الخير والفواكه، ينسب إليها الثياب الخوية. . . (معجم البلدان).

والكرج، والروس، وغيرهم من طوائف تلك البلاد، وأنه وصل إلى بلاد «خلاط»[١]، فلم يتمكن السلطان من جمع العساكر لبعدها، وقرب العدو، فسيّر أثقاله مع نظام الملك إلى همذان، وسار هو، فيمن معه من العسكر، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجدّ في السير، وجعل له مقدمة، فالتقت بمقدمة العدو، وهم عشرة آلاف فارس من الروس، فقاتلوهم، فانهزم الروس، وأسر مقدمهم، وحمل إلى السلطان، فجدع أنفه، وأرسل إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة، فأجاب: لا هدنة إلا «بالريّ»، فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ركب السلطان، وقال لأصحابه: من أراد الانصراف، فلينصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهي، وبكى، وأبكى، ورمى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض، وتحنّط، وقال: إن قتلت، فهذا كفني، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وزحف إلى الروم، وزحفوا له، فلما قاربهم ترجّل، وعقر وجهه في التراب، وبكى، وأكثر من الدعاء، ثم ركب وحمل، فأعطى الله النصر للمسلمين، فقتلوا من العدو ما لا يحصى كثرة، وأسر ملك الروم، أسره بعض غلمان كوهراتين، ولم يعرفه، وأراد قتله، فقال له خدم معه: هذا الملك لا تقتله، وكان هذا الغلام قد عرض على عضد الدولة، فلم يجز عرضه استحقارًا له، فشكره كوهراتين، فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرًا، فكان كذلك، فلما أسره الغلام أحضره إلى مولاه كوهراتين، فأحضره إلى السلطان، فضربه السلطان ثلاث ضربات بالمقرعة، وقال: ألم أرسك إليك في الهدنة، فأبيت، فقال: دعني من التوبيخ، وافعل ما تريد، فقال السلطان: ما عزمت أن تغفل بي إن أسرتني؟ فقال: كنت أفعل كل قبيح، قال: فما تظن أني أفعل معك؟ فقال: إما أن تقتلني، وإما أن تشهرني في البلاد، والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبول الأموال، واصطناعي باتباعك، وقال: ما عزمت على غير هذا، ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وقطيعة في كل سنة ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار، وإطلاق كل أسير في بلاد الروم من المسلمين، وأن ينفذ إليه عساكر الروم متى طلبها، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله السلطان في خيمة، وأطلق له جماعة من أُسر من البطارقة، وخلع عليه من الغد، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وقام ملك الروم إلى جهة الخليفة، وكشف رأسه، وأومأ إلى الأرض بالخدمة، ثم جهز السلطان معه عسكرًا يوصله إلى مأمنه، وَشَيَّعه فرسخًا،

---

(١) خلاط: بكسر أوله، وآخره طاء مهملة: بلدة عامرة مشهورة. . . وهي قصبة أرمينية الوسطى. . بينها وبين غزنة مسافة أربعة أشهر. . . (معجم البلدان).

وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة، وملك البلاد، فلما وصل أرمانوس الملك إلى قلعة دوفنه، بلغه الخبر، فلبس الصوف، وأظهر الزهد، وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرر بينه وبين السلطان، فأجاب ميخائيل بإيثار ما استقر، وجمع أرمانوس ما عنده من المال، فكان مائة ألف دينار، وطَبق عليه جواهر بتسعين ألف دينار، فحمل ذلك إلى السلطان، وحلف أنه لا يقدر على غيره، ومضى أرمانوس بمن معه إلى بلاد الأرمن، فملكها، وقتل ملكها، وأرسل رأسه إلى بغداد، ودعا للسلطان بها.

ذكر ملك أتسز بيت المقدس والرملة ودمشق

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة قصد أتسز بن أوق الخوارزمي، وهو من أمراء السلطان ملكشاه، فجمع الأتراك، وسار إلى فلسطين، ففتح الرملة، وسار منها إلى بيت المقدس، وحصره، وفيه عساكر المصريين، ففتحه، وملك ما يجاورهما من البلاد ما عدا عسقلان[1]، وقصد دمشق، فحصرها، وتابع النهب لأعمالها حتى خرَبها، وقطع الميرة عنها، ولم يقدر عليها، ثم فتحها في سنة ثمان وستين وأربعمائة في سلطنة ملكشاه في خلافة المقتدي، وذلك أنه جعل يغير عليها في كل سنة، ويقصد أعمالها عند إدراك المُغَلُ، فيقوى هو وعسكره، ويضعف أهل دمشق وجندها، ثم حصر دمشق في شهر رمضان سنة سبع وستين، وأميرها يوم ذاك المعلّى بن حيْدرة من قبل المستنصر صاحب مصر، فعجز عن فتحها، فانصرف عنها في شوال، واتفق أن أميرها المعلّى أساء المسيرة مع الجند والرعية، فثار به العسكر، فهرب إلى «بانياس»، ثم منها إلى «صور»، ثم سار إلى مصر، فحبس بها حتى مات، ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة، وولوا عليهم انتصار ابن يحيى المصمودي المعروف: بزوين الدولة، واتفق وقوع غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضًا، ووقع الخلف بين المصامدة، وبين أحداث البلد، فعاد أتسز إلى دمشق، ونازلها في شعبان سنة ثمان وستين، وحصرها حتى عدمت الأقوات، فتسلمها عند ذلك بالأمان، ودخلها بعسكره في ذي القعدة، وخطب بها للمقتدي لخمس بقين من الشهر، وعوض عنها انتصار بقلعة بانياس، ومدينة «يافا» من الساحل.

---

(١) عسقلان: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم قاف، وآخره نون: وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحرين بين غزة وبين جبرين ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضًا... (معجم البلدان).

ذكر تزويج ولي العهد بابنة السلطان

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة، أرسل الخليفة القائم بأمر الله عميد الدولة ابن جهير إلى السلطان بالخلع له، ولولده ملكشاه، وأمره أن يخطب سفرى خاتون ابنة السلطان لولي العهد المقتدي بأمر الله، ففعل ذلك، فأُجيب إليه، وعقد النكاح بظاهر نيسابور، وكان عميد الدولة الوكيل في قبول النكاح، ونظام الملك الوكيل من قبل السلطان وكان النثار(١) من الجوهر..

ذكر ملك السلطان قلعة فضلون

وفي هذه السنة سيّر السلطانُ الوزير نظام الملك في عسكر إلى بلاد فارس، وكان بها حصن من أمتع حصونها، وفيه صاحبه فضلون، وهو لا يعطي الطاعة، فنازله، وحاصره، فامتنع، وقاتل، فلم تطل المدة حتى نادى أهل الحصن بطلب الأمان بغير سبب ظاهر ولا قتال، وظهر أن سبب ذلك أن جميع آبار الحصن غارت مياهها في ليلة واحدة، فأمنهم نظامُ الملك، وتسلَّم الحصن، وهرب فضلون إلى القلعة، ثم قبض عليه وجيء به إلى السلطان، فأحسن إليه، وأمته، وأطلقه.

ذكر مقتل السلطان عضد الدولة ألب أرسلان، وشيء من سيرته

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان ما وراء النهر، فعقد جسرًا على جيحون، وعبر عليه في نيف وعشرين يومًا، وكان عسكره يزيد على مائتي ألف فارس، وكان ببعض القلاع رجل خوارزمي اسمه يوسف قد عصى، وتحصَّن بالقلعة، فبعث إليه السلطان جماعة، فحاصروه، وأخذوه، وأتوا به إلى السلطان، فأمر أن تضرب له أربعة أوتد، وتُشدَّ أطرافُه إليها، فقال يوسف: يا مخنَّث، مثلي يقتل هذه القتلة؟ فغضب لذلك، وأخذ القوس والنَشاب، ورماه ثلاث مرَّات، وهو يخطىء، وكان لا يخطىء في رمْيه، فوثب يوسف، وضربه بسكّين في خاصرته، وأدركه الجند، فقتلوه، وسدّ جرح السلطان، وعاد إلى جيحون وقال: ما من وجهٍ قصدته، وعدوٌ أردته إلا استعنت بالله عليه، فلما كان بالأمس صعدت على تل؛ فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد علي، فعجزّني الله تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله، وأستقيله من هذا الخطأ، وأحضر الوزير نظام الملك، والجند، وأوصاهم بولده ملكشاه، واستحلفهم له.

---

(١) النثار: ما ينثر في حفلات السرور من حلوى أو نقود.

وتوفي في عاشر شهر ربيع الأول، وحمل إلى «مرو»، فدفن بها عند أبيه، وكان مولده في سنة أربع وعشرين، فكان عمره أربعين سنة وشهورًا، وكانت مدة ملكه منذ خطب له بالسلطنة تسع سنين، وستة أشهر، وأيامًا.

وكان كريمًا عادلاً عاقلاً لا يسمع السعايات، وكان رحيم القلب، رفيقًا بالفقراء، كثير الصدقة، تصدَّق في شهر رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق من الفقراء في جميع مملكته عليهم الإدرارات، والصلات، ولم يسمع عنه بمصادرة بل قنع بالخراج والغنائم، قيل: إن بعض السعاة كتب إليه سعاية في نظام الملك الوزير، وذكر ما له من الرسوم والأموال، وترك الرقعة على مصلاه، فقرأها، ثم سلمها إلى نظام الملك، وقال له: إن كانوا صدقوا في الذي ذكروا، فحسّن أخلاقك، وإن كانوا كذبوا فاغفر لهم زلتهم، وأشغلهم بِمُهمٍّ يشتغلون به عن السعاية بالناس، وناهيك بهذه مكرمة.

وكان له من الأولاد: ملكشاه، وتكش، وإيار، وتُتشُ، وأرسلان أرغو، وتوزي برش، وسادة، وعائشة، وبنت أخرى.

وزيره: نظام الملك.

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموته حبس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء في صحن دار السلام، وملك بعده ابنه.

ذكر أخبار السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد ابن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجق

وهو الثالث من ملوك الدولة السلجقية.

ملك بعد وفاة أبيه في عاشر ربيع الأول سنة خمس وستين وأربعمائة، وكان والده قد حلّف له العساكر كما قدمناه، وكان ملكشاه قد صحب والده في هذه السّفرة، ولم يصْحبه في سفرة غيرها، فأوصاه والده أن يعطي عمه قاورد بك بن داود أعمالَ فارس، وكِرمان، وشيئا عيّنه من المال، وأن يزوج زوجته، وكان قاورد بك بكرمان، وأوصى بأن يعطي ابنَه إياز ما كان لأبيه داود، وهو خمسمائة ألفَ دينار، وقال: من لم يرض بما أوصيتُ له به، فقاتلوه، واستعينوا على حربه بما جعلتُ له، وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر، وقد تولّى تدبير دولته الوزيرُ نظامُ الملك وزير

أبيه، فعبر النهر في ثلاثة أيام، وزاد الأجناد سبعمائة ألف دينار، وعاد إلى خراسان، وقصد نيسابور، ومنها إلى الريّ، وكتب إلى ملوك الأطراف بإقامة الخطبة له، فخطب له. والله أعلم.

ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وبين عمه قاورد بك

قال: ولما بلغ قاورد بك وفاة أخيه، وكان بكرمان قصد الريّ ليستولي على المملكة، فسبقه إليها ملكشاه ونظام الملك، وسارا منها، فالتقوا بالقرب من همذان في رابع شعبان، واقتتلوا، فانهزم قاورد بك وعسكره، ثم أُسر، وجيء به إلى السلطان، فأمر بخنقه، وأقرّ كرمانَ بيد أولاده، وسيَّر لهم الخلع، فملك سلطانُ شاه ابن قاورد بك كرمان، وفوض السلطانُ جميع أُمور دولته إلى نظام الملك الوزير، ولقبه ألقابًا من جملتها: أتابك، ومعناه: الأمير الوالد، وأقطعه إقطاعًا وافرًا زيادة على ما كان له، من جملته طوس، وأحسن السيرة، وظهر من عدله ما لا مزيد عليه، وفي سنة ست وستين وأربعمائة. في ثالث صفر. ورد كوهراتين إلى بغداد من قبل السلطان ملكشاه، فجلس الخليفة القائم بأمر الله له مجلسًا عامًا، وسلم إليه عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة واللواء، وعقده الخليفة بيده، وفيها استعاد السلطان ترمذ من خاقان تكين وكان قد غلب عليها لما مات ألب أرسلان، فلما استقامت الأمور لملكشاه حصرها، واستعادها، وأخذ منها أخ الخاقان، فأكرمه، وأطلقه، وقصد سمرقند، ففارقها صاحبها، فأرسل يطلب المصالحة، واعتذر من تعرضه إلى ترمذ، فوقع الصلح بينهما، وعاد السلطان، وأقطعه بلخ، وطخارستان لأخيه شهاب الدين تكش.

ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان

وفي شعبان سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة سار ملكشاه إلى الريّ، وعرض العسكر، وأسقط منهم سبعة آلاف رجل، فقال له الوزير نظام الملك: هؤلاء الجند لم يكن منهم كاتب، ولا تاجر، ولا خياط وليس لهم صنعة غير الجندية، ولا نأمن أن يقدموا منهم رجلًا، ويقولوا هذا السلطان، فيكون لنا منهم شغل، ويخرج عن أيدينا أضعاف مالهم من الجاري إلى أن تظفر بهم، فلم يقبل السلطان نصحه، وقطعهم، فمضوا إلى أخيه تكش، فقوي بهم، وأظهر العصيان على أخيه، واستولى على مرو الروذ، ومرو الشاهجان، وترمذ، وغيرها، وسار إلى نيسابور طمعًا في ملك خراسان، فسبقه السلطان إليها، فعاد تكش، وتحصن بترمذ، وأسر جماعة من أصحاب السلطان، فقصده السلطان، فأطلقهم، واستقر الصلح بينهما، ونزل تكش عن ترمذ، ثم عاد إلى العصيان في سنة سبع وسبعين، وأخذه السلطان وسمله.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة مات للسلطان ملكشاه ولد اسمه داود، فجزع عليه جزعًا شديدًا، ومنع من دفنه حتى تغيرت رائحته، وأراد أن يقتل نفسه، فمنعه خواصه.

ذكر قتل أبي المحاسن بن أبي الرضا

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة في شوال قتل سيد الرؤساء أبو المحاسن بن كمال الملك أبي الرضا، وكان قد قرب من السلطان ملكشاه قربًا عظيمًا، وكان أبوه يكتب الطغراء[١]، فقال أبو المحاسن للسلطان: سلّم إليّ نظام الملك وأصحابه، وأنا أحمل إليك منهم ألف ألف دينار، فإنهم يأكلون الأموال، ويقتطعونها، وعظَم عنده ذخائرهم، وأموالهم، فبلغ ذلك نظام الملك، فعمل سماطًا عظيمًا، وأقام عليه مماليكه، وهم أُلوف من الأتراك، وأقام خيلهم، وجعل سلاحهم على جمالهم، فلما حضر السلطان، قال له: إني قد خدمتك، وخدمت أباك وجدك، ولي حق خدمة، وقد بلغك أخذي لعشر أموالك، وقد صدق الناقل، هذا أنا آخذه وأصرفه إلى هؤلاء الغلمان الذين جمعتهم لك، وإلى الصدقات، والصلات، والوقوف التي عظم ذكرها، وشكرها، وأجرها لك، وأموالي وجميع ما أملكه بين يديك، وأنا أقنع بمرقعة وزاوية، فأمر السلطان بالقبض على أبي المحاسن، وأن تسمل عيناه، وأنفذه إلى قلعة نساوة، وسمع أبوه كمال الملك الخبر، فاستجار بدار نظام الملك، فسلم، وبذل مائتي ألف دينار، وعزل عن الطغراء، ورتب مكانه مؤيد الملك ابن نظام الملك المقدم ذكره.

ذكر ملك السلطان حلب وغيرها

كان سبب ذلك أن سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم فتح أنطاكية، وكان بينه وبين شرف الدولة مسلم[٢] صاحب حلب وقعة قتل فيها شرف الدولة، ثم قتل سليمان، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك الروم السلجقية،

---

(١) الطغراء: الطرّة تكتب في أعلى الكتب والرسائل فوق البسملة، تتضمن نعوت الحاكم وألقابه، وأصلها طورغاي، وهي كلمة تترية استعملها الروم والفرس ثم أخذها العرب عنهم.

(٢) هو مسلم بن قريش بن بدران شرف الدولة أمير بني عقيل، صاحب الموصل والجزيرة وحلب... وكان رافضيًا اتسعت ممالكه ودانت له العرب وطمع في الاستيلاء على بغداد... (شذرات الذهب ٣: ٣٦٢).

فلما وقع ذلك كتب ابن الحبيبي مقدم حلب إلى السلطان ملكشاه يعلمه ذلك، ويستدعيه ليتسلمها خوفًا من تتش صاحب دمشق، فسار من أصفهان في جُمادى الآخرة سنة ست وسبعين وأربعمائة، وجعل طريقه على الموصل، فوصل إليها في شهر رجب، وسار منها إلى حرّان، فسلمها إليه ابن الشاطر، فأقطعها السلطان محمد بن شرف الدولة، وسار إلى الرّها، وهي بيد الروم، فحصرها، وملكها وسار إلى قلعة جعبر، فحاصرها يومًا وليلة، وملكها، وأخذ صاحبها جعبر، وهو شيخ أعمى، وولديه، وكانت الأذية بهم عظيمة يقطعون الطريق، ويلجؤون إليها، ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب، فملك في طريقه مدينة منبج، فلما قارب حلب رحل عنها أخوه تتش، وكان قد ملك المدينة، وسلك البرية، ومعه الأمير أرتق، فأشار عليه بكبس عسكر السلطان، فامتنع، وقال لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله، فإنه يعود بالوهن عليّ، وسار إلى دمشق، ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة والقلعة بعد أن امتنع مالك بن سالم بها، ثم سلمها على أن يعوضه غيرها، فعوضه قلعة جعبر، فبقيت في يده، ويد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وأرسل الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر[١] إلى السلطان، وبذل الطاعة، وسلم إليه اللاذقية، وكفر طاب[٢]، وأفامية[٣]، فأجابه السلطان إلى المسالمة، وترك قصده، وأقر عليه شيزر، ولما ملك السلطان حلب سلمها إلى قسيم الدولة آق سنقر، وهو جد نور الدين الشهيد، وقبل تسلمها في سنة ثمانين.

ذكر دخول ملكشاه بغداد

كان دخوله إلى بغداد في ذي الحجة سنة سبع وسبعين وأربعمائة بعد رجوعه من حلب، وهو أوّل دخوله إليها، ونزل بدار المملكة، وركب من الغد إلى الخليفة، ولعب بالأكرة، ومضى إلى الصيد هو ونظام الملك في البرّية، فاصطاد شيئًا كثيرًا من الوحوش والغزلان، وغير ذلك، وأمر ببناء منارة بقرون الغزلان، وحوافر الحمر

(١) شيزر: بتقديم الزاي على الراء، وفتح أوله: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، وفي وسطها نهر الأردن... (معجم البلدان).

(٢) كفرطاب: بالطاء المهملة، وبعد الألف باء موحدة: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص.

الوحشية التي صادها. قال ابن خلكان[1] في وفيات الأعيان: «والمنارة باقية إلى الآن، وتعرف بمنارة القرون»، وعاد إلى بغداد، ودخل الخليفة المقتدي، فخلع عليه الخلع السلطانية، وفوض إليه أمر البلاد، والعباد، وأمره بالعدل، وطلب السلطانُ بأن يقبِّل يد الخليفة، فلم يجبه، فسأل أن يقبل خاتمه، فأعطاه، فقبله، ووضعه على عينيه، وأمره الخليفة بالعود، فعاد، ولما خرج من عنده لم يزل الوزير نظام الملك قائمًا يقدم أميرًا أميرًا إلى الخليفة، وكلما قدم أمير يقول: هذا العبد فلان، وإقطاعه كذا وكذا، وعدة عسكره كذا، إلى أن أتى على آخر الأمراء، فخلع الخليفة على نظام الملك، ودخل نظام الملك إلى المدرسة النظامية، وسمع الناس عليه الحديث بالمدرسة، وأقام ببغداد إلى صفر سنة ثمانين وسار إلى أصفهان.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة جعل السلطان ولي عهده ولده أبا شجاع، ولقبه ملك الملوك عضد الدولة تاج الملة عدة أمير المؤمنين، وأرسل إلى الخليفة أن يخطب له ببغداد، ويلقبه بهذه الألقاب، فخطب له في شعبان، ونثر الذهب على الخطباء.

ذكر ملك ملكشاه ما وراء النهر

وفي سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر، وسبب ذلك أن سمرقند كان قد ملكها أحمد بن خضر خان أخو شمس الملك الذي كان قبله، وهو ابن أخي تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه، وكان ظالمًا قبيح الصورة كثير المصادرات للرعية، فنفروا منه، واستغاثوا بالسلطان، فسار من أصفهان، وكان قد حضر إليه رسول صاحب الروم بالجزية المقرَّرة عليه، فأخذه نظام الملك معه إلى ما وراء النهر، وحضر فتح البلاد، وإنما فعل ذلك ليؤرخ عنهم أن ملك الروم حمل الجزية من بلاده إلى كاشغر، وليرى عظم ملك السلطان، وكثرة جيوشه، وسعة ممالكه، فسار السلطان من أصفهان إلى خراسان، وجمع من العساكر ما لا يحصرها ديوان، وقطع النهر، ووصل بُخارى، وملكها، وملك ما على طريقه إليها، وما جاورها، وقصد سمرقند، ونازلها، وحصرها، وملكها، واختفى أحمد خان صاحبها في بيت بعض العوامّ، فأُخِذ، وحُمل إلى السلطان، وفي عنقه حبل، فأكرمه السلطان، وبعثه إلى أصفهان، ورتب بسمرقند الأمير العميد أبا طاهر عميد خوارزم، وسار السلطان، وقصد كاشغر، فبلغ بيوزكند وأرسل رسلًا إلى ملك كاشغر، فأمره بإقامة الخطبة له، وضرب السكّة باسمه، وتوعّده إن خالف، فأجاب إلى ذلك،

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باوك بن عبد الله بن شاكل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن يرمك... (وفيات الأعيان ـ المقدمة ج٧).

وفعله، وحضر إلى السلطان، فأكرمه، وتابع الإنعام عليه، وأعاده إلى بلده، وعاد السلطان إلى خراسان.

ذكر عصيان سمرقند وفتحها

قال: ولما أُبعِد السلطان عن سمرقند لم يتفق أهلها وعسكرها المعروفون بالجكلية مع العميد أبي طاهر نائب السلطان عندهم، فاحتال حتى خرج من عندهم، ومضى إلى خوارزم، وكاتب مقدم الجكلية، واسمه عزّ الدولة يعقوب تكين، وهو أخو ملك كاشغر يستدعيه، فحضر عنده بسمرقند، واتفقا، ثم إن يعقوب علم أن أمره لا يستقيم معه، فوضع عليه من الرعيّة من ادّعى عليه بدماء قوم كان قتلهم، فقتله يعقوب، واتصلت الأخبار بالسلطان، فعاد إلى سمرقند، فلما وصل إلى بُخارى هرب يعقوب المستولي على سمرقند ومضى إلى فرغانة[1]، ولحق بولايته، فملك السلطان سمرقند ورتب بها الأمير أتسز، وسار في أثر يعقوب حتى نزل بيوزكند وأرسل العساكر إلى ملك كاشغر يطلبه منه، وأنه إذا لم يرسله قصد بلاده، واتفق أن عسكر يعقوب شَغَبوا عليه، ونهبوا خزائنه، فاضطر إلى أن هرب إلى أخيه بكاشغر، واستجار به، وكان بينهما عداوة مستحكمة، فكاتبه السلطان في إرساله، وإنه إن لم يفعل كان هو العدو، فقبض عليه، وسيّره مع ولده، وجماعة من أصحابه، وأمرهم أنهم إذا صاروا بالقرب من السلطان سملوه، فإن رضي السلطان بذلك، وإلا سلّموه إليه، فلما قصدوا سمْلَهُ وأحموا الميل، جاءهم الخبر أن طغرل بن ينال كبس ملك كاشغر وأسره، فأخروا يعقوب، وأطلقوه، ثم أنفق هو والسلطان، وجعله السلطان يقابل طغرل، وعاد السلطان إلى خراسان.

ذكر وصول السلطان إلى بغداد

وفي شهر رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة وصل السلطان إلى بغداد، وهي المرة الثانية، ونزل بدار المملكة، ووصل إليه أخوه تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وقسيم الدولة «آق سنقر» صاحب حلب وغيرهما من عمال الأطراف، وأمر السلطان بعمارة الجامع المعروف بجامع السلطان، وابتدىء بعمارته في المحرم سنة خمس وثمانين.

---

(١) بالفتح ثم السكون، وغين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك. . . (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ملك السلطان اليمن

قال: ولما وصل السلطان إلى بغداد كان ممن حضر معه جُبق أمير التركمان، وكان صاحب قرميسين، وغيرها، فأمره السلطان أن يسير بجماعة من أُمراء التركمان إلى الحجاز، واليمن، ويكون أمرهم إلى سعد الدولة كوهراتين ليفتحوا البلاد، فاستعمل سعد الدولة أميرًا اسمه ترشك، فساروا واستولوا على اليمن، وملكوا عدن، وأساؤوا السيرة في أهلها، فظهر على ترشك الجُدري، فتوفي في سابع يوم وصوله إليها، فعاد أصحابه إلى بغداد.

ذكر مقتل الوزير نظام الملك

وفي ليلة السبت العاشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة قتل الوزير خواجا بزرك قوام الدين نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بالقرب من نهاوند، وكان هو والسلطان ملكشاه قد عادا من أصفهان إلى بغداد، فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من إفطاره، وقام من خيمته إلى خيمة حرمه، أتاه صبيّ ديلمي من الباطنية في صورة مستميح، أو مستغيث، فوثب عليه، وضربه بسكين، فمات، وهرب الصبيّ، فَعثَر في أطناب الخيمة، فأدركوه وقتلوه، ولما قتل ركب السلطان إلى خيمته، وسكن عسكره وأصحابه، وقيل في سبب موته أنه كان قد ولّى عثمان ابن ابنه جمال الملك رئاسة مرو، فأرسل السلطان إليها شِحْنة من أكبر مماليكه، وأعظم أمرائه يقال له: قودن، فجرى بينه، وبين عثمان منازعة، فحملت عثمان حدة الشبيبة على قبضه، والإخراق به، ثم أطلقه، فجاء إلى السلطان مستغيثًا، وأخبره بما صنع به عثمان، فغضب السلطان، وأرسل إلى جده الوزير نظام الملك يقول: «إن كنت شريكي في الملك، ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم، وإن كنت نائبي، فيجب أن نلتزم حد البيعة، والنيابة. هؤلاء أولادك قد استولى كل منهم على كورة عظيمة، وولاية كبيرة، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة إلى أن فعلوا كيت وكيت...»، وأطال القول، وأرسل إليه بهذه الرسالة تاج الملك، ومجد الملك الباسلاني وغيرهما، من أرباب دولته، وأرسل معهم الأمير «باليرد»، وكان من ثقاته، وقال له: تعرفني ما يقول، فربما كتم هؤلاء شيئًا، فحضروا عند الوزير، وأدُوا الرسالة، فقال: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بيدي، ورأيي، أما يذكر حين قتل أبوه، فقمت بتدبير أمره، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم، وهو في ذلك الوقت يتمسك بي ويلازمني، ولا يخالفني، فلما رددت الأمور إليه، وجمعت الكلمة عليه، وجمعت له الأمصار القريبة والبعيدة سمع فيّ السعايات. قولوا له: «إن ثبات هذه

القلنسوة معذوق[١] بهذه الدواة، وأن إنفاقهما رباط كل رعية، وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك». في كلام كثير قاله، فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما قاله عن السلطان، ومضى كل منهم إلى خيمته وجاء باليرد إلى السلطان، فأخبره بما قاله الوزير على غرة، وجاء الجماعة بكرة النهار إلى السلطان، فأخبروه عنه بالعبودية، فقال لهم: إنه قال: كيت وكيت، فأشاروا عند ذلك بكتمانه رعاية لحق نظام الملك، ولعظم شأنه، فإن مماليكه كانوا قد أنافوا على عشرين ألفًا غير الجند والأتباع، فوقع التدبير عليه حتى قتل، وظن السلطان أن الدنيا قد صفت له بعد ذلك، فما عاش بعده إلى خمسة وثلاثين يومًا.

ذكر ابتداء حال نظام الملك وشيء من سيرته وأخباره

كان نظام الملك من أبناء الدهاقين[٢] بطوس، فزال ما كان لأبيه من مال وملك، وتوفِّيت والدة نظام الملك، وهو يرضع، فكان أبوه يطوف به على المراضع يرضعنه حِسبةَ حتى شبّ، وقرأ، وتعلّم العربية، وتفقه، وصار من الفضلاء، وسمع الحديث الكثير، وكان يطوف بلاد خراسان، ووصل إلى غزنة في صحبة بعض المتصوفين، ثم لزم أبا علي بن شاذان متولّي الأمور ببلخ لداود والد السلطان ألِب أرسلان، فحسُنت حاله معه، وظهرت كِفايته، وأمانته، وصار معروفًا عندهم بذلك، فلما حضرت أبا علي الوفاة أوصى ألب أرسلان به، فولاه شغله، ثم صار وزيرًا له إلى أن ولي السلطنة، وتنقّل في الوزارة، فكانت وزارته ثلاثين سنة. هذا أحد ما قيل في ابتداء أمره.

وأما سيرته: فإنه كان عالمًا أديبًا جوادًا كثير الحلم والصفح عن المذنبين، وكان مجلسه عامرًا بالفقهاء، والفقراء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار البلاد، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وأسقط المكوس والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من على المنابر، فإن الوزير عميد الملك الكندري كان قد حسّن للسلطان لعن الرافضة، وأضاف إليهم الأشعرية، وكان نظام الملك رحمه الله تعالى إذا سمع المؤذن أمسك عما هو فيه، ويجيبه، فإذا فرغ من الأذان لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وله من حسن الآثار ما هو موجود باق إلى وقتنا هذا رحمه الله تعالى.

---

(١) المراد بقوله: معذوق، أي مرتبط.

(٢) الدهقان: رئيس الإقليم، أو هو رئيس القرية.

ذكر وفاة السلطان ملكشاه وشيء من سيرته

كانت وفاته ببغداد في يوم الجمعة منتصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وذلك أنه لما قتل الوزير نظام الملك كما قدمناه، سار السلطان إلى بغداد، فدخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة، وخرج في أوائل شوال إلى ناحية دجيل[١] للصيد، فاصطاد وحشًا وأكل من لحمه، فابتدأت به العلة، فعاد إلى بغداد، فتوفي ولم تشهد جنازته، ولا صلّى عليه في الصورة الظاهرة، ولا هلب عليه ذنب فرس كعادة أمثاله من الملوك، ولا لطم عليه وجه، وحمل إلى أصفهان، ودفن بها في مدرسة له موقوفة على طائفة الشافعية، والحنفية.

قال: وكان مغرمًا بالعمارة، فحفر الكثير من الأنهار، وعمر الأسوار على كثير من البلاد، وصنع في طريق مكة مصانع، وكان كثير الصيد، وكانت السبل في أيامه آمنة ساكنة تسير القوافل مما وراء النهر إلى أقصى الشام، وليس معهما خفير، وحكى محمد بن عبد الملك الهمذاني[٢]: أن السلطان لما توجه لحرب أخيه تكش اجتاز بمشهد عليّ بن موسى الرضا بطوس، فدخل ومعه نظام الملك الوزير فصليا، وأطال الدعاء، ثم قال لنظام الملك: بأي شيء دعوت قال: أن ينصرك الله، ويظفرك بأخيك، فقال: أما أنا ولم أدع بهذا، وإنما قلت اللهم انصر نفعنا للمسلمين والرعية، وحُكي عنه حكايات تدل على محاسنه، وجودته، وخيره.

وكان قد قرر ملك البلاد لمماليكه، فجعل غلامه برسق يحارب الروم، فضايقهم حتى قرر عليهم ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف دينار جالية، ثم توجه إلى القسطنطينية وحاصرها، وقرر عليهم ألف ألف دينار، وبنى قونية[٣]، وقصرًا[٤]، وسيّر أخاه تاج الدولة تتش إلى دمشق، وقسيم الدولة آق سنقر بحلب، وغيرهم في كل جهة.

---

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامرا... ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك... (معجم البلدان).

(٢) هو محمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني، المقدسي (أبو الحسن) مؤرخ، فرضي. سكن بغداد وبها نشأ، وتوفي في شوال سنة ٥٢١هـ.. من آثاره: «عيون السير في محاسن البدو والحضر» وتكملة تاريخ الطبري، ذيل على تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه، وكتاب في أخبار الوزراء، ومصنف في طبقات الفقهاء... (معجم المؤلفين ـ عمر كحالة ١٠: ٢٥٤).

(٣) قونية: بالضم ثم السكون، ونون مكسورة، وياء مثناة من تحت خفيفة: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبأقصى سكنى ملوكها... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) لعلها أقصرى كما جاء في معجم البلدان عند الكلام على قونية.

وكانت مدة ملكه عشرين سنة، وسبعة أشهر، وستة أيام، وكان له من الأولاد أبو المظفر بركياروق، ومحمد طبر، وأبو الحارث سنجر شاه، ومحمود، وهو أصغرهم.

وزيره: نظام الملك، وقد تقدم ذكره.

ذكر أخبار السلطان بركياروق

هو أبو المظفر بركياروق ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجق، وهو الرابع من ملوك الدولة السلجقية.

وبركياروق بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء والكاف، وفتح الياء المثناة من تحت، وبعد الألف راء مضمومة، وبعد الواو الساكنة قاف.

قال المؤرخ: لما مات السلطان ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته، وأرسلت إلى الأمراء، وفرقت الأموال، واستخلفت لولدها محمود، وعمره أربع سنين وشهورًا، وأرسلت إلى الخليفة المقتدي بأمر الله في الخطبة له، فأجابها إلى ذلك على أن يكون الأمير أتْسِزْ مدبر الجيش، وتاج الملك يتولّى تدبير الأموال والدواوين، وخطب له، ولقب ناصر الدنيا والدين، وكانت الخطبة له في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال، وكان بركياروق إذ ذاك بأصفهان، فكتبت تركان خاتون بالقبض عليه، فقبض عليه، فلما ظهر موت السلطان ملكشاه، ثارت المماليك النظامية، وأخرجوه من الحبس، وملكوه، فسارت تركان خاتون من بغداد إلى أصفهان، فلما قاربتها تحول بركياروق إلى الريّ، ولقيهم أرعش النظامي في عساكره، وإنما حمل النظامية على نصرة بركياروق كراهتهم لتاج الملك، فإنه الذي دبر في قتل مولاهم. قال: وأرسلت تركان خاتون العساكر لقتال بركياروق، فلما التقى العسكران انحاز جماعة من الأمراء الذين في عسكرها إلى خدمة بركياروق منهم: الأمير باليرد، وكمشتكين الجاندار[1]، وغيرهما، فقوي بهم، وكانت الحرب بينهم في آخر ذي الحجة من السنة، فانهزم عسكر تركان خاتون، وعاد إلى أصفهان، وسار بركياروق في أثرهم، وحصرهم بها.

(١) الجاندار: الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان.

ذكر قتل تاج الملك

كان تاج الملك في عسكر تركان خاتون، فانهزم إلى نواحي بروجرد[١] فأُخِذ، وجيء به إلى عسكر بركياروق، وهو يحاصِر أصفهان، وكان يعرف كفايته، فأراد أن يستوزره، فشرع في إصلاح أكابر المماليكي النظامية، وفرق فيهم مائتي ألف، فزال ما في نفوسهم منه، فوثب عثمان الذي كان نائب نظام الملك، ووضع الغلمان الأصاغر النظامية، واستغاثوا ألا تَقنعوا إلا بقتل قاتل مولاهم، ففعلوا ذلك، وهجموا عليه، وقطعوه عضوًا عضوًا، وذلك في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة، فاستوزر بركياروق عز الملك ابن نظام الملك، واستولى بركياروق على الريّ، وهمذان، وما بينهما، وقدم بغداد في أواخر سنة ست وثمانين، وخطب له بها في يوم الجمعة رابع المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وحملت إليه الخلع، فلبسها، وعلم الخليفة على عهده، ومات فجأة، وتولّى ابنه المستظهر بالله الخلافة، فأرسل الخلع والعهد إلى السلطان بركياروق، فأقام ببغداد إلى شهر ربيع الأول من السنة، وسار إلى الموصل، ثم إلى نصيبي، وكان بينه وبين عمه تتش من الحرب ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر انهزام بركياروق من عمه تتش ودخوله إلى أصفهان ووفاة أخيه محمود

قال: ولما اتصل بتتش وفاة أخيه ملكشاه سار من الشام، وملك حلب، وحران، والرها، والجزيرة جميعها، وديار بكر، وخلاط، وأذربيجان، وهمذان على ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى، فلما قارب البلاد سار السلطان بركياروق لدفعه عنها، ووصل إلى إربل[٢]، وقرب من جيش عمه، ولم يكن معه غير ألف فارس، وكان عمه في خمسين ألفًا، فجهز عمه من أُمرائه من كبس عسكره، فهرب بركياروق، ونهب سواد عسكره، ولم يبق معه إلا برسق، وكمشتكين الجاندار، وبركياروق، وهم من الأمراء الأكابر، وخطب لعمه عند هذه الحادثة ببغداد على ما

---

(١) بروجرد: بلدة بين همذان وبين الكرج، وبينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) إربل: بالكسر ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، ولام: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق، وهي في طرف من المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي على تل عال من التراب... (معجم البلدان).

نذكره، وسار هو إلى أصفهان، وكانت تركان خاتون والدة أخيه محمود قد ماتت، فخرج إليه أخوه الملك محمود، وتلقاه، وأدخله البلد، وكان ذلك خديعة ليقبض عليه، فلما دخل بركياروق قبض عليه محمود، وقصد سمله، فاتفق أن محمودًا حُم وجُدِر، فقال لهم أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب: «إن الملك قد جدر، وما أراه يسلم، والمصلحة إبقاء بركياروق، فإن مات صاحبكم ملكوه، ولا تعاجلوه بالإتلاف»، فتركوه، فمات محمود في سلخ شوال سنة سبع وثمانين وأربعمائة فكان هذا من الفرج بعد الشدة كما قيل:

«مصائب قوم عند قوم فوائد».

قال: ولما مات محمود حبس بركياروق للعزاء به، واستوزر مؤيد الملك ابن نظام الملك في ذي الحجة، فكاتب الوزير الأمراء العراقيين، والخراسانيين، واستمالهم، فعادوا كلهم إلى بركياروق، فعظم شأنه، وكثرت عساكره، والتقى هو وعمه تتش في سنة ثمان وثمانين، واقتتلوا بالقرب من الريّ، فانهزم عسكر «تتش»، وقتل على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره، واستقامت السلطنة لبركياروق، وفي سنة ثمان وثمانين، عزل بركياروق وزيره مؤيد الملك ابن نظام الملك، واستوزر أخاه فخر الملك.

ذكر مقتل أرسلان أرغو

وفي المحرم سنة تسعين وأربعمائة قتل أرسلان أرغو بن ألب أرسلان أخو ملكشاه بمرو، وكان ملك خراسان، وسبب قتله أنه كان شديدًا على غلمانه كثير الإهانة لهم والعقوبة، فطلب غلامًا منهم، فدخل عليه، وليس عنده أحد، فأنكر عليه تأخُره عن الخدمة، فاعتذر، فلم يقبل عذره، وضربه، فأخرج الغلام سكينًا، فقتله بها، وأخذ الغلام، فقيل له: لمَ فعلت هذا؟ فقال: لأريح الناس منه. والله أعلم.

ذكر ملك بركياروق خراسان، وتسليمها لأخيه سنجر

قال: كان السلطان بركياروق قد جهز العساكر مع أخيه الملك سنجر إلى خراسان لقتال عمه أرسلان أرغو، وجعل الأمير قماج أتابكًا لسنجر، ورتب في وزارته أبا الفتح عليَّ بن الحسين الطوسي فلما وصلوا إلى الدامغان، بلغهم خبر قتله، فأقاموا هناك حتى لحقهم السلطان، وساروا إلى نيسابور، فوصلوها في خامس جُمادى الأولى من السنة، وملكها السلطان وسائر البلاد الخراسانية بغير قتال، وسار إلى بلخ، وكان

عسكر أرسلان أرغو قد ملكوا ابنًا صغيرًا عمره سبع سنين، فلما بلغهم قدوم السلطان أبعدا إلى جبال طخارستان، وطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان، وحضروا إليه في خمسة عشر ألف فارس، فأخذ ابن عمه، وأحسن إليه، وتسلمته والدة بركياروق تربية، وتَفرّق جيشه في خدمة الأمراء، وسار السلطان إلى ترمذ، فسلمت إليه، وأقام ببلخ سبعة أشهر، وأرسل إلى ما وراء النهر، فأقيمت له الخطبة بسمرقند، ودانت له البلاد.

ذكر خروج أمير أميران

وفي سنة تسعين وأربعمائة خالف أمير اسمه محمد بن سليمان، ويعرف بأمير أميران، وهو ابن عم ملكشاه، على السلطان بخراسان، وتوجه إلى بلخ، واستمد صاحب غزنة، فأمده بجيش كثير، وشرط عليه أن يخطب له في جميع ما يفتحه من البلاد الخراسانية، فقويت شوكته، فسار إلى الملك سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان أخو السلطان جريدة، وكبسه، وأسره، وكحله.

ذكر ظهور السلطان محمد طبر بن ملكشاه والملك سنجر وخروجهما على أخيهما السلطان بركياروق والخطبة لمحمد

وإنما ذكرنا أخبار السلطان محمد، وأخيه سنجر في دولة السلطان بركياروق لأنه في هذا التاريخ كان هو الملك المشار إليه، وهما كالخوارج عليه، وإن كان محمد في هذه المدة ملك البلاد، وخطب له ببغداد، وغيرها، إلا أنه لم يستقل بغير منازع؛ فلهذا أوردناه الآن في دولة بركياروق، وسنذكر سلطنته بعد وفاة السلطان بركياروق، ثم نذكر بعده سلطنة السلطان سنجر إن شاء الله تعالى. كان السلطان محمد طبر، وسنجر أخوين لأب وأم، وأمهما أم ولد، ولما مات والدهما السلطان ملكشاه كان محمد معه ببغداد، فسار مع أخيه محمود، ووالدته تركان خاتون إلى أصفهان، فلما حصر بركياروق أصفهان خرج إليه محمد، وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين، وأقطعه بركياروق كَنْجة[١]، وأعمالها، وجعل معه الأمير، فبلغ تيكن أتابكًا له، فلما

---

(١) كنجة: مدينة عظيمة قصبة بلاد أران. وأهل الأدب يسمونها جنزة، وكنجة: من نواحي كرستان بين خوزستان وأصبهان... (معجم البلدان).

قوي محمد قتله، واستولى على جميع أعمال «أرّان»[١] إلى «كنجة» من جملتها، وظهرت شهامته، واتفق أن السلطان عزل مؤيد الملك ابن نظام الملك من وزارته، فسار إلى الأمير أتسز، وحسن له العصيان على السلطان، فلما قتل أتسز سار مؤيد الملك إلى السلطان محمد، فأشار عليه بمخلافة أخيه، والسعي في طلب السلطنة، ففعل ذلك، وقطع خطبة السلطان بركياروق من بلاده، وخطب لنفسه بالسلطنة، واستوزر مؤيد الملك، وذلك في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة، واتفق أن السلطان قتل وزيره «مجد الملك الباسلاني» في هذه السنة، وكان قد تمكن منه، فنفرت خواطر الأمراء من السلطان، ففارقه مع جماعة منهم، والتحقوا بمحمد، فقوي بهم، وسار نحو الريّ، فسبقه إليها السلطان بركياروق، وجمع العساكر، وسار إلى أصفهان فأغلق أهلها الأبواب دونه، فسار إلى خوزستان، وورد السلطان محمد إلى الريّ، واستولى عليها في ثاني ذي القعدة من السنة، ووجد بها زبيدة خاتون، والدة أخيه بركياروق، فسجنها مؤيد الملك بالقلعة ثم خنقها.

ذكر إقامة الخطبة لمحمد ببغداد

قال: ولما قوي أمر السلطان محمد سار إليه سعد الدولة كوهراتين من بغداد، وكان قد استوحش من السلطان بركياروق، فاجتمع هو وكربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الجزيرة، وسرجاب بن بدر صاحب كنكور، وغيرها، وساروا إلى السلطان محمد ولقوه «بقم»، فخلع عليه سعد الدولة، ورده إلى بغداد، وسار بقيتهم في خدمته إلى أصفهان، فلما وصل سعد الدولة إلى بغداد خاطب الخليفة في الخطبة إلى محمد، فأجاب إلى ذلك، وخطب له في يوم الجمعة سابع عشر في ذي الحجة سنة اثنين وتسعين وأربعمائة، ولقب غياث الدنيا والدين.

ذكر إعادة الخطبة ببغداد للسلطان بركياروق

قال: لما سار بركياروق إلى خوزستان عندما منع من دخول أصفهان كما ذكرناه جمع العساكر، وكان أمير جيشه حينئذ ينال بن أنوشتكين الحسامي، فتجهز،

---

(١) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة... وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس، كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال، فهو من أران، وما كان من جهة المشرق فهو من أذربيجان... (معجم البلدان لياقوت).

وسار إلى واسط، ثم منها إلى بغداد، فدخلها في سابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وخطب له بها في يوم الجمعة نصف صفر قبل وصوله إليها بيومين، وكان سعد الدولة كوهرائين «بالشفيعي»، ومعه إيلغازي بن أرتق، وغيره من الأمراء، فأرسل إلى مؤيد الملك، وإلى السلطان محمد يستحثهما على الوصول إليه، فأرسلا كريوقا صاحب الموصل، وجكرمش، فأما جكرمش، فاستأذن سعد الدولة في العود إلى بلده، فأذن له، فعاد إلى جزيرة ابن عمر، وبقي سعد الدولة في جماعة من الأمراء، فكتب أعيانهم إلى السلطان بركياروق أن يخرج إليهم، وأنهم لا يقاتلونه، فخرج إليهم، فلما عاينوه ترجلوا، وقبّلوا الأرض بين يديه، وعادوا في خدمته إلى بغداد، واستوزر السلطان الأعز أبا المحاسن بن عبد الجليل بن علي الدهشاني، وقبض على عميد الدولة ابن جهير وزير الخليفة، وطالبه بالأموال، فاستقر الأمر بينهما على مائة ألف وستين ألف دينار يحملها، وخلع الخليف على بركياروق، والله أعلم بالصواب.

ذكر الحرب بين السلطانين بركياروق ومحمد والخطبة لمحمد ببغداد

وفي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة سار السلطان بركياروق من بغداد، وجعل طريقه على شهرزور، وأقام بها ثلاثة أيام، والتحق به عالم كثير من التركمان، وغيرهم، وسار نحو أخيه محمد، فوقعت الحرب بينهم في رابع شهر رجب بإسبيدروز، ومعناه: النهر الأبيض، وهو على عدة فراسخ من همذان، وكان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، فحمل كوهراتين من ميمنة بركياروق على ميسرة محمد، وبها مؤيد الملك والنظامية، فانهزموا، ودخل عسكر بركياروق في خيامهم، ونهبوا ما فيها، وعاد سعد الدولة، فكبا به فرسه، فقتله خراساني، وأخذ رأسه، وكان سعد الدولة خادمًا من خدام الملك أبي كاليجار ابن سلطان الدولة من بويه، ثم انتقل بعده إلى السلطان طغرلبك، وتنقل في خدمة الملوك السلجقية، فلما قتل تفرقت عساكر بركياروق، وبقي في خمسين فارسًا، وأسر وزيره الأعز، فأكرمه مؤيد الملك، وأحسن إليه، وأعاده إلى بغداد، وأمره بالمخاطبة في إعادة الخطبة للسلطان محمد، ففعل، وأُجيب إلى ذلك، وخطب له في يوم الجمعة رابع عشر رجب من السنة.

ذكر حال السلطان بعد الهزيمة وانهزامه أيضًا من أخيه سنجر

قال: وانهزم السلطان بركياروق في خمسين فارسًا، فقصد الريّ، فاجتمع معه جمع صالح، فسار إلى «أسفرايين»[1]، ثم إلى نيسابور، واستدعى الأمير ذاد حبشي بن التوتيان، وكان بيده حينئذٍ أكثر خراسان، وطبرستان، وجرجان، فاعتذر أن الملك سنجر قصد بلاده في هذا الوقت بعساكر بلخ، وسأل السلطان أن يحضر إليه ليعينه على حرب الملك سنجر، فسار إليه في ألفي فارس، فعلم بقدومه الأمراء والأكابر من أصحاب سنجر دون الأصاغر، وكان مع الأمير ذاد عشرون ألف مقاتل منهم رجالة الباطنية خمسة آلاف ووقع المصاف بين بركياروق، وسنجر خارج البوُسنجان[2]، فانهزم أصحاب سنجر أولاً، واشتغل أصحاب بركياروق بالنهب، وكانت الدائرة عليهم، فانهزموا، وأسر أكثر أعيان بركياروق وقتل أمير ذاد، وسار بركياروق إلى جرجان، ثم إلى دامغان، وسار في البرية، فرأى في بعض المواضع، ومعه سبعة عشر فارسًا، وجمّازة واحدة، ثم كثر جمعه، فصار في ثلاثين ألف فارس، وسار إلى أصفهان، فسبقه السلطان محمد إليها.

ذكر الحرب بين السلطانين بركياروق ومحمد ثانيًا، وقتل مؤيد الملك

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة في ثالث جُمادى الآخرة كان المصاف الثاني بينهما، وكان مع كل واحد منهما خمسة عشر ألف فارس، فاستأمن كثير من أصحاب محمد إلى بركياروق، ودام القتال بين الفريقين إلى آخر النهار، فانهزم السلطان محمد، ومن معه، وأسر وزيره مؤيد الملك، فأمر السلطان بقتله، وأخذ ما كان له من الأموال والجواهر لبغداد، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان؛ واسمها القديم مهرجان. . . (معجم البلدان).

(٢) قد تكون: بوسنج (كما في معجم ياقوت): بالضم ثم السكون، والسين مهملة، والنون ساكنة، وجيم: من قرى ترمذ.

ذكر حال محمد بعد الهزيمة واجتماعه بأخيه سنجر

ولما انهزم السلطان محمد سار طالبًا خراسان إلى أخيه سنجر، فأقام بجرجان، وأرسل إلى أخيه يطلب منه مالاً وكسوة وغير ذلك، فسيّر إليه ما طلب، وترددت الرسائل بينهما، وتحالفا، واتفقا، ولم يكن قد بقي مع السلطان محمد غير أميرين في نحو ثلاثمائة فارس، فلما استقرت بينهما القواعد سار سنجر في عساكره إلى أخيه، فاجتمعا بجرجان، وسارا منها إلى دامغان، وسارا إلى الريّ، وانضم إليهما النظامية، فكثر جمعهم، وعظمت شوكتهم، والله أعلم.

ذكر ما فعله بركياروق، ودخوله إلى بغداد

قال: ولما انهزم السلطان محمد أقام بركياروق بالريّ، واجتمعت عليه العساكر، فسار معه نحو من مائة ألف فارس، فضاقت عليهم الميرة، فتفرقت العساكر عنه، فعاد دبيس بن صدقة إلى أبيه، وتوجه الأمير إياز إلى همذان، وتفرقت العساكر إلى أن بقي في قلّة من العسكر، فبلغه اجتماع أخويه، وأنهما حشدا، وكثرت جموعهما، فتوجه إلى بغداد، وضاقت عليه النفقات، فراسل الخليفة عدة مراسلات، فتقرر أن يحمل إليه خمسين ألف دينار، فحملهما الخليفة إليه، فلم تغن شيئًا، فأفضى الحال إلى أن مدّ يده إلى أموال الناس، وانتهبها، فركب من ذلك خطة شنيعة، وخالفه الأمير صدقة بن منصور بن دبيس صاحب الحلة، وقطع خطبته من بلاده، وخطب للسلطان محمد، وسبب ذلك أن الوزير أبا المحاسن وزير بركياروق سيّر يطالبه بألف ألف دينار وكسور، وقال: إنها قد تخيرت عليك، فإما أن ترسلها وإما أن تتجهز الجيوش إليك، فقطع الخطبة، وعصى عليه، والله أعلم بالصواب.

ذكر وصول السلطان محمد، وسنجر إلى بغداد، ورحيل بركياروق عنها

وفي السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وأربعمائة وصل السلطان محمد وسنجر الملك إلى بغداد، ولما وصلا حلوان سار إيلغازي بن أرتق في عسكره إلى السلطان محمد، وخدمه، وكان عسكر السلطان محمد يزيد على عشرة آلاف فارس سوى الأتباع، فلما وصلت الأخبار بذلك كان السلطان بركياروق على شدة من المرض، فخاف أصحابه، واضطربوا، وعبروا به في محفة إلى الجانب، وتيقن أصحابه موته، ثم تراجعت إليه روحه، ووصل السلطان محمد، والملك سنجر إلى

بغداد، فخرج توقيع الخليفة المستظهر بأمر الله يتضمن سوء سيرة بركياروق، والاستبشار بقدومهما، وخطب للسلطان محمد بالديوان العزيز، ونزل الملك سنجر دار كوهراتين، ثم كانت الحرب بين السلطانين في صفر سنة خمس وتسعين، وهو المصاف الثالث، ووقع بينهما الصلح على أن يكون بركياروق السلطان، ومحمد الملك، وتضرب له ثلاث نوب، ويكون له من البلاد جنزة[1] وأعمالها، وأذربيجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، وأن يمده السلطان بالعساكر يفتح بها ما تمنع عليه، وحلف كل واحد منهما للآخر، وانصرف الفريقان من المصاف في رابع شهر ربيع الأول، وتفرقت العساكر ثم انتقض ذلك، والتقوا في جُمادى الأولى من السنة، وكانت بينهما واقعة، وهو المصاف الرابع انهزم فيه السلطان محمد، وأصحابه بعد قتال، ولم يقتل في هذا المصاف غير رجل واحد قتل صبرًا، وسار محمد في نفر يسير إلى أصفهان، وحمل عليه بيده ليتبعه أصحابه، وأخذ السلطان بركياروق خزانته، ووصل محمد إلى أصفهان، فأصلح سورها، وحفر خندقها، واعتد للحصار، وجاء بركياروق، وحاصره بها حصارًا شديدًا حتى ضاقت الميرة، واستمر الحصار إلى عاشر ذي الحجة، واقترض محمد أموال الأعيان، ثم فارق البلد في مائة وخمسين فارسًا، ومعه الأمير ينال، فاستخلف على البلد جماعة من الأمراء الأكابر، وبعث السلطان في طلبه، فلم يُدركَ، وسار محمد، ووصل إلى «ساوة»، واجتمع عليه عسكره الذي كان بكنجة، وأعمالها، ورحل إلى همذان، وبلغ جمعه ستة آلاف فارس، وأقاموا إلى آخر الحرم سنة ست وتسعين وأربعمائة، وأتاهم الخبر بقصد بركياروق لهم، فاجتمع على محمد جماعة أُخرى، والتقوا على باب «خوى»، وهو المصاف الخامس، وكان الظفر فيه لمحمد، وانهزم بركياروق وأصحابه، وسار محمد إلى «خلاط»، ثم إلى تبريز، وأذربيجان.

ذكر الصلح بين السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة تم الصلح بين السلطان بركياروق، وبين أخيه محمد، وحلف كل منهما لصاحبه، واستقرت القواعد، ووضعت الحرب أوزارها، وتقرر بينهم أن السلطان بركياروق لا يعترض على أخيه محمد، ولا يذكر معه على منبر من منابر البلاد التي استقرت له، ولا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة من الوزير، ولا يعارض أحد منهما العسكر في قصد أيهما شاء، وأن يكون للسلطان

(١) جنزة: هي كنجة، وقد تقدم وصفها.

محمد من النهر المعروف بأسبيدروز، وباب الأبواب، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، والشام، وبلاد سيف الدولة صدقة، وانتظم الأمر على ذلك، ولما انتظم أمر بركياروق عاجلته المنية فلم تطل مدته بغير منازع، وشغله حرب عمه وإخوته عن حروب أعدائه، ولم يفعل شيئًا غير قتله للباطنية على ما نذكره في هذا الموضع، وإنما أخرناه عن موضعه حتى لا ينقطع خبره مع أخيه محمد.

ذكر أخبار الباطنية وابتداء أمرهم وما استولوا عليه من القلاع وسبب قتلهم

والباطنية هم الإسماعيلية، وهم طائفة من القرامطة الذين قدمنا ذكرهم.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: أول ما عرف من أحوال هؤلاء في هذه الدعوة الأخيرة التي اشتهرت بالباطنية والإسماعيلية أنه اجتمع منهم في أيام السلطان ملكشاه ثمانية عشر رجلًا، وصلوا صلاة العيد في ساوة[١]، فظفر بهم «الشحنة»، فسجنهم، ثم سئل فيهم، فأطلقهم، فهذا أول اجتماعهم، ثم دعوا مؤذنًا من أهل «ساوة» كان مقيمًا بأصفهان، فلم يجب دعوتهم، فخافوه أن ينمّ عليهم، فقتلوه، وهو أول قتيل لهم، وأول دم أراقوه، فاتصل خبر مقتله بالوزير نظام الملك، فأمر من يتّهم بقتله، فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر، فقتل، ومثّل به، وجرُّوا برجله في الأسواق، وهو أول قتيل منهم، ثم إن الباطنية قتلوا الوزير نظام الملك، وهي أول قتلة مشهورة كانت لهم، وناهيك بها قتلة، وقالوا: قتل منا نجارًا، فقتلناه به، وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند «قاين»[٢] كان قائده على مذهبهم، فاجتمعوا عنده، وقووا به، فاجتازت لهم قافلة عظيمة من كرمان بقصد «قاين»، فخرجوا عليها هم، وقائد البلد وأصحابه، فقتل أهل القَفَل عن آخرهم لم ينج منهم غير رجل تركماني، فوصل إلى قاين، وأخبره بالقصّة، فسار أهلها مع القاضي الكرماني إلى جهادهم، فلم يقدروا عليهم، ثم مات السلطان ملكشاه، فعظم أمرهم، واشتدت شوكتهم، واشتغل السلطان بركياروق بحرب إخوته وأهله، فاجتمعوا، وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم، ويقتلونه، ففعلوا ذلك بخلق كثير، وزاد الأمر حتى إن الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله،

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الريّ وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والريّ ثلاثون فرسخًا. . . (معجم البلدان).

(٢) قاين: بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان. . . (معجم ياقوت).

وقعدوا للعزاء به، فحذر الناس، وصار لا ينفرد أحد، وأخذوا في بعض الأيام مؤذنًا أخذه جار له باطني، فقام أهله للنياحة، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون عليه، ويبكون، وهو لا يقدر يتكلم خوفًا منهم، وذلك بأصفهان.

ذكر ما استولوا عليه من القلاع ببلاد العجم

قال: واستولَوا على عدَّة حصون منها قلعة أصفهان، وهي التي بناها السلطان ملكشاه، وسبب بنائها أنه ركب للصيد، ومعه مقدَّم من مقدمي الروم كان قد لجأ إليه، وأسلم، وصار معه، فهرب من ملكشاه كلب من كلاب الصيد، فأتبعه، فوجده في موضع القلعة، فقال الرومي: لو أن عندنا مثل هذ الجبل لجعلنا عليه حصنًا يشفع به، فأمر ملكشاه ببنائه، فلما انقضت أيام ملكشاه، وصارت أصفهان بيد تركان خاتون والدة السلطان محمود استولى الباطنية عليه، فكانوا يقولون: إن قلعة يدل عليها كلب، ويشير بها كافر لا تكون خاتمتها إلا بهذا الشر. ومنها «ألموت» وهي من نواحي قزوين. قيل: إن ملكًا من ملوك الديلم كان كثير الصيد، فأرسل عُقابًا، وتبعه، فرآه قد سقط على موضع القلعة، فوجده حصينًا، فأمر ببنائه، وسماها قلعة الألموت، ومعناها بالديلم: تعليم العقاب، ويقال لهذا الوضع وما جاوره: طالقان وفيها قلاع حصينة أشهرها: الألموت. ومنها قلعة طَبَس[١]، وقهستان، ومن جملتها جور، وجوسف، وزُوزَن[٢]، وقاين، وتون[٣] وتلك الأطراف المجاورة لها، ومنها قلعة وسنملوه وهي بقرب أبهر. ملكوها في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقتل من كان بها عن آخرهم، ومنها قلعة خالنجان وهي على خمسة فراسخ من أصفهان، ومنها كردكوه، وهي مشهورة، ومنها قلعة الباطن بخوزستان، وقلعة الطنبور، وبينها وبين أرجان فرسخان، وقلعة لأوجان، وهي بين فارس وخوزستان، فهذا ما ملكوه من القلاع في هذه المدة القريبة.

---

(١) طبس: مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان، وهما طبسان: طبس كيلكي وطبس مسينان. . . (معجم البلدان).

(٢) زوزن: كورة واسعة بين نيسابور وهراة، ويحسبونها من أعمال نيسابور، كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. . . (معجم البلدان).

(٣) تون: مدينة من ناحية قهستان قرب قائن.

ذكر قتل الباطنية وسببه

كان قتلهم في سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وسبب ذلك أنه لما اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم شرعوا في قتل الأمراء، والفتك بهم، وكان أكثر من قتلوا من هو في طاعة السلطان محمد مخالف للسلطان مثل شِحنة أصفهان وغيره، فلما ظفر السلطان بركياروق بأخيه محمد انبسط جماعة منهم في العسكر، واستغووا جماعة منهم، وأدخلوهم في مذهبهم، وزاد أمرهم حتى كادوا يظهرون بالكثرة والقوة، فصاروا يتهددون من لم يوافقهم بالفتك، وانتهى الحال إلى أن الأمراء ما بقي منهم من يجسر أن يمشي حاسرًا. إلا بدرع تحت ثيابه، حتى الوزير الأعز كان يلبس زردية[١] تحت ثيابه، فأشير على السلطان بالفتك بهم قبل أن يعجز عنهم، وأعلموه ميل الناس إلى مذهبهم، ودخولهم فيه حتى إن عسكر السلطان محمد كانوا يشنّعون ذلك عليه، ويكبرون في المصاف على أصحابه، ويقولون لهم: يا باطنية، فاجتمعت هذه البواعث كلها، فأذن السلطان في قتلهم، وركب هو والعسكر، وطلبوهم، وأخذوا جماعة ممن كان وافقهم، فلم يفلت منهم إلا من لم يعرف، ومن جملة من اتهم: مقدّمهم الأمير محمد بن علاء الدولة صاحب مدينة يزد[٢]، فهرب، وسار يومه وليلته، فلما كان في اليوم الثاني وجد في العسكر، وقد ضلّ عن الطريق، فقتل، ونهب خيامه، وممن قتل ولد كيقباد مستحفظ تكريت، وقتل منهم جاولي سقاوة في هذه ثلاثمائة رجل.

ذكر وفاة السلطان بركياروق ووصيته لولده ملكشاه بالملك

كانت وفاته في ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة بأصفهان بمرض السل، والبواسير، وسار منها في محِفَّة يطلب بغداد، فلما وصل إلى بروجرد ضعف عن الحركة، فأقام بها أربعين يومًا، فاشتد مرضُه، فلما أيس من نفسه خلع على ولده ملكشاه، وعمره أربع سنين وثمانية أشهر، وجعل الأمير إياز أتابكة، وخلع على الأمراء، واستحلفهم له، وأمرهم بالطاعة لهما، فحلفوا على الوفاء، وأمرهم بالسير إلى بغداد، فساروا، فلما كانوا على اثني عشر فرسخًا من بروجرد، وصل إليهم

---

(١) المراد بالزردية: الدرع.

(٢) يزد: مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان معدودة في أعمال فارس ثم من كورة إصطخر. . . (معجم البلدان).

خبر وفاته، وحمل إلى أصفهان ودفن بها، وكان له من العمر خمسة وعشرون سنة، ومدّة ملكه اثنتا عشرة سنة، وأربعة أشهر، وقاسى من الحرب والاختلاف ما قدمناه، وكان حليمًا كريمًا صبورًا عاقلًا كثير المداراة حسن العفْو لا يبالغ في العقوبة، عفوه أكثر من عقوبته.

ذكر الخطبة لملكشاه ابن السلطان بركياروق ببغداد

قد ذكرنا وصيَّة والده له بالملك، واستخلافه الأمراء، وتقرير قواعده، وإنفاذه إلى بغداد. قال: ولما جاءه الخبر بوفاة أبيه، سار به أتابكه الأمير إياز، وإيلغازي شِحنة بغداد، ودخلا به إلى بغداد، وخُطِب له بجوامعها في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولقب بألقاب جدِّه جلال الدولة، ونشرت الدنانير على الخطباء، ثم قدم عمه السلطان محمد على ما نذكره.

ذكر أخبار السلطان محمد

هو غياث الدين أبو شجاع محمد طبر يمين أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجق، وهو الخامس من ملوك الدولة السلجقية.

قد قدمنا من أخبار هذا السلطان، ووقائعه مع أخيه السلطان بركياروق وحروبه، والخطبة له ببغداد مرة بعد أُخرى ما يستغنى عن إعادته، ونحن الآن نذكر أخباره في سلطنته بعد وفاة أخيه. قال: لما مات السلطان بركياروق، وخطب لولده ملكشاه ببغداد كما ذكرناه، كان السلطان محمد إذ ذاك يحاصر جكرمش، وسكمان القطبي، وغيرهما من الأمراء وكان سيف الدولة صدفة صاحب الحلة قد جمع خلقًا كثيرًا من العساكر بلغت عدتهم خمسة عشر ألف فارس، وعشرة آلاف راجل، وأرسل ولديه بدران، ودبيس إلى السلطان محمد يستحثه على الحضور إلى بغداد، فاستصحبهما معه، فلما سمع الأمير إياز بمسيره إليه خرج هو والعسكر الذي معه من الدور، ونصبوا الخيام بالزهراء خارج بغداد، وجمع الأمراء، واستشارهم فيما يفعله، فبذلوا الطاعة واليمين على قتال السلطان، ودفعه عن السلطنة، والاتفاق على طاعة ملكشاه بن بركياروق، وكان أشدهم «ينال، وصبارو، فلما تفرقوا، قال له وزيره الصفيّ أبو المحاسن: «اعلم أن حياتي مقرونة بثبات نعمتك ودولتك، وأنا أكثر التزامًا بك من هؤلاء، وليس الرأي ما أشاروا به، فإن كل واحد منهم يقصد أن يسلك طريقًا، ويقيم سوقًا لنفسه، وأكثرهم يناوئك في المنزلة، وإنما يقعد بهم عن منازعتك قلة العدد

والمال، والصواب مصالحة السلطان محمد، والدخول في طاعته، وهو يقرك على ما بيدك من الإقطاع، ويزيدك عليه ما أردت»، فتردّد رأي الأمير إياز في الصلح إلا أنه يظهر المباينة، وجمع السفن التي ببغداد، وضبط المشارع من متطرق إلى عسكره، أو إلى البلد، ووصل السلطان محمد إلى بغداد في يوم الجمعة لثمان بقين من جُمادى الأولى، سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ونزل بالجامع الغربي، وخطب له بالجامع، وأما جامع المنصور، فإن الخطيب قال: «اللهم أصلح سلطان العالم». لم يزد على ذلك، وركب إياز في عسكره، وهم عازمون على الحرب، وسار حتى أشرف على عسكر السلطان محمد، وعاد إلى مخيَّمه، فدعا الأمراء إلى اليمين مرة ثانية على المخالصة لملكشاه، فأجاب بعضهم، وتوقف البعض، وقالوا: قد حلفنا مرة، ولا فائدة في إعادة اليمين لأنا إن وفينا بالأولى، وفينا بالثانية، فأمر إياز حينئذٍ وزيره الصفي أبا المحاسن بالعبور إلى السلطان محمد، والمشي في الصلح، وتسليم السلطنة إليه، فعبر يوم السبت لسبع بقين من الشهر إلى عسكر محمد، واجتمع بوزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد، وعرّفه ما جاء فيه، فأحضره إلى السلطان، فأدى الرسالة، واعتذر عن صاحبه، فأجابه السلطان جوابًا لطيفًا، وطيّب نفسه، وأجاب إلى اليمين، فلما كان الغد حضر قاضي القضاة، والنقيبان، والصفي وزير إياز عند السلطان، فقال له وزيره سعد الملك: إن إياز يخاف لما تقدم منه، وهو يطلب العهد لنفسه، وللأمراء الذين معه. فقال السلطان: أما ملكشاه فلا فرق بينه وبين أخي، وأما إياز والأمراء الذين معه، فأحلف لهم إلا ينال الحسامي وصبارو، وحلف لهم، فلما كان الغد حضر الأمير إياز إلى السلطان، فلقيه الوزير، وكافة الناس، ووصل سيف الدولة صدقه في ذلك الوقت، ودخلا جميعًا إلى السلطان، فأكرمهما، وأحسن إليهما، وقيل: بل ركب السلطان، ولقيهما، وأقام السلطان ببغداد إلى شعبان، وسار إلى أصفهان على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل الأمير إياز

كان سببُ ذلك أنه لما سلَّم السلطنة لمحمد، وصار في جملة أصحابه، عمل وليمة عظيمة في ثامن جُمادى الآخرة في داره، ودعا السلطان إليها، فجاء وقدّم له إياز شيئًا كثيرًا، من جملته حملَ بلخُش، كان إياز قد أخذه من تركة مؤيد الملك ابن نظام الملك، وحضر الوليمة سيف الدولة صدقة بن مزْيد، فاتفق أن إياز تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح، ليعرضهم على السلطان، فدخل إليهم رجل من أبهر كانوا يضحكون منه، فألبسوه درعًا تحت قميصه، وتناولوه بأيديهم، وهو يسألهم أن يكفوا

عنه، فلم يفعلوا، فلشدَّة ما ناله هرب منهم، ودخل بين خواص السلطان، فرآه السلطان مذعورًا، فاستراب منه، وقال لغلام له أن يمسكه من غير أن يعلم به أحد ففعل، فرأى الدرع تحت ثيابه، فأعلم السلطان بذلك، فاستشعر السوءَ وقال: إذا كان أصحاب العمائم قد لبسوا الدروع، فما ظنك بغيرهم من الجند، ونهض وعاد إلى داره، فلما كان في ثالث عشر. استدعى الأمير صدقة وإياز، وجكرمش، وغيرهم من الأمراء، فلما حضروا أرسل إليهم: أنا بلغنا أن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، قصد ديار بكر ليملكها، ويسير منها إلى الجزيرة، وينبغي أن تجتمع آراؤكم على من يسير إليه ليمنعه، ويقاتله، فقال الجماعة: ليس هذا الأمير إلا للأمير إياز. فقال إياز: ينبغي أن أجتمع أنا وسيف الدولة صدقة على هذا الأمر، فقبل ذلك السلطان، فاستدعى إياز وصدقة والوزير سعد الملك، فقاموا ليدخلوا عليه، وكان قد أعدّ جماعة من خواصِّه لقتل إياز إذا دخل عليه، فلما دخل ضرب أحدهم رأسه فأبانه، فغطى صدقة وجهه بكُمِّه، وأما الوزير فغشي عليه، وتفرق أصحاب إياز، وكان زوال نعمته العظيمة ودولته في مزحة مزحها غلمانه، ولما كان الغد كفَّنه قوم من المتطوعة ودفنوه.

وكان من جملة مماليك السلطان ملكشاه، وكان غزير المروءة، شجاعًا حسن الرأي في الحرب. ولما قتل اختفى وزيره الصفي، ثم أُخذ وحمل إلى الوزير سعد الملك، ثم قُتل في شهر رمضان، وسار السلطان إلى أصفهان، فوصل إليها في شهر رمضان وأمن أهلها.

ذكر خروج منكبرس على السلطان محمد والقبض عليه

وفي المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة أظهر منكبرس ابن الملك بوزي برس بن ألِب أرسلان، وهو ابن عم السلطان محمد العصيانَ، والخلافَ على السلطان، وسببُ ذلك أنّه كان بأصبهان، فلحقته ضائقة شديدة، وانقطعت عنه الموادّ، فسار إلى نهاوند، واجتمع عليه بها جماعة من العسكر، وظاهره على أمره جماعة من الأمراء، فتغلب على نهاوند، وخطب لنفسه بها، وكاتب الأمراء بني برسق يدعوهم إلى طاعته ونصرته، وكان السلطان محمد قد قبض على أخيهم زنكي بن برسق، فكاتب زنكي إخوته، وحذرهم من طاعته، وأمرهم بالتدبير في القبض عليه، فلما أتاهم كتاب أخيهم بذلك أرسلوا إلى منكبرس يبذلون له الطاعة والموافقة، فسار إليهم وساروا إليه، واجتمعوا به، وقبضوا عليه بالقرب من أعمالهم، وهي بلد «خوزستان»، وتفرق أصحابه وأترابه إلى أصفهان، فاعتقله السلطان مع بني عمه تكش، وأخرج

زنكي بن برسق، وأعاده إلى مرتبته، واستنزله وإخوته عن أقطاعهم وهي الأسر، ونيسابور، وغيرهما ما بين الأهواز وهمذان، وأقطعهم عوض ذلك الدور وغيرها وفيها ظهر بنهاوند أيضًا رجل من أهل السواد، ادعى النبوة، فأطاعه خلق كثير، واتبعوه، وباعوا أملاكهم، ودفعوا أثمانها إليه، وهو يخرج جميع ذلك، وسمّى أربعة من أصحابه أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًا، ثم قُتل بنهاوند، فكان أهلها يقولون: ظهر عندنا في مدة شهرين اثنان: أحدهما يدّعي النبوة، والآخر المملكة، فلم يتم لأحد منهما أمر، والله أعلم.

ذكر ملك السلطان محمد قلعة شاه دز من الباطنية وقتل ابن عطاش

وفي سنة خمسمائة ملك السلطان القلعة التي كانت الباطنية ملكوها بالقرب من أصفهان، واسمها «شاه دز»[١]، وقتل صاحبها أحمد بن عبد الملك بن عطاش وولده. وكانت هذه القلعة قد بناها السلطان ملكشاه، واستولى عليها بعده أحمد بن عبد الملك، وكان قد اتصل بِدُزِ دار القلعة، فلما مات استولى عليها، وكان الباطنية بأصفهان قد ألبسوه تاجًا، وجمعوا له أموالاً عظيمة، فاشتد بأسه، وكثر جمعه، واستفحل أمره بالقلعة، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا عليه، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وجعلوا لهم على القرى السلطانية، وأموال الناس، ضرائب يأْخذونها؛ ليكفوا عنها الأذى، فتعذر انتفاع السلطان بقراه، والناس بأملاكهم، ومشى لهم الأمر بما كان بين السلطان وأخيه من الاختلاف، فلما صفت السلطنة لمحمد، ولم يبق له منازع، لم يكن عنده أمر أهمّ من الباطنية، فخرج بنفسه، وحاصرهم، في سادس شعبان، وأحاط بجبل القلعة، فلما اشتد الحصار عليهم طلبوا أن ينزل بعضهم من القلعة، ويرسل السلطان معهم من يحميهم، إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان، وكانت لهم، وينزل بعضهم، ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس، وأن يقيم البقية منهم في ضرس[٢] من القلعة، إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم، وينزلون حينئذ، ويرسل السلطان معهم من يوصلهم، إلى ابن

---

(١) شاه دز: قلعة حصينة على جبل أصبهان كانت لمعقل بن عطاش، وهو أحمد بن عبد الملك مقدّم الباطنية، لعنهم الله... وشاه دز أيضًا: قلعة بناها نصر بن الحسن بن فيروزان الديلمي في جبل شهريار... (معجم البلدان).

(٢) الضرس: الحجر تطوى به البئر ونحوها؛ لأنه يبرز في البناء. والضرس أيضًا: الأكمة الخشنة كأنها مضرسة.

الصباح بقلعة ألموت، فأجيبوا إلى ذلك، وتوجه معهم من أوصلهم إلى قلعتي الناظر، وطبس، وعاد منهم من أخبر ابن غطاس بوصولهم، فلم يُسلّم السن الذي بيده، ورأى السلطان منه العذر، فجدد الحصار، فجاء إلى السلطان من دلّه على عورة ذلك السن، فملكه، وقتل من فيه من الباطنية، واختلط بعضهم بمن دخل، فسلموا، وأسر ابن عطاش، فتركه السلطان أسبوعًا، ثم أمر به، فشهر في جميع البلاد، وسلخ جلده، فمات، وحشي تبنًا، وقتل ولده، وحملت رأساهما إلى بغداد، وألقت زوجته نفسها من القلعة، فهلكت. كانت مدة البلوى بابن عطاش ثنتا عشرة سنة.

ذكر القبض على الوزير وقتله، ووزارة أحمد بن نظام الملك

وفي سنة خمسمائة قبض السلطان محمد على وزيره سعد الملك أبي المحاسن، وأخذ ماله، وصلبه على باب أصفهان، وصلب معه أربعة نفر من أعيان أصحابه، فأما الوزير، فنسب إلى خيانة السلطان، وأما الأربعة، فنسبوا إلى اعتقاد مذهب الباطنية، ثم استشار السلطان فيمن يجعله وزيرًا، فذُكِر له جماعة، فقال: إن آبائي رأوا على نظام الملك البركة، وله عليهم الحق الكبير، وأولاده أغذياء بنعمتنا، ولا معدل عنهم، فاستوزر أبا نصر أحمد، ولقب ألقاب أبيه قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام، وَحَكَّمهُ، ومَكَّنهُ، وقوّى أمره.

ذكر قتل الأمير صدقة بن مزيد

كان مقتله في سنة إحدى وخمسمائة، وكان سبب ذلك أنه قد عظم أمره، واشتهر ذكره، واستجار به الأكابر من الخلفاء، فمن دونهم، وأجار على الخلفاء والملوك، وكان ممن أكد أسباب دولة السلطان محمد، وأقام في حقه، وعضده، وجاهر السلطان بركياروق بسببه، فلما استوثق الأمر للسلطان محمد، زاده على ما بيده من الإقطاع زيادة عظيمة، منها مدينة واسط، وأذن له في أخذ البصرة، ثم أفسد ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسن البلخي، وقال للسلطان: إن صدقة عظم أمره، وكثر إدلاله، وهو يحمي كلَّ من يفر من السلطان، والتحق به، ونسبه إلى مذهب الباطنية، ولم يكن كذلك، وإنما تشيع، واتفق أن السلطان محمد سخط على أبي دلف سرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة، فهرب منه، وقصد صدقة، واستجار به فأجاره، فأرسل السلطان يطلبه من صدقة، وأمره بتسليمه إلى نوابه، فلم يفعل، وأجاب: إنني لأمكن منه بل أحامي عنه، أقول ما قاله أبو طالب لقريش لما طلبوا النبيّ ﷺ: [من الطويل]

ونسلمه حتى نصرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وظهر منه أمور أنكرها السلطان، فتوجه السلطان إلى العراق؛ ليتلافى هذا الأمر، فلما سمع صدقة به، استشار أصحابه فيما يفعله، فأشار عليه ابنه دبيس أن ينفذه إلى السلطان، ومعه الأموال والخيل والتحف ليستعطفه، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيش صدقة بحربه، وجمع الجند، وتفريق المال فيهم، واستطال في القول، فمال صدقة إلى قوله ووافقه، وجمع العساكر، فاجتمع له عشرون ألف فارس، وثلاثون ألف راجل، وأرسل الخليفة المستظهر بالله إلى الأمير صدقة، يحذره عاقبة أمره، وينهاه عن الخروج عن طاعة السلطان، فأجاب: إنني على الطاعة، لكن لا آمن على نفسي في الاجتماع به، ثم أرسل السلطان إلى صدقة يطيّب قلبه، ويبسط ويزيل خوفه، ويأمره بانبساط على عادته، فأجاب: إن أصحاب السلطان قد أفسدوا قلبه ليّ، وغيّروا حالي عنده، وزال ما كان عليه في حقي من الإنعام، وذكر سالف خدمته ومناصحته، وقال سعيد بن حميد صاحب جيشه: لم يبق لنا في صلح السلطان مطمع، وليرين خيولنا ببغداد، وامتنع صدقة من الاجتماع بالسلطان، وكان السلطان وصل إلى بغداد جريدة في خيل، لا تبلغ ألفي فارس، فأرسل إلى جيوشه، فأتته من كل جهة، وتكررت الرسائل من الخليفة إلى صدقة، وهو يجيب: إنني ما خالفتُ الطاعة، ولا قطعت الخطبة، وجهز ابنه دبيسًا، ليسير إلى السلطان، فبينما هو في ذلك إذ ورد الخبر أن طائفة من عسكر السلطان، قد وقعت الحرب بينهم وبين أصحاب صدقة، وأن عسكر السلطان انهزم، وأسر جماعة من أعيانهم، فأخر صدقة ابنه، ثم ترددت الرسائل من الخليفة إلى صدقة، يقول: إن إصلاح قلب السلطان موقوف على إطلاق الأسرى، ورد جميع ما أخذ من العسكر المنهزم، فأجاب أولاً بالخضوع والطاعة، ثم قال: لو قدرت على الرحيل من بين يدي السلطان لفعلت، ولكن ورائي من يثقل ظهري: ثلاثمائة امرأة لا يحملهن مكان، ولو علمت أنني إذا جئت للسلطان مستسلمًا قبلني، واستخدمني، لفعلت، ولكنني أخاف ألا يقبل عذري، ولا يعفو، وأما ما نهب فإن الخلق كثير، وعندي من لا أعرفه، وقد نهبوا ودخلوا البر، ولا طاقة لي بهم، لكن إن كان السلطان لا يعارضني فيما في يدي، ولا فيمن أجرته ويقر سرخاب على إقطاعه بساوة، ويتقدم بإعادة ما نهب من بلدي. ويحلفه وزير الخليفة بما أثق به من الأيمان، على المحافظة فيما بيني وبينه، فحينئذ أخدم بالمال، وأدوس بساطه بعد ذلك، فعادت الرسائل بذلك مع أبي منصور بن معروف، وأصر صدقة على قوله، فعند ذلك سار السلطان في ثامن شهر رجب إلى

الزعفرانية[١]، وسار صدقة في عسكره إلى قرية مطر[٢]، وأمر جنده بلبس السلاح، واستأمن نائبه سلطان ابن دبيس وهو ابن عم صدقة إلى السلطان، فأكرمه، وعبر السلطان إلى دجلة، ولم يعبر هو، فصاروا هم وصدقة في أرض واحدة، بينهما نهر، والتقوا في تاسع عشر شهر رجب، وكانت الريح في وجوه أصحاب السلطان، فلما التقوا صارت في وجوه أصحاب صدقة، ورمى الأتراك بالنشاب، فكان يخرج في كل رشقة سبعة عشر ألف فردة، لا تقع إلا في فارس أو فرس، فكان أصحاب صدقة إذا حملوا منعهم النهر، والنشاب يصل إليهم، وحمل صدقة على الأتراك، وجعل يقول: أنا صدقة، أنا ملك العرب فأصابه سهم في ظهره، وأدركه غلام اسمه برغش، فتعلق في صدقة وهو لا يعرفه، فسقطا جميعًا إلى الأرض، فعرفه صدقة، وقال: يا برغش أرفق، فضربه بالسيف، فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى البرسقي، فحمله إلى السلطان، فلما رآه عانقه، وأمر لبرغش بصلة، وبقي صدقة طريحًا، إلى أن سار السلطان، فدفنه إنسان من المدائن، وكان عمر صدقة تسعًا وخمسين سنة، وكانت إمرته إحدى وعشرين سنة، وحمل رأسه إلى بغداد، وقتل من أصحابه ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس، وأسر ابنه دبيس، وسرخاب بن كيخسرو الديلمي، فأحضر بين يدي السلطان، فطلب الأمان، فقال السلطان: أنا عاهدت الله أني لا أقتل أسيرًا، فإن ثبت عليك أنك باطني قتلتك. قال: ونهب من أموال صدقة ما لا يحد ولا يوصف.

وكان له من الكتب المنسوبة الخطوط ألوف مجلدات، وكان يقرأ ولا يكتب، وكان جوادًا حليمًا، صدوقًا، كثير البشر والخير والإحسان، يلقى لمن يقصده بالبشاشة والفضل، ويبسط آمال قاصديه، ويزورهم، وكان عاقلاً، عفيفًا، دينًا، حاز الأوصاف الجميلة، رحمه الله تعالى.

قال: ولما قتل صدقة عاد السلطان إلى بغداد، ولم يصل الحلة، وأرسل أمانًا لزوجة صدقة، فأصعدت إلى بغداد، فأطلق السلطان ابنها دبيسًا، وأنفذ معه جماعة من الأمراء لتلقيها، فلما جاءت اعتذر السلطان إليها من قتل صدقة، وقال: وددت أنه حمل إلى حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس منه، لكن الأقدار غلبتني عليه، واستحلف ابنها دبيسًا أنه لا يسعى بفساد.

---

(١) الزعفرانية: عدة مواضع تسمى بهذا الاسم، منها: الزعفرانية قرية على مرحلة من همذان... والزعفرانية: قرية قرب بغداد تحت كلواذى.

(٢) مطر: من أعمال اليمن، كما جاء في معجم البلدان لياقوت، يقال لها بنو مطر.

وفي سنة إحدى وخمسمائة في شعبان أطلق السلطان الضرائب والمكوس، ودار البيع، والاجتيازات، وغير ذلك، مما يناسبه بالعراق، وفيها خرج السلطان إلى أصفهان، وكان مقامه ببغداد، في هذه الدفعة خمسة أشهر وسبعة عشر يومًا.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة استولى مورود، وعسكر السلطان على الموصل، وكان جاولي سقاوة قد تغلب عليها، فأخذت منه، بعد حرب وحصار، ثم عاد جاولي إلى خدمة السلطان.

وفي سنة ثلاث وخمسمائة سيَّر السلطان وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى قلعة ألموت، لقتال الحسن بن الصباح، ومن معه من الإسماعيلية، فحصرهم، وهجم الشتاء عليهم، فعادوا، وفيها في شهر ربيع الآخر توجه الوزير نظام الملك إلى الجامع، فوثب عليه الباطنية، وضربوه بالسكاكين، فجرح في رقبته، فمرض مدة وبرأ، وأُخذ الباطني، فسقي الخمر حتى سكر، وسئل عن أصحابه، فأقر على جماعة بمسجد المأمونية، فقتلوا، وفيها عزل الوزير نظام الملك، واستوزر بعده الخطير محمد بن الحسين.

وفي سنة خمس وخمسمائة بعث السلطان الجيوش لقتال الفرنج، وكانوا قد استولوا على البلاد، ففتحوا عدة حصون للفرنج، وقتلوا من بها منهم، وحصروا مدينة الرُّها، ثم رحلوا عنها.

وفي سنة تسع وخمسمائة أقطع السلطان محمد الموصل، وما كان بيد آق سنقر البرسقي للأمير جيوش بك، وسيّر معه ولده الملك مسعود بن محمد.

ذكر وفاة السلطان محمد وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان ابتداء مرضه في شعبان، فانقطع عن الركوب، وتزايد مرضه ودام، وأرجف بموته، فلما كان يوم عيد النحر، حضر الناس إلى دار السلطان، فأذن لهم في الدخول، وجلس السلطان وقد تكلف ذلك، حتى أكل الناس وانصرفوا، فلما انتصف الشهر أيس من نفسه، فأحضر ولده السلطان محمودًا وقبّله وبكيا، وأمره أن يخرج، ويجلس على تخت السلطنة، وينظر في أُمور الناس، وكان عمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة، فقال لوالده: إنه يوم غير مبارك، يعني من طريق النجوم، فقال السلطان: صدقت يا بني ولكن على أبيك، وأما عليك فمبارك بالسلطنة، فخرج وجلس على تخت السلطنة وبالتاج والسوارين، وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر أُحضر الأمراء، وأُعلموا بوفاة السلطان، وخطب لمحمود بالسلطنة.

وكان مولد السلطان محمد في ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين ودُعي له بالسلطنة ببغداد، في الدفعة الأولى، في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقطعت، وأُعيدت عدة دفعات كما قدمناه في أخبار بركياروق. وكانت مدة اجتماع الناس عليه بغير منازع، منذ تسلم السلطنة من الأمير إياز أتابك ملكشاه بن بركياروق، ثنتا عشرة سنة وسبعة أشهر.

وأما سيرته فكان ملكًا عادلاً شجاعًا، حسن السيرة؛ فمن جملة ذلك أنه اشترى مماليك من بعض التجار، وأحالهم بالثمن على عامل خوزستان، فأعطاهم البعض، ومطلهم بما بقي، فحضروا مجلس الحكم، وأخذوا معهم غلمان القاضي إلى السلطان، ليحضر معهم إلى مجلس الحكم، فلما رآهم، قال لحاجبه: انظر حاجة هؤلاء فسألهم، فقالوا: لنا خصم يحضر معنا إلى مجلس الحكم، فقال: من هو؟ فقالوا: السلطان؛ وذكروا قصتهم. فأعلمه الحاجب ذلك، فأمر بإحضار العمل إليهم، وغرّمه غُرمًا ثقيلاً، ونكلَ به، ثم كان يقول بعد ذلك: ندمت ندامة عظيمة، حيث لم أحضر معهم إلى مجلس الحكم، فيقتدي بي غيري، ولا يمتنع أحد عن الحضور إليه، وأداء الحق. ومن عدله أنه كان له خازن يعرف بأبي أحمد القزويني، فقتله الباطنية، فلما قتل أمر بعرض الخزانة عليه، فعرضت، فإذا درج فيه جوهر نفيس، فقال: إن هذا الجوهر عرض عليَّ منذ أيام، وهو في ملك أصحابه، وسلمه إلى خادم له، وأمر بتسليمه إليهم، فسأل عنهم وكانوا غرباء ـ وقد تيقنوا ذهاب مالهم، وأيسوا منه، فلم يطلبوه، فأحضرهم وسلمه إليهم، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يعلم منه فعل قبيح، ولا عرف عنه، وعلم الأمراء سيرته، فلم يتجاسروا على الظلم، وكفوا عنه.

وكان له من الأولاد: محمود، وطغرل، ومسعود، وسليمان شاه، وسلجق. تولوا كلهم السلطنة إلا سلجق.

وزراؤه: مؤيد الملك ابن نظام الملك. ثم سعد الملك أبو المحاسن، إلى أن قتله، ثم أحمد بن نظام الملك، ثم خطير الملك، وكان في نهاية الجهل، فعزله بعد مدة، وصادره، وولي غيرُهم، وممن استوزره: ربيب الدولة أبو منصور بن أبي شجاع.

ولما توفي السلطان محمد انتقلت السلطنة من العراق إلى خراسان، وذلك أن سنجر شاه لم يبق في البيت أكبر منه، فكان هو السلطان المشار إليه، ولنذكر الآن أخباره؛ لأنه كان ملكًا في حياة أخيه، وعظم شأْنه، واستولى على عدة ممالك، فإذا انقضت دولته، عدنا إلى ذكر أولاد محمد، وغيرهم إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار السلطان سنجر

هو معز الدين عماد آل سلجوق أبو الحارث سِنْجر شَاه برهان أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه، وقد تقدم ذكر نسبه، وكان والده سماه أحمد، وإنما قيل له: سنجر؛ لأنه ولد بسنجار، فقيل له: سنجر باسم المدينة التي ولد بها، ونعت أيضًا بالسلطان الأعظم، قال المؤرخ: ولما مات السلطان محمد كان سنجر شاه مستقر الأمر بخراسان، وقد ذكرنا ذلك في أيام أخيه السلطان بركياروق، وكان قد سلمها له لما فتحها، في خامس جُمادى الأولى سنة تسعين وأربعمائة، وقد قدمنا من أخباره في أيام أخيه السلطان بركياروق، وحروبه معه، ما يستغنى الآن عن إعادته، فلما مات بركياروق استغل سنجرشاه بملك خراسان، وبقي العراق وما معه بيد أخيه السلطان محمد، على ما قدمنا، قال: واتفق وقعتان لسنجر شاه عظيمتان، في أيام أخويه بركياروق ومحمد نحن الآن نذكرهما.

فأما الأولى: فهي واقعته مع قدر خان صاحب سمرقند وما وراء النهر، وكانت في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وذلك أن قَدْر خان قصد خراسان، وطمع في ملكها لصغر سن سنجر، وجمع من العساكر ما طبق الأرض، قيل: كانوا مائة ألف مقاتل، وقيل: مائتي ألف عنان، مسلمون وكفار، وكان أمن أمراء سنجر أمير اسمه: كندغدي، قد كاتب قدر خان بالأخبار، وأعلمه بحال سنجر وضعفه، واختلاف الملوك السلجقية، وأشار عليه بالسرعة، فبادر قدر خان، وقصد البلاد، فسار سنجر نحوه ليقاتله، وكان معه كندغدي، وهو لا يتهمه في مناصحته، فوصل إلى بلخ في ستة آلاف فارس، وبقي بينه وبين قدر خان مسافة خمسة أيام، فهرب كندغدي، والتحق بقدر خان، فلما تدانى العسكران أرسل سنجر يذكر قدر خان العهود القديمة والمواثيق، فلم يصغ إلى ذلك، فأذكى سنجر عليه العيون، وبثّ الجواسيس، فكان لا يخفى عنه شيء من أخباره، فأتاه من أخبره أنه قد نزل بالقرب من بلخ، وأنه خرج يتصيّد في ثلاثمائة فارس، فندب السلطان سنجر الأمير برغش لقصده، فسار إليه، فلحقه وقاتله، فانهزم أصحاب قدر خان، وأُسر هو وكندغدي، وأحضرهما إلى السلطان سنجر، فأما قدر خان: فإنه قبّل الأرض واعتذر، فقال له سنجر: إنْ خَدمْتَنا أو لم تخدمنا فما جزاؤك إلا السيف، ثم أمر به، فقُتل، وأما كندغدي فإنه نزل في قناة ومشى فيها فرسخين تحت الأرض، على ما كان به من النقرس[1]، وقتل فيها

---

(١) النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك.

حيتين عظيمتين، وسبق أصحابه إلى مخرجها، وسار في ثلاثمائة فارس إلى غزنة، وقيل: بل جمع سنجر عساكره، والتقى هو وقدر خان، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحاب قدر خان، وأُسر هو وحمل إلى سنجر، فقتله، وحصر «ترمذ»، وبها كندغدي، فطلب الأمان، فأمنه سنجر، وتسلم «ترمذ»، فأمره سنجر بمفارقة بلاده، فسار إلى غزنة، فأكرمه صاحبها علاء الدولة، وقدمه وأحسن إليه، قال: ولما قتل قدر خان أحضر السلطان سنجر شاه محمدًا أرسلان بن سليمان بن داود بغرا خان من مرو، وملكه سمرقند، وهو من أولاد الملوك الخانية، وأمه ابنة السلطان ملكشاه، وكان قد دفع عن ملك آبائه، فقصد مرو، فأقام بها إلى الآن، فولاه سنجر أعمال قدر خان، وسيّر معه العسكر، فملك جميع البلاد، وعظم شأنه، وارتفع محله، ودام في ملك ما وراء النهر، وهو على الطاعة للسلطان سنجر، إلى سنة سبع وخمسمائة، فظهر منه ظلم للرعية، واستخف بأوامر السلطان سنجر، فتجهز بعساكره، وقصده، فخاف محمد، وأرسل إلى السلطان يستعطفه، واعترف بالخطأ، فأجابه السلطان إلى الصلح، على أن يحضر ويطأ بساطه، فأرسل يذكر خوفه لسوء صنيعه، وأنه يحضر إلى الخدمة، ويخدم السلطان وبينهما نهر جيجون، ثم يعاود بعد ذلك الحضور عنده، والدخول عليه، فأجاب السلطان إلى ذلك، وكان سنجر على شاطىء جيحون من الجانب الغربي، ومحمد من الجانب الشرقي، فترجل وقبّل الأرض وسنجر راكب، وعاد كل منهما إلى خيامه، وسكتت الفتنة، فهذه الوقعة الأولى.

وأما الثانية: فإنه لما مات علاء الدولة صاحب غزنة، في شوال سنة ثمان وخمسمائة، وملك ابنه أرسلان شاه، وأمه سلجقية، وهي أخت السلطان ألب أرسلان بن داود، فقبض على إخوته وسجنهم، وهرب أخ له اسمه بهرام شاه إلى خراسان، والتحق بالسلطان سنجر، فأرسل إلى أخيه في معناه، فلم يفعل، ولا أصغى إلى قوله، فتجهز سنجر شاه إلى المسير إلى غزنة، ومعه بهرام شاه، فلما بلغ بست اتصل به نصر بن خلف، صاحب سجستان، وسمع أرسلان شاه الخبر، فسيّر جيشًا كثيفًا، فهزمه سنجر، وعاد من سلم[1] إلى غزنة بأسوأ حال، فخضع حينئذ أرسلان شاه، وأرسل إلى الأمير أتسز، وكان على مقدمة سنجر، يضمن له الأموال الكثيرة، ليعود عنه، ويحسّن إلى سنجر العود، فلم يفعل، فأرسل أرسلان شاه امرأة عمه نصر، وهي أخت السلطان سنجر من والده بركياروق، وكان علاء الدولة قتل زوجها، ومنعها من الخروج عن غزنة، وسألها سؤال سنجر في الصفح، وأرسل معها

(١) سلم: بفتح أوله، وسكون ثانيه: محلة بأصبهان ويضاف أحد أبوابها إليها فيقال باب سلم... (معجم البلدان لياقوت).

الأموال والهدايا والتحف، وكان معها مائتا ألف دينار، وطلب من السلطان أن يسلم إليه أخاه بهرام شاه، فوصلت إليه، وكانت موغرة الصدر من أرسلان شاه، فهونت أمره عند السلطان سنجر، وأطمعته في البلاد، وهوّنت عليه الأمر، وذكرت له ما فعل بإخوته، وأنه قتل بعضهم، من غير أن يخرجوا عن الطاعة، فسار الملك سنجر، وأرسل خادمًا من خواصه برسالة إلى أرسلان شاه، فقبض عليه واعتقله، واستمر سنجر على سيره لقصد غزنة، فلما سمع بقربه أطلق الرسول، ووصل سنجر إلى غزنة، ووقع المصاف على فرسخ منها بصحراء شهراباذ، وكان أرسلان شاه في ثلاثين ألف فارس وخلق كثير من الرجالة، ومعه مائة ستون فيلاً عليهم المقاتلة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، كان الظفر لسنجر شاه ومن معه، ودخل غزنة، وملك قلعتها، ورتب بهرام شاه في الملك، وقرر أن يكون الدعاء بغزنة للخليفة، ثم للسلطان محمد، ثم للملك سنجر، وبعدهم لبهرام شاه، وحصل لأصحاب سنجر من الأموال ما لا يحد، وكان من دور ملوكها عدة دور، على حيطانها ألواح الفضة وسواقي البساتين من الفضة، فقُلع أكثر ذلك ونُهب، فمنع سنجر أصحابه، وصلب جماعة، حتى كفّ الناس، وكان من جملة ما حمل لسنجر خمسة تيجان قيمة أحدها يزيد على ألفي ألف دينار وألف وثلاثمائة قطعة مصاغة مرصعة، وسبعة عشر سريرًا من الذهب والفضة، وأقام سنجر بغزنة أربعين يومًا، حتى استقر بهرام شاه، وعاد إلى خراسان، ولم يخطب بغزنة لسلجقي قبله.

ذكر القبض على الوزير محمد

قال: ولما عاد السلطان سنجر من غزنة قبض على وزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر، ابن الوزير نظام الملك، وكان سبب ذلك أنه أوحش الأُمراء، واستخف بهم، فغضبوا من ذلك، وشكوا إلى السلطان وهو بغزنة، فاستمهلهم إلى أن يخرج من غزنة، ووافق ذلك تغير السلطان عليه، لأشياء نقمها منه، منها أنه أشار على السلطان بقصد غزنة، فلما قصدها، ووصل إلى بست، أرسل صاحبها أرسلان شاه إلى الوزير محمد، وضمن له خمسمائة ألف دينار إن هو أثنى عزم السلطان سنجر عن قصدها، ورده، فلما أتته الرسالة أشار على السلطان بمصالحة أرسلان شاه، والرجوع إلى خراسان، فلم يوافقه على ذلك، وفعل بمثل ذلك بما وراء النهر، ومنها أنه نقل إليه أنه أخذ من غزنة أموالاً عظيمة المقدار، وغير ذلك، فلما عاد إلى بلخ قبض عليه، وأخذ ماله وقتله، وكان له من الجواهر والأموال شيء كثير، ووجد له من العين ألف ألف دينار، ولما قتله استوزر بعده شهاب الإسلام

عبد الرازق ابن أخي نظام الملك، ويُعرف هذا الوزير بابن الفقيه، فلم يبلغ منزلة أبي جعفر في علو الهمة، ونفاذ الكلمة، ثم ندم السلطان سنجر على قتل أبي جعفر، رحمه الله تعالى.

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه محمود بن محمد

كانت الحرب بينهما في جُمادى الأُولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وسبب ذلك أنه لما بلغ السلطان سنجر شاه وفاة أخيه السلطان محمد، وجلوس ابنه السلطان محمود، وهو زوج ابنة السلطان سنجر، حزن لوفاة أخيه حزنًا عظيمًا، وجزع، وتألم ألمًا شديدًا، وجلس للعزاء على الرماد، وأغلق البلد سبعة أيام، وتقدم إلى الخطباء بذكر أخيه السلطان محمد على المنابر بمحاسن أعماله، من قتال الباطنية، وإطلاق المكوس، وغير ذلك، وكان يلقب بناصر الدين، فتلقب بعد وفاة أخيه بمعز الدين، وهو لقب أخيه ملكشاه، وعزم على قصد بلد الجبال والعراق، وما هو بيد محمود بن أخيه، وندم عند ذلك على قتل وزيره أبي جعفر؛ لأنه كان يبلغ به من الأغراض ما لا يبلغه بكثرة العساكر، لميل الناس إليه ومحله عندهم. قال: ثم أرسل السلطان إلى عمه سنجر شرف الدين أنوشروان بن خالد، وفخر الدين طغايرك، ومعهما الهدايا والتحف، وبذل له النزول عن مازندران، وحمل إليه مائتي ألف دينار في كل سنة، فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة، فقال: لا بد من القتال، وسار نحو الريّ والأمير أتسز في مقدمته، فلما بلغ السلطان محمود مسير عمه إليه، ووصول الأمير أتسز إلى جرجان، تقدم إلى الأمير علي بن عمر، وهو أمير حاجب أبيه بالمسير، وضم إليه جمعًا كثيرًا من الأمراء والعساكر، فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس، وساروا إلى أن قاربوا مقدمة السلطان سنجر، وعليها الأمير أتسز، راسله الأمير علي بن عمر يعرفه وصية السلطان محمد، بتعظيم السلطان سنجر، والرجوع إلى رأيه وأمره، والقبول منه، وأنه ظن أن السلطان سنجر يحفظ السلطنة على ولده محمد، وأنه أخذ علينا العهود بذلك، وليس لنا أن نخالفه، وأما حيث جئتم إلى بلادنا، فلا نحتمل ذلك ولا نعصي عليه، وقد علمت أن معك خمسة آلاف فارس، وأنا أرسل إليك أقل منهم لتعلم أنكم لا تقاومونا ولا تقومون بنا، فلما سمع الأمير أتسز ذلك عاد عن جرجان، ولحقه بعض عسكر محمود، وأخذوا قطعة من سواده، وأسروا عدة من أصحابه، وعاد الأمير علي إلى السلطان حمود، وقد بلغ الريّ، وأقام بها، فشكره على ما كان منه، وأُشير على محمود بالمقام بالري، وقيل له إن عساكر خراسان إذا علموا بمقامك لا يفارقون حدودهم، ولا يتعدون ولايتهم، فلم يقبل ذلك، وضجر من مقامه، وسار ووصل إليه

الأمير منكبرش من العراق، في عشرة آلاف فارس، والأمير منصور بن صدقة أخو دبيس، والأُمراء البلخية، وغيرهم، وسار إلى همذان، فبلغه وصول عمه سنجر إلى الريّ، فسار نحوه، وقصد قتاله فالتقيا بالقرب من سادة، وكان السلطان سنجر في عشرين ألفًا، ومعه ثمانية عشر فيلاً، ومحمود في ثلاثين ألفًا، وهم أكابر الأُمراء، ومعه تسعمائة حمل من السلاح، فلما التقوا ضعفت نفوس الخراسانية، لما رأوا من عسكر محمود من الكثرة والقوة، فانهزمت ميمنة سنجر، واختلط أصحابه، وصاروا منهزمين لا يلوون على شيء، ونهب من أثقالهم شيء كثير، وقتل من أهل السواد خلق كثير، ووقف السلطان سنجر بين الفيلة في جمع من أصحابه، وبإزائه السلطان محمود، ومعه أتابكه «عز علي»، فلما تعاظم الأمر على سنجر ألجأته الضرورة أن يقدم الفيلة للحرب، وكان من بقي معه أشاروا عليه بالهزيمة، فقال: إما النصر وإما القتل، وإما الهزيمة فلا، فلما تقدمت الفيلة نفرت منها خيل أصحاب محمود، وتراجعت على أعقابها بأصحابها، فأشفق السلطان سنجر على محمود، وقال لأصحابه: لا تفزعوا الصبيّ بحملات الفيلة، فكفوها عنهم، وانهزم السلطان محمود ومن معه، وأسر أتابكة «عز علي»، وكان يكاتب السلطان، ويعده أنه يحمل إليه السلطان محمود، فعاتبه على تأخيره عن ذلك، فاعتذر بالعجز، فقتله، قال: وتم الظفر للسلطان سنجر وأرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه، ونزل في خيام السلطان محمود، وتراجع أصحابه إليه، ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيام، وأرسل الأمير دبيس بن صدقة في الخطبة للسلطان سنجر، فخطب له في السادس والعشرين من جُمادى الأولى من السنة، وقطعت خطبة محمود، وأما محمود فإنه سار من موضع الكسرة إلى أصفهان، وسار السلطان سنجر إلى همذان، فرأى قلة عسكره واجتماع العساكر على ابن أخيه محمود، فراسله في الصلح، وكانت والدة السلطان سنجر تشير عليه بذلك، وتقول له: إنك قد استوليت على غزنة وأعمالها، وما وراء النهر، وملكت البلاد، فتركت الجميع لأصحابه، فاجعل ولد أخيك كأحدهم، فأجاب إلى قولها، وراسل محمودًا في الصلح، وتحالفا، وسار السلطان محمود إلى عمه السلطان سنجر، فبالغ في إكرامه، وحمل إليه محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهرًا، وردها باطنًا، ولم يقبل منه سوى خمسة أفراس عربية، وكتب السلطان سنجر إلى سائر الأعمال التي بيده: خراسان، وغيرها، وغزنة، وما وراء النهر، بالخطبة للسلطان محمود بعده، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك، وأعاد عليه جميع ما أخذ منه، سوى الريّ، وقصد بأخذها أن يكون له في هذه البلاد، لئلا يحدّث محمود نفسه بالخروج عن طاعته.

ذكر قدوم السلطان سنجر إلى الريّ

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة خرج السلطان سنجر من خراسان إلى الريّ في جيش كثير، وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة، والملك طغرل، كانا قد التحقا به، على ما نذكره في أخبار السلطان محمود، فلم يزل دبيس يطمع السلطان سنجر في العراق، ويسهل عليه الأمر، ويلقي إليه أن الخليفة المسترشد بالله، والسلطان محمود، قد اتفقا على الامتناع منه، حتى أجاب إلى المسير إلى العراق، فلما وصل الريّ كان السلطان محمود بهمذان، فأرسل السلطان سنجر يستدعيه، لينظر هل هو على الطاعة، أو تغير على ما زعم دبيس بن صدقة؟ فبادر إلى المسير إليه، فلما وصل العسكر بتلقّيه، وأجلسه معه على التخت، وبالغ في إكرامه، وأقام عنده إلى منتصف ذي الحجة من السنة، وعاد السلطان سنجر إلى خراسان.

ذكر ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند من محمد خان وملك محمود بن محمد

وفي شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند، وسبب ذلك أنه لما ملكها رتب فيها محمد خان بن أرسلان بن سليمان بن داود بغرا خان، كما ذكرناه، فأصابه فالج، فاستناب ابنًا له يعرف بنصر خان، وكان شجاعًا، وكان بسمرقند إنسان علوي فقيه مدرس، إليه الحل والعقد، والحكم في البلد، فاتفق هو ورئيس البلد على قتل نصر خان، فقتلاه ليلاً، وكان أبوه محمد خان غائبًا، فعظم ذلك عليه، وكان له أخ آخر ببلاد تركستان، فاستدعاه، فلما قرب من سمرقند خرج العلوي، والرئيس لاستقباله فقتل العلوي في الحال، وقبض على الرئيس، وكان والده أرسلان خان قد أرسل إلى السلطان سنجر يستدعيه، ظنًا منه أن ابنه لا يتم أمره مع الرئيس والعلوي، فتجهز سنجر، وسار يريد سمرقند، فلما ظفر ابنه بهما ندم على طلب السلطان، فأرسل إليه يعرفه أنه قد ظفر بهما، وأنه على الطاعة، ويسأله العود إلى خراسان، فغضب من ذلك، وبينما هو في الصيد إذ رأى اثني عشر رجلاً في السلاح التام، فقبض عليهم وعاقبهم، فأقروا أن محمدًا خان أرسلهم ليقتلوه، فقتلهم، ثم سار إلى سمرقند، فملكها عنوة، ونهب بعضها، ومنع من الباقي، وتحصن منه محمد خان ببعض الحصون، فاستنزله بأمان بعد مدة، فلما نزل إليه أكرمه وأرسله إلى ابنته، وهي زوجة السلطان سنجر، فبقي عندها إلى أن توفي، وأقام سنجر بسمرقند حتى أخذ الأموال، والأسلحة، والخزائن، وسلّم البلد

إلى الأمير حسن تكين، وعاد إلى خراسان، فمات حسن تكين بعد مسير السلطان، فملك بعده عليها محمود بن محمد خان.

وفي سنة خمس وعشرين مات السلطان محمود بن محمد، أخي السلطان سنجر، فسار السلطان سنجر إلى العراق، والتقى هو وابن أخيه السلطان مسعود بن محمد، فانهزمت جيوش مسعود، وحضر هو إليه، فأرسله إلى كنجة، بعد أن كان مسعود استقر في السلطنة، وأقام السلطان سنجر في السلطنة السلطان طغرل أخيه محمد، وكان من أمره وأمر أخيه مسعود، ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

ذكر مسير السلطان إلى غزنة وعوده

وفي ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، سار السلطان سنجر من خراسان إلى غزنة، وسبب ذلك أنه نُقل إليه عن صاحبها بهرام شاه أنه تغير عن طاعته، ومدّ يده إلى ظلم الرعية، واغتصاب أموالهم، وكان سنجر هو الذي ملكه غزنة، كما ذكرناه، فلما قارب السلطان غزنة أرسل إليه بهرام شاه رسلاً يبذل الطاعة، والتضرع، وسأل العفو عن ذنبه والصفح، فأرسل إليه سنجر المقرب جوهر الخادم، وهو أكبر أمير عنده، ومن جملة أقطعه الريّ في جواب رسالته يجيبه إلى العفو، إن حضر عنده، وعاد إلى طاعته، فلما وصل المقرب إلى بهرام شاه أجاب بالسمع والطاعة، وركب مع المقرب، وسار لتلقي السلطان، فلما قاربا بالسلطان ونظر بهرام شاه إلى عسكره، والخبر على رأسه، نكص على عقبيه عائدًا، فأمسك المقرب بعنان فرسه، وقبح عليه ذلك، وخوفه عاقبته، فلم يرجع، وولّى هاربًا، ولم يعرج على غزنة، فسار السلطان، ودخل غزنة، وملكها واحتوى على ما فيها، وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه يلومه على ما فعله، وحلف أنه ما أراد به سوءًا، ولا مطمع له في بلده، ولا هو ممن يكدر صنيعه، ويعقب حسنته معه بسيئة، وإنما قصده لإصلاحه، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر، ويتنصل ويقول: إن الخوف منعه من الحضور، ولا لوم على من خاف من السلطان، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده، وفارق غزنة، وعاد إلى خراسان، ورجع بهرام شاه إلى غزنة.

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه أتسز بن محمد؛ وذلك أنه بلغه أنه يحدث نفسه بالامتناع عليه، وترك خدمته، وجمع خوارزم شاه عسكره، والتقوا فانهزم أصحاب خوارزم شاه، ولم يثبتوا، وقتل ولد

خوارزم شاه، وملك السلطان «خوارزم»، وأقطعها غياث الدين سليمان شاه، ولد أخيه محمد، وعاد إلى مرو، في جُمادى الآخرة منها، وهذه الحرب هي التي أوجبت الفتن العظيمة، التي نذكرها إن شاء الله تعالى.

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا، وملكهم ما وراء النهر

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة، كانت الحرب بين السلطان سنجر وبين الخطا؛ وسبب ذلك أن خوارزم شاه لما قتل ابنه في حرب السلطان، كما ذكرناه، حمله الألم إلى أن راسل ملك الخطا يستدعيه، لقصد سنجر وملك بلاده، ويهون عليه أمره، فصار في ثلاثمائة ألف عنان، وسار سنجر إليه بجميع عساكره، والتقوا بما وراء النهر، واقتتلوا قتالاً شديدًا، وانجلت الحرب عن هزيمة سنجر، وقتل من أصحابه مائة ألف قتيل، فيهم اثنا عشر ألفًا كلهم أصحاب عمامة، وأربعة آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر، وهي تركان خاتون، ثم فُديت بخمسمائة ألف دينار، وانهزم سنجر إلى ترمذ، ولم ينهزم قبلها، ولما تمت هذه الهزيمة أرسل إلى ابن أخيه السلطان مسعود، وأذن له أن يتصرف في الريّ، وما معها، على قاعدة أبيه السلطان محمد، وأمره أن يكون مقيمًا بها بعساكره، بحيث إنه إذا احتاج إليه استدعاه، ففعل ذلك، وملك الخطا ما وراء النهر، وتغلب خوارزم شاه على البلاد، في هذا التاريخ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره، وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حاصر السلطان سنجر خوارزم شاه بخوارزم؛ فراسله، وبذل الطاعة والأموال، فقبل السلطان ذلك منه، وعاد عنه.

ذكر انهزام السلطان سنجر من الغز، وأسره، وذكر أحوال الغز

ولنبدأ بذكر حال هؤلاء الغز، ومبدأ أمرهم، وما كان منهم إلى أن أسروا السلطان، فنقول: إنهم طائفة من الترك مسلمون، كانوا بما وراء النهر، فلما ملك الخِطا أخرجوهم من بلاد ما وراء النهر، فقصدوا خراسان، وكانوا خلقًا كثيرًا، فأقاموا بنواحي بلخ، يرعون في مراعيها، وكان لهم أمراء، وهم: دينار، وبختيار، وطوطي، وأرسلان، وجغر، ومحمود، فأراد الأمير قماج، وهو مقطع بلخ إبعادهم، فصانعوه لشيء بذلوه له، فعاد منه، وأقاموا على عادة حسنة، لا يؤذون أحدًا، ويقيمون

الصلاة، ويؤتون الزكاة فعاودهم قماج، وأمرهم بالانتقال عن بلده، فامتنعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك، فسار قماج إليهم، في عشرة آلاف فارس، فجاء إليه أمراء الغز، وبذلوا له عن كل بيت مائتي درهم، فلم يجبهم، وشدّد عليهم في الانشراح عن بلده، فعادوا عنه، واجتمعوا، وقاتلوه، فانهزم، ونهبوا عسكره، وأكثروا القتل في العساكر والرعايا، واسترقوا النساء والذراري، وعملوا كل عظيمة، وقتلوا الفقهاء، وخربوا المدارس، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو، وبها السلطان سنجر، فأعلمه الحال، فراسلهم وتهددهم، وأمرهم بمفارقة البلاد، فاعتذروا وبذلوا مالاً كثيرًا؛ ليكف السلطان عنهم، ويتركهم في مراعيهم، فلم يجبهم إلى ذلك، وجمع عساكره من أطراف البلاد، فاجتمع له ما يزيد على مائة ألف فارس، وقصدهم، ووقع بينهم حرب شديدة، فانهزمت عساكر السلطان سنجر، وانهزم هو في أصحابه، وتبعهم الغز يقتلون منهم، ويأسرون، حتى صارت القتلى كالتلال، وقتل علاء الدين قماج، وأسر السلطان سنجر وجماعة من الأمراء، فضرب الغز أعناق الأمراء، وأما السلطان سنجر فإن أمراء الغز اجتمعوا، وقبّلوا الأرض بين يديه، وقالوا: نحن عبيدك، لا نخرج عن طاعتك، ومضى على ذلك ثلاثة أشهر، ودخلوا معه إلى مرو، وهي كرسي مملكة خراسان، فطلبها منه بختيار إقطاعًا، فقال له السلطان سنجر: هذه دار الملك، ولا يجوز أن تكون إقطاعًا لأحد، فضحكوا منه، وَحَبَقَ[1] له بختيار بفمه، فلما رأى ذلك من فعلهم نزل عن سرير الملك، ودخل خانقاه مرو، واستولى الغز على البلاد، وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله، وولوا على نيسابور واليًا فظلم الناس، وعسفهم وضربهم، وعلق في الأسواق ثلاث غرائر، وقال أريد ملء هؤلاء ذهبًا، فثار به العامة، فقتلوه، وقتلوا من معه، فدخل الغز نيسابور، ونهبوها وجعلوها قاعًا صفصفًا، وقتلوا من بها، ولم يرفعوا السيف عن كبير، ولا صغير، ولم يسلم من بلاد خراسان غير هراة ودهستان، لحصانتهما.

ذكر هرب السلطان سنجر شاه من أسر الغز

قال: كان هربه من الأسر في شهر رمضان، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. ولما هرب سار إلى قلعة ترمذ، هو وجماعة كانوا معه من الأُمراء، فاستظهر بها على الغز، وكان خوارزم شاه أتسز بن محمد، والخاقان محمود بن محمد، يقصدان الغز

(١) حبق: أخرج ريح الحدث.

ويقاتلانهم، وكانت الحرب بينهم سجالاً، وغلب كل منهم على ناحية من خراسان ثم سار السلطان من ترمذ إلى جيحون، يريد العبور إلى خراسان، واتفق أن علي بك مقدم القادغلية توفي، وكان أشد على السلطان من كل أحد، فأقبلت القادغلية، وغيرهم، من أقاصي البلاد وأدانيها إلى السلطان، وعاد إلى دار ملكه بمرو.

ذكر وفاة السلطان سنجر شاه، وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، أصابه قولنج بعد ذَرب[١]، فمات منه، ودفن بقبة بناها لنفسه، وسماها دار الآخرة، وكان مولده بسنجار في الخامس والعشرين من شهر رجب سن سبع وسبعين وأربعمائة، فكان عمره أربعًا وسبعين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه ـ منذ سلم له أخوه السلطان بركياروق خراسان، في خامس جُمادى الأولى سنة تسعين وأربعمائة، وإلى هذا التاريخ ـ إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وأيامًا، ومنذ استقل بالسلطنة، بعد وفاة أخيه محمد نحوًا من أربعين سنة، ولم يزل أمره عاليًا إلى أن أسره الغز، كما ذكرناه، وكان من أكابر الملوك، وعظمت مملكته، ملك من نهاوند، وغزنة، وسمرقند، إلى خراسان، وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وأصفهان، وهمذان، والريّ، وأذربيجان، وأرمينية، ودانية[٢]، والعراق، وبغداد، والموصل، وديار بكر، وربيعة، ومضر، والجزيرة، والشام، والحرمين، وخطب له على منابرها، وضربت السكة باسمه، في هذه الأقاليم وبلادها، ووطئت ملوكُها بساطه، وكان من أعظم الملوك همة، وأكثرها عطاء، ذُكر عنه أنه اصطبح خمسة أيام متواليات، ذهب في الجود بها كل مذهب، فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة ألف أحمر، غير ما وهب من الخيول، والخلع، وغيرها، وفرق في يوم واحد ألف ثوب أطلس، واجتمع في خزانته ما لم يسمع أنه اجتمع في غيره من الأكاسرة، قال الشيخ جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي المنصور بن ظافر بن حسين الأزدي[٣]، صاحب كتاب الدول المنقطعة: صح عند

---

(١) الذرب: داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه.

(٢) دانية: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية كما جاء في معجم البلدان لياقوت، ولعلها دالية: وهي مدينة على شاطىء الفرات في غربيه بين عانة والرحبة صغيرة.

(٣) هو علي بن ظافر بن الحسين الأزدي، المصري، المالكي (جمال الدين، أبو الحسن) فقيه، أصولي، متكلم، مؤرخ، إخباري، أديب، ناظم، سياسي، وزر للملك الأشرف موسى بن الملك العادل، ثم ترك الوزارة وعاد إلى مصر، فتوفي بها سنة ٦١٣هـ. من آثاره: بدايع البداية فيمن قال شعرًا على البديهة، أساس السياسة، أخبار الشجعان، الدول المنقطعة في نحو أربعة مجلدات، غرائب التنبيهات، وله شعر. . . (معجم الأدباء لياقوت ١٣: ٢٦٤ ـ ٢٦٧).

جميع الناس أن الجوهر الذي اجتمع عنده كان وزنه ألفًا وثلاثين رجلًا، قال: وكان لسنجر مماليك اختصهم بالمحبة؛ فكان يشتري أحدهم بما قام في نفسه، ويهواه ويُسعده حتى إذا بقل[1] عذاره، سلاه وجفاه، وطرده، أو قتله؛ فمنهم سنقر الخاص، كان لصيرفي اشتراه السلطان بألف ومائتي دينار ركنية، وتشريف، فبلغ مبلغًا عظيمًا؛ حكى عنه عبد العزيز صاحب خزائنه عن غرامه بسنقر هذا، قال: استدعاني السلطان، وقال لي: أنت تعلم أن سنقر الخاص حدقتي، التي أنظر بها، وقلبي الذي أفهم به، وهذه خزائني تحت يدك، وحمول غزنة، وخوارزم قد وصلت، وأريد أن تصير له سرادقات كسرادقي، وخيلًا مثل خيلي، وتشتري له ألف مملوك يمشون في ركابه، وتحل إقطاع من تراه، وتضيفه إليه، وتعمل له خزانة كخزانتي، وأريده يكون صاحب عشرة آلاف فارس، وحثّني على ذلك، فشرعت في ترتيبه، وكلته في مقدار عشرين يومًا، فأنفقت عليه سبعمائة ألف دينار ركنية، سوى ما نقلته من الخزائن ومن الجواهر والثياب، وغير ذلك، وأخبرت السلطان به فسره، وشكرني عليه، وفوّض إلي أمر خزانته، مضافًا إلى الخزانة، ولم يمض سنيات حتى اخْضرّ عذاره فسلاه السلطان، وتمادى هو في بسطه، وأساءت علي أكابر الأُمراء، فتهدده، فلم يلتفت، فأمر الأمراء بقتله إذا دخل عليه، فقتلوه بالسيوف.

وممن بلغ عنده مبلغًا لم يبلغه أحد قبله، الأمير المغترب اختيار الدين جوهر التاجي الخادم، كان خادمًا لوالدة السلطان سنجر، فلما توفيت في شوال سنة عشر وخمسمائة انتقل إليه، فشغف به، وغلب حبه عليه، وارتفع إلى حد لم يرتفع إليه غيره، وبلغت عدة عسكره ثلاثين ألف فارس، وكان أمره لا يرد، وإذا ركب مشى الأُمراء في ركابه، وإذا جلس وقفوا، حتى يأْذن لهم، وأعطاه الريّ، ثم ملّه بعد ذلك، وكرهه، ودسّ عليه بعض الباطنية، فقتله غيلة.

قال: ولما مات السلطان سنجر انقطع استبداد السلجقية بمملكة خراسان، واستولى عليها خوارزم شاه أتسز بن محمد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

وزراؤه: العميد أبو الفتح بن أبي الليث إلى أن قتل في يوم عاشوراء سنة خمسمائة، واستوزر بعده ولده صدر الدين محمد إلى أن قتل ببلخ، في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة. قتله قايماز مملوك السلطان، الذي كان يهواه، فقتله به، واستوزر أبا جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر بن

---

(١) بقل الشيء: ظهر؛ وبقل وجه الغلام: نبت شعره.

الوزير نظام الملك، ثم قتله كما قدمناه، واستوزر بعده الوزير شهاب الإسلام عبد الدوام بن إسحاق، أخي نظام الملك، إلى أن توفي بسرخس، في يوم الخميس سابع المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة، واستوزر بعده الوزير بغاي بك الكاشغري[١]، فأحسن التدبير، وكان أعور، فصرفه في نصف صفر سنة ثمان عشرة، واستوزر بعده معين الدين مختص القاشاني، فقتله الباطنية، في تاسع عشر صفر سنة إحدى وعشرين، فاستوزر نصير الدين أبا القاسم محمود بن أبي توبة المروزي، وكان من أفضل الوزراء، وأجملهم سيرة، وأحسنهم طريقة، وأغزرهم أدبًا وعلمًا، وكثر في أيامه أهل العلم والأدب، وصُرِف في سنة ست وعشرين، واستوزر الوزير القوام أبا القاسم الدزكزيني، واستمر في وزارته إلى أن توفي، في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

قال: ولما حضرت السلطان سنجر الوفاة استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بغرا خان، وهو ابن أُخت السلطان، ولم يكن من السلجقية، وإنما هو من أولاد الملوك الخانية، فأقام بها خائفًا من الغز، وبقيت خراسان على هذا الاختلاف، إلى سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ثم راسله الغز، وسألوه أن يملكوه عليهم، فالتحق بهم، ثم خُلع في جُمادى الآخرة سنة ست وخمسين، وسمل، وإنما أوردنا اسمه هاهنا، على سبيل الاستطراد؛ ولأن سنجر عهد إليه بالملك بعده.

انتهت أخبار الدولة السلجقية بخراسان وما يليها، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

كمل الجزء السادس والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري رحمه الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) نسبة إلى كاشغر، وهي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك.



فهرس المحتويات